حتمية الاسلام

لأمن البشرية واستقرارها

دراسات تحليلية فى الدعوة والدعاه

بقلم

الأستاذ الدكتور

عبد الله عبد الحى محمد عبد الرازق

عميد كلية الدراسات الاسلامية والعربية

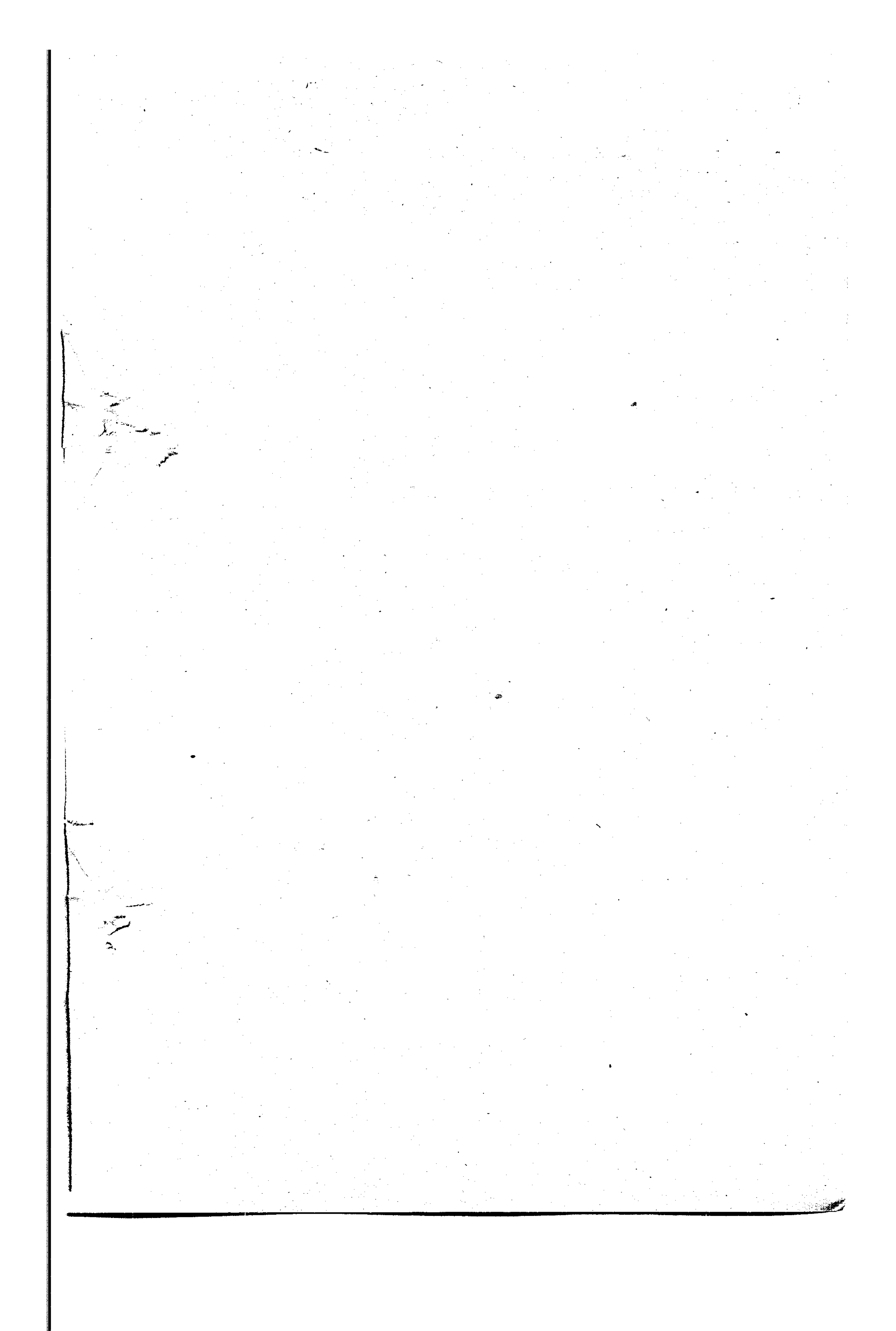
فرع جامعة الأزهر بني سويف

ورئيس قسم الدعوة والثقافه الاسلامية

بكلية أصول الدين بالقاهرة

الطبعة الرابعة

لعام ١٤١٨ هـ ١٩٩٧ م



الإهداء

إلى والدى الذين بذلا كل مـــا يمكن بذله من أجل تعليـــمي

وتربيتي.

إلي خالي العزيز الذي قرأت عليه القرآن الكريم حتي صرت

طالباً من طلاب العلم.

إلي أساتذتي الآعزاء الذين تلقيت عليهم العلم في مراحل

التعليم المختلفة .

إلي طلاب الحقيقة الباحثين عن مجال الأمن والآمان للبشرية في

كل مكان .

اقدم هذا الكتاب.

الأستاذ الدكتور

عبد الله عبد الحى محمد عبد الرازق

عميد كلية الدراسات الاسلامية والعربية

فرع جامعة الأزهر بني سويف

ورئيس قسم الدعوة والثقافه الاسلامية

بكلية أصول الدين بالقاهرة

بسم الله الرحمن الرحيم

تمهيد

الإسلام كلمة الله الأخيرة للبشر ، كما أنه المكمل للدين والمتمم لنعمة لقوله تعالى [اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام دينا](١) الآية .

كما أن القرآن الكريم وهو دستور الإسلام وأصله الذى يستمد منه كل أحكامه أتى من عند الله تعالى مصدقا لكل ما سبقه من كتب سماوية ومهيمنا عليها كما قال الحق سبحانه وتعالى [وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنا عليه فاحكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم عما جاءك من الحق لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ولكن ليبلوكم فيما آتاكم فاستبقوا الخيرات إلى الله مرجعكم جميعا فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون . وان احكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله إليك فان تولوا فاعلم أنما يريد الله أن يصيبهم ببعض ذنوبهم وإن كثيراً من الناس لفاسقون . أفحكم الجاهلية يبغون ومن أحسن من الله حكما لقوم يوقنون](٢) .

وقد ضمن الله سبحانه وتعالى حفظ هذا الدين بحفظ كتابه الكريم

---

(١) سورة المائدة / ٣

(٢) المائدة / ٤٨ ، ٥٠

قال تعالى [إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون](١) ولهذا جاءت تعاليمه شاملة لكل ما يتعلق بشئون الدين والدنيا ومن هذا المنطق يكون الكلام عن الدعوة الإسلاميـــة والتعريف بها وأحقيتها بين المسلمين وواجب المسلمين تجاه المحافظة عليها والعمل على تبليغها للناس أجمعين مع استمرارية التبليغ إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها كما سيتضح لنا ذلك بالأدلة الواضحة من الكتاب والسنة .

التعريف بالدعوة الإسلامية

الدعوة فى اللغة تطلق على أكثر من معنى جاء فى معجم مقاييس اللغة أن الدال والعين والحرف المعتل أصل واحد . ومعناه أن تميل الشيء إليك بصوت وكلام يكون منك ، تقول دعوت أدعو دعاء ، والدعوة بفتح الدال مع تشديدها تطلق على الدعاء للطعام أما بالكسر مع التشديد فهى لإدعاء فى النسب .

كما أن الدعوة تطلق فى اللغة بمعنى « الرغبة إلى الله تعالى » والفعل دعا والمصدر منه الدعاء والدعوى .

ولفظ الداعى يطلق على الرسول ﷺ . ويطلق أيضا على كل من يقوم بالدعوة إلى الله عز وجل ، وكذلك أطلق اللفظ على المؤذن . إذ هو فى الأذان يدعو إلى الصلاة ، والاسم الدعوة والدعاوة(٢) .

---

(١) سورة الحجر /٩

(٢) راجع القاموس المحيط جـ٤ ص ٣٢٩ ، معجم مقاييس اللغة ماة دعا جـ٢ ص ٢٣٩

وبالتأمل فيما سبق ندرك أن كلمة دعوة تفيد لغويا المحاولات القولية والفعلية من أجل تحقيق هدف أو عمل .

كما أن مما يجدر الإشارة إليه أن اسم الدعوة كما يطلق على ما ذكر فهو أيضا يطلق على الإسلام نفسه ولذا كانت تلك الكلمة من الألفاظ المشتركة التى تطلق على الإسلام وأيضا تطلق على عملية تبليغه للناس والسياق هو الذى يحدد المعنى المطلوب فإذا قلت لك مثلا هذا الرجل من رجال الدعوة إلى الله تعالى عرف أن الكلمة أطلقت على محاولة نشر الدعوة وتبليغها ، وإذا قلت لك اتبع دعوة الله عرف أنها أطلقت على الإسلام نفسه .

الدعوة فى الاصطلاح :

تطلق الدعوة فى الاصلاح بمعنى : قيام المستنيرين من العلماء بتبليغ الإسلام للناس وتعليمهم ما يبصرهم بأمور الدين ويرشدهم إلى حقيقة الدنيا حسب ماجاء فى دين الله تعالى على قدر الطاقة .

وهذا التعريف فى الاصطلاح يتجه إلى توضيح الدعوة إلى الإسلام(١) أما إذا قيل الدعوة الإسلامية ، أو دعوة الإسلام فإن ذلك التعريف يتجه إلى الإسلام نفسه ، والدعوة الإسلامية ظاهرة فى عقيدتها واضحة فى تعاليمها ، يدرك ذلك ويشعر به كل عاقل منصف بعيد عن المغالطة ملتزم بالأمانة العلمية، وذلك لأنها أتت بصورة لا يخفى فيها شىء من تعاليم الإسلام، كما أنه لا يتأتى كشف شىء وحجب آخر منها على بعض الناس دون بعض بمعنى أن الإسلام ليس فى تعاليمه ظاهر وباطن وإنما تعاليم الإسلام فى كل

---

(١) راجع كتابه هداية المرشدين للشيخ على محفوظ ص ٨ ، الدعوة إلى الإسلام للأستاذ أبو بكر ذكرى ص ٨

ما يعلق به سواء من ناحية العقيدة أم من ناحية العبادة أم من ناحية السلوك والأخلاق أمام كل الخلق سواء وهذا يهدم ما ألصق بالإسلام ظلما وافتراء أن هناك ظاهراً وباطنا فى الإسلام وبناء على أن الإسلام فى كل ما جاء به أمام كل الناس سواء قام رسول الله ﷺ يبلغ الإسلام للناس كل الناس لا يخص أحداً بشيء دون آخر وكيف يتأتى ذلك وقد جاء قوله تعالى (قل هذه سبيلى أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن ومن اتبعنى وسبحان الله وما أنا من المشركين)(١).

والآية واضحة فيما تأمر به ؛ إذ هى يوجه النبى ﷺ أن يمضى فى طريقه داعيا إلى الله تعالى ومبلغا دعوته لكل من يجب أن تصلهم دون أن يعوقه عن ذلك مغالطات المخالفين ، وجد الهم بالباطل وبالاضافه لما سبق تأمل معى قول الحق(٢) سبحانه وتعالى (لكل أمة جعلنا منسكاهم ناسكوه فلا ينازعنك فى الأمر وادع إلى ربك إنك لعلى هدى مستقيم وإن جادلوك فقل الله أعلم بما تعملون.

قال الإمام الشوكانى فى معنى آية (قل هذه سبيلى) أى قل يا محمد للمشركين هذه الدعوة التى أدعو إليها والطريقة التى أنا عليها سبيلى أى طريقى وسنتى .. وفسر ذلك بقوله (أدعو إلى الله على بصيرة) أى على حجة واضحة ، والبصيرة المعرفة التى يتميز بها الحق من الباطل « أنا ومن اتبعنى » أى ويدعو إليها من اتبعنى واهتدى بهدى .

قال الفراء : والمعنى ومن اتبعنى يدعو إلى الله كما أدعو وفى هذا دليل على أن كل متبع لرسول الله ﷺ حق عليه أن يقتدى به فى الدعاء إلى الله

---

(١) سورة يوسف / ١٠٨
(٢) سورة الحج / ٦٧ — ٦٨

أى الدعاء إلى الإيمان به وتوحيده والعمل بما شرعه لعباده(١) الخ .

كما يقول رحمه الله تعالى عن معنى الآيتين بعد الآية الأولى وهى (لكل أمة جعلنا منسكاهم ناسكوه) اى لكل قرن من القرون الماضية وضعنا شريعة خاصة بحيث لا تتخطى أمة منهم شريعتها المعينة لها إلى شريعة أخرى وجملة (هم ناسكوه) صفة لمنسكا والضمير لكل أمة اى تلك الأمة هى العاملة به لا غيرها ، فكانت التوراة منسك الأمة التى كانت من مبعث موسى إلى مبعث عيسى، والانجيل منسك الأمة التى من مبعث عيسى إلى مبعث محمد ﷺ والقرآن منسك المسلمين الخ .

وفيما سبق ذكره يتضح أن الدعوة الإسلامية واضحة ، لا التواء ولا خفاء ، وأن الرسول محمداً ﷺ وأمته معه ومن بعده الكل يدعون إلى الله تعالى فى وضوح تام وصراحة صادقة ، وفى الوقت نفسه ما يدعون إليه لا يصادم فطرة ولا يناقض عقلا سليما وإنما يلبى حاجة الفطرة، ويساير منطق العقل ولذلك أقبل الناس على الإسلام مؤمنين بين مستجيبين لكل ما قرره لأنه دين العقل والفطرة .

ولكل ذلك اعتبر القرآن الكريم أن من يجادل فى الله بعد هذا الوضوح الذى قرره القرآن الكريم إنما هو مجادل بالباطل لا علم معه ولا هدى لديه يهتدى به ولا حجة أمامه يسوقها تأييداً لما يذكر ، تأمل معنى قول الحق سبحانه (ومن الناس من يجادل فى الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير ثانى عطفه ليضل عن سبيل الله له فى الدنيا خزى ونذيقه يوم القيامه عذاب الحريق ذلك بما قدمت يداك وأن الله ليس بظلام للعبيد)(٢) .

والآيات التى بين أيدينا تقرر أن الجدال فى الله أى فيما يتعلق بالله وبكل

---

(١) راجع فتح القدير جـ ٣ ص ٥٩

(٢) سورة الحج من ٨ الى ١٠

ما أمر به أو نهى عنه بعد تلك الدلائل الواضحة يصبح غريبا مستنكراً ، فكيف به إذا كان جدلا بغير علم لا دليل يؤيده ولا حجة تقويه كما أنه لا يقوم على معرفة ، ولا يستمد من كتاب ينير القلب والعقل ، ويوضح الحق ، ويهدى إلى اليقين ، كما أن الآيات توضح أنه رغم خلو هذا الجدال من الأدلة والحجج فإن القائمين بهذا الجدل الواهى المثيرين له إنما يحاولون خداع السامعين لجدالهم بهذا الكبر المتعجرف والزور المنبوذ والتعالى الساقط وقد عبر القرآن عن تلك الصورة أعظم تعبير فى قوله تعالى (ثانى عطفه ليضل عن سبيل الله) فذلك اللون من الجدل المرفوض فى نظر الإسلام إذن لا يستند إلى حق كما أن أربابه يعوضون عن هذا بالعجرفة والكبر ، وياليت ذلك الجدل يقف عند أصحابه فقط وإنما هم يثيرون ما يثرون بعد أن ضلوا فى أنفسهم ليضلوا غيرهم وليحملوهم على هذا الضلال(١) .

هذا بالنسبة للدعوة فى وضوحها ووجوب تبليغها للناس جميعاً وبالإضافة لما ذكر فإن الدعوة الإسلامية حياة من يتبعونها ويستجيبون لتعاليمها كما أن بها السعادة المحققه فى الحياة الأبدية حياة الدوام والبقاء يوم يقوم الناس لرب العالمين ، لتجزى كل نفس بما كسبت من خير ومن شر قال سبحانه وتعالى (يأيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه وأنه إليه تحشرون)(٢) .

والآية كما هو واضح فيها تقرر أن رسول الله محمداً ﷺ يدعو الناس إلى دعوة الله التى تحييهم والدعوة هنا دعوة إلى الحياة بكل صور الحياة ،

---

(١) راجع تفسير الظلال للاستاذ سيد قطب المجلد الرابع ص ٢٤١١ دار الشروق

(٢) سورة الأنفال / ٢٤

إذ يدعوهم إلى عقيدة تحيي القلوب والعقول معا ، وتطلقها من أوهام الجهل والخرافة ، ومن ضغط الوهم والأسطورة ، ومن الخضوع المذل للأسباب الظاهرة والحتميات القاهرة ، ومن المعبودية لغير الله ، والمذلة للعبد أو للشهوات سواء ، تلك الدعوة التي تحرر الإنسان وتكرمه وتجعله مع الناس كل الناس سواء لا فرق بين لون أو جنس أو مال أو غير ذلك من الماديات .

كما أنها دعوة إلى منهج واضح صادق للحياة وللفكر وللتصور ، وكل ذلك يخلصهم من كل قيد سوى ضوابط الفطرة البارزه فيما وضعه خالق الإنسان العليم بما خلق ، وذلك كله يصون الطاقة الإنسانية التي تحفظ كل ما فيه المصلحة دون كبت لتلك الطاقة أو تحطيم ، كما تطلق أمامها المجال للنشاط الايجابي البناء .

ودعوة الرسول الناس لما فيه الحياة الحقه بالإضافة لما ذكر فيها ومنها وبها القوة والعزة بالعقيدة والمنهج ، والثقة كل الثقه بالدين وبالخالق الذي شرعه سبحانه ، ثم بعد كل ذلك نجد أن الآية الكريمة تلفت أنظار المؤمنين إلى معنى هام قد يخفى على أذهان الكثير وهو ما يبرز في قوله تعالى من الآية نفسها (واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه) .

هذا المعنى الخطير الذي يبرز قدرة الله القادرة اللطيفة القاهرة فالله بقدرته يحول بين المرء وقلبه ، ويستحوذ سبحانه وتعالى على ذلك القلب ، ويصرفه كيف شاء ويقلبه كما يريد ، وصاحب ذلك القلب لا يملك منه شيء ولا يستحوذ منه على ذرة وهو قلبه الذي بين جنبيه وهذا يستوجب اليقظة الدائمة ، والحذر الواعي المستمر ، والاحياط الدقيق ، اليقظه لكل خلجات هذا القلب وخفقاته ولفتاته ، والحذر من كل هواجسه وكل ميولة خشيه أن يؤدي ذلك إلى انزلاق وفي ذلك مايدفع إلى التعلق الدائم بالله القادر الذي يحول بين المرء وقلبه ، مخافة أن يقلب هذا القلب في سهوة من سهواته أو غفلاته .

ورسول الله المعصوم ﷺ الذين يأمرنا الله سبحانه وتعالى أن نستجيب له فيما يدعونا إليه لما يحيينا وهو المعصوم عليه الصلاة والسلام كان دائماً وباستمرار يدعو ربه بذلك الدعاء الصادق الذي يدرك حقيقة من صدق فيهم الإيمان « اللهم يا مقلب القلوب والأبصار ثبت قلبي على دينك » تأمل معي أيها المؤمن العاقل إذا كان ذلك بالنسبة لرسول الله المعصوم فما بالك بالناس وهم غير معصومين، ولا مرسلين ؟ إن الرسول ﷺ بهذا الدعاء وهو ينادي الناس ليستجيبوا لله وللرسول يقرر لهم أن الله قادر على أن يقهرهم على الهدى، لو اراده، وعلى الاستجابة لما يدعوهم إليه ولكنه سبحانه وتعالى — يكرمهم — فيدعوهم ليستجيبوا عن طواعية واختيار وحب ورغبة وإقبال وإقتناع ليثبت لهم الأجر ويقوموا بحق الأمانة التي أبت السموات والأرض والجبال أن يحملنها إشفاقاً وخوفاً من عدم القيام بحقها وحملها الإنسان . ثم تختم الآية بما يشير إلى العواقب وأن الإنسان عائد إلى الله تعالى محاسب على الاستجابة لما يدعوه إليه الله والرسول كما أنه محاسب على الإعراض عن ذلك وذلك يتجلى في قوله تعالى (وأنه إليه تحشرون) .

وبذلك تصبح قلوبكم بين يديه، وأنتم محشورون إليه . فليس لكم من مفر لا في الدنيا ولا في الآخرة ومع كل ذلك فهو يدعوكم لتستجيبوا استجابة الحر الذي يؤجر على مايقوم به من عمل لا استجابة العبد المقهور الذي لا اختيار له فيما يفعل أو يترك(١).

وهذا الذي تدعو إليه الآية الكريمة من حياة سعيدة يتحقق بالاستجابة

---

(١) المرجع السابق مجلد ٣ ص ١٤٩٤، ١٤٩٥

لدين الله على لسان نبيه يؤيده الواقع ويبرهن على صدقه ما عليه البشر الآن فأنت ترى البشرية مع ما برزت فيه من تقدم مادى ملحوظ تحقق الكثير منه على ظهر الأرض وفى باطنها كما تحقق منه كذلك فى الفضاء بغزوه والوصول إلى معرفة الكثير عنه مما يفيد البشرية فى علومها ومعارفها مع كل ذلك التقدم الملحوظ .

ترى البشرية تعانى كل المعاناة من القلق النفسى والتفكك الأسرى والاجتماعى والدولى أيضاً على مستوى الأسرة والمجتمع والدول — وسنرى نماذج لذلك فى صفحات هذا الكتاب فى موضعه بعون الله — هذا القلق الذى جعل الكثيرين ممن غرقوا فى بحار الماديات ونسوا واجب الروح التى بها استحق الإنسان التكريم فى إسجاد الملائكة له بأمر الله تعالى جعل هؤلاء يراجعون الحساب مع أنفسهم ويبحثون لهم عن طريق ينقذهم من تلك الشهوة الطاغية والغريزة الجامحة لعلهم يعودون إلى حياة الإنسان السعيد الذى يرى نفسه فى أسرته مع أولاده كما يدرك ذاته فى مجتمعه مع بنى جنسه . وذلك الطريق المأمول والمرتقب لا يمكن أن يكون إلا فى دين الله الخالق الذى يقتضى وحده أن يسعد عباده ويشقيهم فإن هم استجابوا له وآمنوا بما دعاهم إليه وسلكوا الطريق الذى رسمه لهم على لسان رسله سبحانه وجدوا السعادة التى يتطلعون إليها وأدركوا الكرامة التى كرموا بها وإن لم يستجيبوا لذلك كان هذا التقدم المادى سبباً فى الشقاء لكل البشر بما يجلب عليهم ما ينغص حياتهم ويحرمهم من جنى ثمار هذا التقدم المادى .

ولم يكن هذا كلام يسطر أو أسلوب ينمق وإنما تاريخ البشرية منذ نشأتها فيه ما يؤيد ذلك ويبرهن على صدقه تعال معى لتجلس لحظة مع ذلك القرآن الكريم وتأمل مثل قوله سبحانه وتعالى (لقد كان لسبإ فى مسكنهم آية جنتان عن يمين وشمال كلوا من رزق ربكم واشكروا له بلدة طيبة

ورب غفور . فأعرضوا فأرسلنا عليهم سيل العرم وبدلناهم بجنتيهم جنتين ذواتى أكل خمط وأثل وشىء من سدر قليل . ذلك جزيناهم بما كفروا وهل نجازى إلا الكفور)(١) .

وبالتأمل المنصف نرى أن الآيات الكريمة توضح ما كان عليه أهل سبأ من رزق وافر ورغد عميم ونعيم مقيم ، وأيضا تدعو الآيات الكريمة قوم سبأ أن يشكروا المنعم سبحانه وتعالى على تلك النعم الكثيرة بقدر ما يطيقون ويتحملون ، (لقد كان لسبأ فى مسكنهم آية جنتان عن يمين وشمال كلوا من رزق ربكم ، واشكروا له بلدة طيبة ورب غفور) .

وسبأ اسم لقوم كانوا يسكنون جنوبى اليمن ، وكانوا يعيشون فى أرض مخصبة ما تزال منها بقية إلى اليوم ، كما يقرر العلماء أنهم تدرجوا فى سلم الحضارة وارتقوا فى مجال الرقى حتى مكنهم ذلك من التحكم فى مياه الأمطار الغزيرة التى تأتيهم من البحر فى الجنوب والشرق فأقاموا خزانا طبيعيا يتألف جانباه من جبلين ، وجعلوا على مدخل الوادى سداً به عيون تفتح وتغلق وخزنوا الماء بكميات عظيمة وراء هذا السد . ووجهوه حسب حاجتهم إليه . فكان لهم من ذلك مورد مائى عظيم وقد عرف ذلك باسم « سد مأرب » .

وتلك الخيرات وهذه الجنان عن اليمين والشمال رمز لذلك الخصب والوفرة والرخاء والمتاع ومن ثم كانت آية تذكر بنعم الله المنعم الوهاب . وقد جاءهم الأمر من الله الكريم بالاستمتاع بهذا الرزق الوفير (كلوا من رزق ربكم واشكروا له) كما ذكرهم سبحانه وتعالى بتلك النعم نعم البلدة الطيبة ، كما تذكر بقصورهم فى الشكر والتجاوز عن السيئات انظر إلى ذلك

(١) سورة سبأ من ١٥ — ١٩

يغمرهم الله تعالى بنعمه ويذكرهم بها ويدعوهم إلى الشكر عليها لتدوم النعمة وتكون خيراً وبركة وسعادة فى الدنيا والآخرة كما يلفت سبحانه وتعالى أنظارهم إلى تلاشى ما وقع بالتوجه إلى الله بالتوبة فهو سبحانه الغفور الذى يغفر السيئات ويعفو عن الكثير كما جاء ذلك واضحا فى قوله تعالى (بلدة طيبة ، ورب غفور) .

ولكن ماذا كان منهم بعد كل ذلك الخير وهذا الرزق وذلك التذكير بما ينبغى أن يكون ؟ لم يكن منهم إلا الأعراض مكان الإقبال والجحود بدل الشكر والكفران بالنعمة بدل تقديم الشكر عليها قال سبحانه (فأعرضوا فأرسلنا عليهم سيل العرم وبدلناهم بجنتيهم جنتين ذواتى أكل خمط وأثل وشىء من سدر قليل) . أعرضوا عن شكر الله تعالى وعن العمل الصالح ، والتصرف الحميد فيما انعم الله عليهم ، فسلبهم بسببه هذا الرخاء الجميل الذى يعيشون فيه ؟ وأرسل عليهم السيل الجارف الذى يحمل ما فى طريقة من أحجار كبيرة ضخمة وهى المعبر عنها فى الآية «العرم» والعرم كما قال العلماء هو الحجارة وبهذا العقاب الالآهى حطم السد وانساحت المياه وتبددت كما طغت فأغرقت وأهلكت وبهذا العقاب لم يعد ماء يخزن بعد ذلك فجفت الأرض واحترقت ، وتبدلت الخيرات فى جنتيهم فصارت فيها الأشجار البرية الخشبية ذات الشوك بعد أن كانت من أعظم نعم الله عليهم « وبدلناهم بجنتيهم» جنتين ذواتى أكل خمط وأثل وشىء من سدر قليل) .

والخمط قيل إنه شجر الأراك ، وقيل كل شجر له شوك ، والأثل أيضا شجر قيل يشبه الطرفاء ، السدر هو النبق وهو معروف يؤكل ولم يبق لهم من الثمر سوى النبق هذا ومع أنه أقل ما يؤكل من الفاكهة قيمة ، فقد رزقوا القليل منه كما قالت الآية الكريمة « وشىء من سدر قليل) لم كل ذلك . ولم تبديل النعم وتغييرها والحرمان منها الجواب (ذلك جزيناهم بما كفروا) وتأكيداً لعدل الله سبحانه وتعالى يأتى ختام الآية هكذا

(وهل نجازى إلا الكفور) من صيغ المبالغة والكفر كفران كفر بالخالق سبحانه وتعالى، وكفر بنعمه والجحود به وعدم تقديم الشكر بل واستخدامها فى المعصية هذا ماحدث بالنسبة للخيرات التى تغمرهم مما تنبته الأرض من زرع وفاكهة .

أما بالنسبة لمساكنهم فكانوا إلى ذلك الوقت يعيشـــون فى قراهم وبيوتهم وبعد ذلك تغير الحال فبالإضافة لما حل بهم من التضييق فى الرزق حل بهم ما طلبوا من الأسفار البعيدة إذ يعيشون فى عمرانهم المتصل بمكة المكرمة فى الجزيرة العربية وبيت المقدس فى الشام فقد كانت اليمن مازالت عامرة فى بلاد سبأ من الشمال ، ومتصله بالقرى المباركة والطريق بينهما عامر مأمون المسلك وقد عبرت الآية الكريمة عن كل ذلك فى قوله تعالى (وجعلنا بينهم وبين القرى التى باركنا فيها قرى ظاهرة وقدرنا فيها السير سيروا فيها ليالى وأياما آمنين) هـذا ما كان وهى من نعم الله عليهم أيضا إذ كان الواحد منهم يخرج من قرية متجه إلى أخرى فيدخلها قبل حلول الليل فكان السفر محدود المسافات مأمونا على المسافرين كما كانت الراحة كذلك مأمونة لتقارب المنازل والقرى والمحطات فى الطريق ، إلا أنه قد غلبت عليهم الشقوة فلم ينتفعوا من النذير السابق ويأخذوا منه العبرة ، فيدفعهم ذلك للتضرع إلى الله والندم على ما بدر وطلب العفو ، لعله أن يستجيب لهم ويردهم إلى الرخاء الذى سلب منهم ، ولكنهم أسرعوا فى حماقة وجهل وسوء مصير فدعـــوا الله قائلين (ربنا باعد بيننا وبين أسفارنا) طلبوا الأسفار البعيدة المدى ، لا تلك الأسفار القليلة المريحة الآمنة التى كانوا عليها وكان طلبهم ذلك من بطر القلب وظلم النفس وسوء المنقلب ولذلك قال الله فى الآية (وظلموا أنفسهم) أى بقولهم (ربنا باعد بين أسفارنا) واستجيبت دعوتهم فشردوا ومزقوا ، وتفرقوا فى أنحاء الجزيرة فى حالة سيئة وفرقة قاتله وهذا ماجنته عليهم قسوة القلوب وضلال العقل (فجعلناهم أحاديث ومزقناهم كل ممزق) .

تسوق الله لنا حالة قوم سبأ تلك ويوضح فى أسلوب معجز أخاذ ما كانوا عليه من نعمه ثم ما حل بهم أولا ثم ما أدى بهم ذلك إلى زيادة التمرد والجحود مما أوقعهم فى عذاب فوق عذاب وفى ختام الحديث يقول سبحانه [إن فى ذلك لآيات لكل صبار شكور] وهنا يأتى الصبر قرين الشكر — وكلاهما بصيغة المبالغة — الصبر فى البأساء والشكر فى النعماء والقصة فيها العظات والعبر للصابرين، والشاكرين يأتى ختام الآيات هكذا لعل العبرة تتحقق عند كل من كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد.

تعال معي بعد ذلك وتأمل ما ذكره الإمام المفسر شهاب الدين السيد محمود الألوسى البغدادى المتوفى سنة ١٢٧٠ هـ يقول [فأعرضوا] أى عن الشكر كما يقتضيه المقام يدخل فيه الإعراض عن الإيمان لأنه أعظم الكفر والكفران وقال أبو حيان : أعرضوا عما جاء به إليهم أنبياؤهم الثلاثة عشر حيث دعوهم إلى الله تعالى وذكروهم نعمه سبحانه فكذبوهم وقالوا لا نعرف لله نعمة.

ومعنى « بدلناهم بجنتيهم جنتين ذواتى أكل » الآية أى أذهب الله عنهم جنتيهم ذات الثمار والفاكهة الطيبة النافعة بجنتين ذات ثمره حامض أو مر قال ابن عباس الخمط الأراك، ويقال لثمره إذا أسود أو مطلقا، وقيل « الأكل الخمط » كل شجرة مرة ذات شوك، (والأثل) نوع من الشجر يسمى بالطرفاء لا ثمرة به يؤكل « والسدر » قيل معناه : كما ذكره الأزهرى السدر من الشجر سدران، سدر لا ينتفع به ولا يصلح ورقه وله ثمر لا يؤكل، وهو الذى يسمى الضال.

والثانى سدر ينبت على الماء وثمرة النبق، قال قتادة : بينما شجر القوم من خير شجر إذا صيرة الله تعالى من شر الشجر بأعمالهم، فأهلك

أشجارهم المثمرة وأنبت بدلها الآراك والطرفاء والسدر(١) .

هذا بالنسبة للإنس وما حل بهم جزاء كفرهم وتمددهم على الله سبحانه وتعالى ؛ وإذا تأملنا ما جاء فى كتاب الله عز وجل نجـــد الأمر شاملا للجن كذلك أى أن العقاب الذى وقع على الإنس فى الدنيا والذى توعد الله به العصاة والمخالفين فى الآخرة هو كذلك بالنسبة للجن وهم خلق ممن خلق الله تعالى وكلفهم بعبادته كما قال فى محكم كتابه، (وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون)(٢) .

وتأمل معى ما قصه القرآن الكريم على لسان مؤمنى الجن من تهديد وجهوه لقومهم عندما ولوا مدبرين عقب سماع القرآن الكريم من النبى ﷺ ؛ وفى ذلك يقول الله سبحانه وتعالى (وإذ صرفنا إليك نفراً من الجن يستمعون القرآن فلما حضروه قالوا أنصتوا فلما قضى ولوا إلى قومهم منذرين قالوا ياقومنا إنا سمعنا كتاباً أنزل من بعد موسى مصدقاً لما بين يديه يهـــدى إلى الحق وإلى طريق مستقيم . يا قومنا أجيبوا داعى الله وآمنوا به يغفر لكم من ذنوبكم ويجركم من عذاب أليم ، ومن لا يجب داعى الله فليس بمعجز فى الأرض وليس له من دونه أولياء أولئك فى ضلال مبين)(٢) .

ومن تلك الآيات التى بين أيدينا بالإضافه إلى ما جاء فى سورة الجن وغيرها من سور القرآن الكريم تتضح لنا الحقائق الإتية :

(أ) لا بد من الاعتراف بأن هنا لك خلقا اسمه الجن وهـذا الخلق

---

(١) راجـــع تفسير روح المعانى حـ ٢٢ صـ١٢٦ ، القرطبى جـ ١٤ صـ ٢٨٧ ، ٢٨٨

(٢) سورة الذاريات ٥٦ ، ٥٧

مخلوق من النار لما ورد فى القرآن الكريم فى قوله تعالى عن إبليس (أنا خير منه خلقتنى من نار وخلقته من طين) .

ومن المعلوم أن إبليس من الجن لقوله تعالى (إلا إبليس كان من الجن ففسق عن أمر ربه) فأصل إبليس من أصل الجن والكل مخلوق من النار

(ب) هذا الخلق من الجن له خصائص تخالف خصائص البشر ومنها أنه خلق من النار كما سبق ذكره

ومنها أنه يرى الناس ولايراه الناس لقول الله تعالى (إنه يراكم هو وقبيله من حيث لاترونهم ، وأنه له قدرة على الحياة فى تلك الأرض ، لاندرى أين بالضبط .

والدليل على ذلك ماجاء من قول الله تعالى لآدم ولإبليس معاً (اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم فى الأرض مستقر ومتاع إلى حين) .

ومعلوم أن الله تعالى قد سخر الجن لنبيه سليمان وأنهم كانوا يقومون له بأعمال مختلفة لقوله تعالى (يعملون له مايشاء من محاريب وتماثيل وجفان كالجوارب وقدور راسيات) وأن قيامهم بتلك الأعمال كان على ظهر تلك الأرض ولا يتأتى منهم القيام بها إلا إذا كانوا مزودين بالقدرة على الحياة فى الأرض .

وأيضاً يحدثنا القرآن عن موقف سليمان عليه السلام وأن الجن استمروا فيما كلفهم به من عمل ولم يعلموا بموته إلا بعد سقوط جثته على الأرض لقوله تعالى (فلما قضينا عليه الموت مادلهم على موته إلا دابة الأرض تأكل منسأته فلما خر تبينت الجن أن لو كانوا يعلمون الغيب مالبثوا فى العذاب المهين) [1]

---

(١) سورة سبأ .

وأن له كذلك قدرة على الحياة خارج هذا الكوكب لقوله تعالى حكاية عن الجن (وأنا لمسنا السماء فوجدناها ملئت حرسا شديداً وشهبا ، وأنا كنا نقعد منها مقاعد للسمع فمن يستمع الآن يجد له شهابا رصداً) .

وأنه يملك التأثير فى إدراك البشر وهو مأذون فى توجيه الضالين منهم غير عباد الله المخلصين .

وقد جاء فى ذلك قوله تعالى (قال: فبعزتك لأغوينهم أجمعين إلا عبادك منهم المخلصين ، وأنه مهيأ للهداية والضلال ودليل ذلك قوله تعالى (وأنا منا المسلمون ومنا القاسطون فمن أسلم فأولئك تحروا رشداً ، وأما القاسطون فكانوا لجهنم حطبا) .

وكل ما ذكر عن الجن فهو من الأمور المستيقنة وأن الإيمان بها واجب(١) .

وقد ورد فى شأن الجن أيضا نصوص من السنة ثبتت فى الصحاح أذكر منها ما يأتى :

أخرج البخارى بإسناده عن مسدد ، وأخرج مسلم عن شيبان بن فروح عن أبى عوانة .

وروى الإمام أحمد فى مسنده قال : حدثنا عفان ، حدثنا أبو عوانة وقال الإمام الحافظ أبو بكر البيهقى فى كتابه دلائل النبوة : أخبرنا أبو الحسن على بن أحمد بن عبدان ، أخبرنا أحمد بن عبيد الصفار ، حدثنا إسماعيل القاضى أخبرنا مسدد ، حدثنا أبو عوانة عن أبى بشر عن سعيد

---

(١) راجع فى ذلك المجلد السادس من الظلال ص ٣٢٧١ وما بعدها

ابن جبير عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : ما قرأ رسول الله ﷺ على الجن ولا رآهم انطلق رسول الله ﷺ فى طائفة من أصحابه عامدين إلى سوق عكاظ .

وقد حيل بين الشياطين وبين خبر السماء ، وأرسلت عليهم الشهب فرجعت الشياطين إلى قومهم فقالوا ما لكم ؟ قالوا حيل بيننا وبين خبر السماء ، وأرسلت علينا الشهب، فقالوا : ما حال بينكم وبين خبر السماء إلا شيء حدث فاضربوا فى مشارق الأرض ومغاربها ، وانظروا ما هذا الذى حال بينكم وبين خبر السماء ، فانطلقوا يضربون فى مشارق الأرض ومغاربها يبتغون ما هذا الذى حال بينهم وبين خبر السماء ، فانصرف أولئك النفر الذين توجهوا نحو تهامة إلى رسول الله ﷺ وهو بنخلة عامداً إلى سوق عكاظ ، وهو يصلى بأصحابه صلاة الفجر ، فلما سمعوا القرآن استمعوا له فقالوا هذا والله الذى حال بينكم وبين خبر السماء ، فهنالك حين رجعوا إلى قومهم : وقالوا يا قومنا إنا سمعنا قرآناً عجباً يهدى إلى الرشد فآمنا به ، ولن نشرك بربنا أحداً وأنزل الله على نبيه ﷺ (قل أوحى إلى أنه استمع نفر من الجن) .

وأخرج مسلم وأبو داود والترمذى بإسناده عن علقمة قال : قلت لابن مسعود رضى الله عنه هل صحب النبى ﷺ منكم أحد ليلة الجن ؟

قال : ما صحبه أحد منا ولكنا كنا معه ذات ليله ففقدناه فالتمسناه فى الأودية والشعاب فقلنا : استطير ، أو اغتيل ، فبتنا بشر ليلة بات بها قوم ، فلما أصبحنا فإذا هو جاء من قبل حراء ، فقلنا يا رسول الله فقدناك فطلبناك فلم نجدك فبتنا بشر ليلة بات بها قوم . فقال ﷺ : اتانى داعى الجن فذهبت معه فقرأت عليهم القرآن) قال فانطلق بنا فأرانا آثارهم وآثار نيرانهم ، وسألوه الزاد فقال : لكم كل عظم ذكر اسم الله تعالى

عليه يقع فى أيديكم أوفر ما يكون لحما وكل بعرة أوروثة علف لدوابكم ، ولذلك قال ﷺ: فلا تستنجوا بهما فإنهما طعام إخوانكم » .

وجاءت رواية ثالثة عن ابن سحق فيما رواه ابن هشام فى السيرة عن خبر النفر من الجن بعد خبر خروج النبى ﷺ إلى الطائف يلتمس النصرة من ثقيف بعد موت عمه أبى طالب، واشتداد الأذى عليه وعلى المسلمين فى مكة . ورد ثقيف له رداً قبيحاً وإغرائهم السفهاء والأطفال به حتى أدموا قدميه ﷺ بالحجارة فتوجه إلى ربه بذلك الابتهال المؤثر العميق الكريم اللهم إليك أشكو ضعف قوتى، وقلة حيلتى ، وهوانى على الناس ياأرحم الراحمين أنت رب المستضعفين وأنت ربى إلى من تكلنى؟ إلى بعيد يتجهمنى ؟ أم إلى عدو ملكته أمرى ؟ إن لم يكن بك غضب على فلا أبالى ، ولكن عافيتك أوسع لى . أعوذ بنور وجهك الذى أشرقت له الظلمات وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن تنزل بى غضبك أو يحل على سخطك لك العتبى حتى ترضى ولا حول ولا قوة إلا بك .

قال : ثم إن رسول الله ﷺ انصرف من الطائف راجعا إلى مكة حين يئس من خبر ثقيف حتى إذا كان بنخلة قام من جوف الليل يصلى فمر به النفر من الجن الذين ذكرهم الله تبارك وتعالى وهم فيما ذكر لى سبعة نفر من جن نصيبين ، فاستمعوا له فلما فرغ من صلاته ولوا إلى قومهم منذرين قد آمنوا وأجابوا إلى ما سمعوا . فقص الله خبرهم عليه ﷺ قال الله عز وجل : وإذ صرفنا إليك نفراً من الجن يستمعون القرآن إلى قوله تعالى (ويجركم من عذاب أليم) وقال تعالى : قل أوحى إلى أنه استمع نفر من الجن فقالوا إنا سمعنا قرآنا عجبا) الخ القصة من خبرهم من سورة الجن .

وابن كثير قد عجب فى تفسيره على رواية ابن اسحق تلك قائلا : وهذا صحيح ولكن قوله : إن الجن كان استماعهم تلك الليلة فيه نظر فإن الجن كان استماعهم فى ابتداء الإيحاء كما دل عليه حديث ابن عباس رضى الله عنهما

المذكور، وخروجه ﷺ إلى الطائف كان بعد موت عمه وذلك قبل الهجرة بسنة أو سنتين كما قرره ابن اسحق وغيره .

وبالتأمل فى تلك الروايات وفى غيرها مما ورد فى شأن الجن تترجح الرواية الأولى التى ساقها ابن عباس، وذلك لأنها هى التى تتفق مع النصوص القرآنية التى يوضح أن الرسول ﷺ إنما علم عن الحادث عن طريق الوحى، وأنه ﷺ لم ير الجن ولم يشعر بهم فى هذا اللقاء كما أنها أقوى من ناحية الاسناد والتخريج وتتفق معها فى تلك النقطه رواية ابن اسحق .

والآيات كلها توضح بالنسبة للجن أن من آمن له الأجر والمثوبة من الله تعالى وأن من كفر وعصى عوقب العقاب الشديد وقد توعد سبحانه الجن والإنس أيضا كما اتضح مما مر من آيات وبالإضافة لما ذكر فإن الأمر بالدعوة قد تأكد فى آيات القرآن الكريم كما ورد به الكثير من آيات مع تحذير المكلفين من الإعراض والعناد وعدم الاستجابه لما يدعون إليه على ألسنة رسل الله أجمعين، وأيضا يدعو القرآن الكريم إلى التأمل الذى يؤدى إلى الإقتناع بما يعرض على المدعوين وقبوله والعمل بمقتضاه مع الثقة فى الداعى وتصديقه فى كل ما يخبر عنه لأنه مؤيد بالمعجزات من الله الذى اختاره للرسالة كما أنه يخبره عن وحيه الذى أمره بتبليغه لمن يجب أن يبلغهم وفى الوقت نفسه يوضح القرآن الكريم أن ثمره الإيمان تعود على المؤمنين لأن الله تعالى غنى عن العالمين لا تنفعه طاعة طائع كما لا تضره معصية مخالف وأيضا بالنسبة للداعى يوضح الآيات أنه ما دام قد قام بواجب الدعوة فإن المخالفة تقع على المخالفين قال تعالى (قل أطيعوا الله وأطيعوا الرسول، فإن تولوا فإنما عليه ما حمل أى من واجب التبليغ، (وعليكم ما حملتم) أى من واجب الإيمان والاستجابه والتنفيذ ويتضح ذلك من قوله تعالى (وان تطيعوه تهتدوا، وما على الرسول إلا البلاغ المبين)(١).

---

(١) سورة النور / ٥٤

وقوله تعالى (وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول واحذروا فإن توليتم فاعلموا أنما على رسولنا البلاغ المبين)(١) .

أهمية الدعوة

وللدعوة إلى الله تعالى أهمية كبرى إذ هى حياة الأديان، وبها تعريف الناس الحق وعليها يقوم الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ولأهمية الدعوة يمكن الجزم بأنه لم يقم دين من الأديان ، ولم يتنشر مذهب من المذاهب ، ولم يعرف مبدأ من المبادىء إلا بالدعوة. وبالتالى لم يضعف دين من الأديان ولا ملة من الملل ولا اختفت طريقه بعد ارتفاعها وعلو شأنها إلا بترك الدعوة . فالدعوة إذن حياة كل دين وأساس كل مذهب وسند كل فضيلة بين الأمم والشعوب سواء أكان ذلك الذى يدعى إليه حق أم باطل .

ومن المعروف تاريخيا وواقعا أنه ما قام أحد يدعو إلى شىء ما إلا صادق أعوانا يؤيدونه فيما يدعو إليه وخصوماً يقفون فى طريقه ، وبالتأمل فى واقع الناس نرى المذاهب الباطلة والمبادىء الهدامة تروج وتنمو بالدعوة إليها والتضحية من أجلها ، والمذاهب الحقة والأديان الصحيحه والمبادىء العادلة تضعف وتذهب بإهمالها وعدم العناية بالدعوة إليها والعمل على نشر مبادئها واظهارها للناس على حقيقتها وكشف ما يحاك وتدبر ضدها فى السر والعلن .

ولو كان الحق يقوم بنفسه وينتشر ويأخذ طريقة إلى الناس لأنه حق ما فرض الله على العباد الدعوة وأوجب عليهم القيام بها وتوعد الرسل إن لم يقوموا بواجبها بل ولما كانت هناك ضرورة إلى الأنبياء والمرسلين

---

(١) سورة المائدة/٩٢

وورثتهم من العلماء المرشدين العاملين الناصحين الداعين إلى طريق الحق وابرازاً لأهمية الدعوة نرى الله تعالى يبين مكانة الدعاة الصادقين فى قوله تعالى (ومن أحسن قولا ممن دعا إلى الله وعمل صالحا وقال إننى من المسلمين).

ويمكننا أن نوضح مراتب الدعوة فيما يأتى :

(أ) دعوة الأنبياء والمرسلين عليهم صلوات الله جميعا فدعوتهم تفوق دعوة غيرهم من عدة وجوه :

الأول : أنهم قاموا بالدعوة بالحجه وإقامة البرهان والدليل أولا ومن هنا كان من الصفات الواجبه فى حق الرسل الفطنة انظر إلى خليل الله إبراهيم وهو يدعو قومه ويصحح لهم العقيدة إذ به يقول : ربى الذى يحيي ويميت فينبرى له جاحد شقى يزهو بملكه وماله فيقول : وأنا أحيي وأميت فيأتى الخليل عليه السلام بما يعجز هذا الجاحد ويخزيه أمام الناس جميعا إذ يقول له (إن الله يأتى بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب) فكانت نتيجة الحوار كما أخبر الله تعالى لافبهت الذى كفر) وثانيا ساند الرسل الدعوة بالقوة واستخدام الجهاد الحق العادل نصرة لما يدعون إليه لأن من الناس من لم يرضح ولم يستجب أو يكف إلا بالقوة وصدق الله العظيم إذ يقول (واعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم) الآية وكان استخدام القوة فى كل دين ومع كل رسول من أجل حماية الدعوة والدفاع عن الحق والمستضعفين من أهله وتأمين الطريق أمام الداعين إلى الله رب العالمين وقلما نجد قوماً فى رحاب مبداء أو دعوة جمعوا بين هذا الذى كان فى رحاب الأنبياء والمرسلين ومن هنا كانوا هم فى المرتبه الأولى من مراتب الدعوة.

الثانى : مما تفوق به الرسل فى مراتب الدعوة : أنهم هم المبتدءون بتلك الدعوة تبليغا لما وجب أن يبلغوه ، وأما العلماء فإنهم يبنون دعوتهم

على دعوة الأنبياء فالأنبياء لهم درجة السبق من ناحية ومن ناحيه أخرى فهم الراسمون للعلماء الطريق إلى الدعوة .

وثالثا : فإن نفوس الرسل أقوى قوة ، وأرواحهم أصفى جوهراً فكان ذلك مؤثراً فى إحياء القلوب وإنارة النفوس ومن فى ذلك يصل إلى مرتبة المرسلين ؟

ورابعا : فإنه قد تحقق للأنبياء مزيتان : الكمال البشرى بحكم العصمة والتكميل للغير بحكم التأييد من الله رب العالمين فكانت قوتهم على الدعوة إلى الله تعالى أقوى ، وكانت درجاتهم أفضل وأكمل ولذلك كان للعلماء القدوة فى الأنبياء فى الجانب العلمى كما كان للملوك القدوة الكاملة فيما يمكن تحقيقة مما يثبت عنهم عليهم الصلاة والسلام ولعل تفسير العلماء للحديث [من رأى منكم منكراً فليغيره بيده فمن لم يستطع فبلسانه فمن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان] . إذ قالوا إن تغيير المنكر باليد وظيفة الحكام ، وتغييره باللسان واجب العلماء وتغييره بالقلب حظ عوام الناس الذين لا يملكون قوة ولا حجة يؤكد ذلك ويقويه .

ومن هذا الذى سبق عرضه يتضح أن أكمل الدرجات فى الدعوة إلى الله عز وجل بعد الأنبياء درجة العلماء . وقد قسم العلماء إلى ثلاث أقسام

الأول : العلماء بالله تعالى وهم الحكماء الذين جاء فيهم قوله تعالى [يؤت الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيراً كثيراً وما يذكر إلا أولو الألباب] .

الثانى : العلماء بما يجب فى حقه تعالى وما يمتنع وما يمكن وما يستحيل وغير ذلك مما وجب دراسته فى هذا المجال وهم أصحاب الأصول .

الثالث : العلماء بالأحكام التى تتعلق بالشرع وهم الفقهاء

ولذلك كان الدين هو شغل العلماء الشاغل وهدفهم الرئيسى إذ عكف قوم على النصح والارشاد والتوجيه والتذكير بكل ما يتعلق بالدين ويرتبط به من الأدب ومكارم الأخلاق وجلائل الأعمال وهم الزهاد والنساك الذين يطلق عليهم الآن الوعاظ والمرشدون ، كما عكف قوم على تعرف أصول الدين ومعرفة وجود الله تعالى وصفاته وارسال الرسل وامكان المعجزات والإيمان بالسمعيات الخ وهم المتكلمون وقوم آخرون عكفوا على استنباط الأحكام وتبويبها وإقامة الأدلة عليها من الكتاب والسنة وما تفرع عنهما وهم الفقهاء وجميع هؤلاء العلماء فى كل ما سبق من تخصصات كانوا على جانب عظيم من العلم المقرون بالعمل والورع والتقوى وهم بهذا السمت وتلك الصفات كانوا دعاة إلى الله رب العالمين . وكان يساندهم فى ذلك الملوك العادلون حيث كانوا يدعون إلى دين الله تعالى بالسيف تأديباً للمعتدى وحماية للحق ونشراً للعدل بين الناس كما كانوا تستخدمون ضد الكفار المعاندين المعتدين المحاربين لدين الله .

وخلاصة القول أن الدعوة إلى الله والحث على طاعته ، وتوحيده تعالى مع تنزيهه عن كل مالا يليق ، وإرشاد الناس إلى السراط السوى والطريق المستقيم تلك وظيفة الأنبياء والمرسلين . يقتدى بهم فيها العلماء والأمراء كل فيما وكل إليه من أمر الدعوة وذلك لأن مقصود الدعوة هو نشر الهداية الإسلامية وذلك يتحقق بتصحيح العقيدة والاستقامة فى الأعمال ، وتهذيب النفوس وتحقيق الأخوة الاسلامية ووحدة الأمة فى كل أنحاء الأرض وهدم الشرك والالحاد ومقاومته وإظهاره للناس بالصوره التى تنفرهم منه وتحولهم إلى محاربته ودفع الشبهات التى يثيرها أهله ضد الإسلام .

ولذلك كان الداعى إلى الله تعالى خليفة الله فى أرضه ، وخليفة رسوله ﷺ ، وخليفة كتابه عز وجل فى تبليغ شرائعه وفى بيان هديه وسننه ،

وفى بيان عقائده وأحكامه وأخلاقه الكريمه ، وعظاته البالغة وصدق رسول الله ﷺ فيما جاء فى قوله (الدين النصيحة ، قلنا لمن يا رسول الله قال : لله ولكتابه ولرسوله ، ولأئمة المسلمين وعامتهم) . رواه البخارى .

والدعوة من هذا المنطق ثلاثة أنواع :

النوع الأول :

قيام الأمة الإسلاميه بدعوة جميع الأمم إلى الإسلام من لهم كتاب سماوى سابق كاليهود والنصارى، ومن لا كتاب لهم كمشركى العرب ووثنى الفرس وذلك بحكم عالمية الدعوة الإسلامية وأنها فرضت على أهل الأرض جميعاً وصدق الله العظيم إذ يقول : تبارك الذى نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً)(١) .

وقوله (وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيراً ونذيراً ولكن أكثر الناس لا يعلمون)(٢) .

كما جاء الأمر لرسول الله ﷺ بدعوة أهل الكتاب إلى التوحيد فهم أولى الناس بالاستجابة لتلك الدعوة الخاتمة التى بشر بها موسى ، وعيسى من قبل عليهما السلام .

قال تعالى (قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا

---

(١) الفرقان ١

(٢) سورة سبأ ٢٨

نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون)(١)

وقوله (يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم كثيراً مما كنتم من الكتاب ويعفو عن كثير قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين يهدى به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم)(٢) .

وقوله (يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم على فترة من الرسل أن تقولوا ما جاءنا من بشير ولا نذير فقد جاءكم بشير ونذير والله على كل شيء قدير(٣) .

والآيات كما نرى تنادى أهل الكتاب من اليهود والنصارى وتدعوهم إلى مراجعة أنفسهم والتأمل فيما يدعوهم إليه الإسلام على لسان رسوله لعلهم أن يعودوا إلى الحق الذى دعا إليه أنبياؤهم من قبل موسى وعيسى وغيرهما عليهم السلام ولم يقف الأمر عند هـــذا الحد وإنما نجد القرآن الكريم يذكرهم بالعهد والميثاق اللذين أخذهما الله عليهم من قبل ومن ذلك نجد قوله تعالى :

(ولقد أخذ الله ميثاق بنى إسرائيل ، وبعثنا منهم اثنى عشر نقيباً وقال الله إنى معكم لئن أقمتم الصلاة وآتيتم الزكاة وآمنتم برسلى وعزرتموهم ، وأقرضتم الله قرضا حسنا لأكفرن عنكم سيئاتكم ولأدخلنكم جنات تجرى من تحتها الأنهار فمن كفر بعد ذلك منكم فقد ضل سواء السبيل ، فبما نقضهم

(١) آل عمران ٦٤

(٢) سورة المائدة ١٥ ، ١٦

(٣) المائدة ١٩

ميثاقهم لعناهم وجعلنا قلوبهم قاسية يحرفون الكلم عن مواضعه ، ونسوا حظا مما ذكروا به ولا تزال تطلع على خائنة منهم إلا قليلا منهم فاعف عنهم واصفح إن الله يحب المحسنين) .

وقوله فى الآية التالية لما سبق عن النصارى (ومن الذين قالوا إنا نصارى أخذنا ميثاقهم فنسوا حظا مما ذكروا به ، فأغرينا بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة وسوف ينبئهم الله بما كانوا يصنعون)(١) .

والآيات توضح أن الميثاق مع بنى اسرائيل ميثاق بين طرفين، متضمنا شرطا وجزاء لقد كان عقدا مع نقباء بنى أسرائيل الاثنى عشر الذين يمثلون فروع بيت يعقوب — وهو الملقب بإسرائيل — وعددهم اثنا عشر سبطا وقد جاء نصه فى قوله تعالى (وقال الله إنى معكم لئن أقمتم الصلاة وآتيتم الزكاة وآمنتم برسلى وعزرتموهم وأقرضتم الله قرضا حسنا لأكفرن عنكم سيئاتكم ولأدخلنكم جنات تجرى من تحتها الأنهار فمن كفر بعد ذلك منكم فقد ضل سواء السبيل) .

وقد علق النص القرآنى معية الله لهم على تنفيذهم ما طلب منهم وهو إقامة الصلاة . لا بجرد أدائها ، وإيتاء الزكاة اعترافا بنعمه تعالى فى الرزق، وملكيته ابتداء للمال، وطاعة له فى التصرف فى هذا المال وفق شروطه وهو المالك والناس فى المال وكلاء عنه (قل اللهم مالك الملك)(وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه) ومنهج المال فى الإسلام أتى بصورة تحقق التكافل الإجتماعى الذى تقوم على أساسه حياة المجتمع المؤمن، وتتحقق أسس الحياة الاقتصادية على المنهج الذى يكفل ألا يكون المال دولة بين الأغنياء وألا يكون تكدس المال فى أيد سببا فى الكساد العام بعجز الكثرة عن الشراء والاستهلاك مما ينتهى إلا توقف عجلة الحياة ، كما يؤدى إلى الترف المهلك فى مقابل

---

(١) سورة المائدة / ١٢ ، ١٣ ، ١٤

الشطف المميت للفقراء فى جانب آخر ، وثالث ما توقفت عليه معية الله لبنى إسرائيل : الإيمان بالرسل أى برسل الله جميعا دون تفرقة بينهم فكلهم مصطفى لله مبلغا عنه سبحانه وعدم الإيمان بواحد منهم كفر بهم جميعا ، كما أنه كفر بالله الذى اصطفاهم وأوجب الإيمان بهم .

والإيمان هنا فى حق الرسل ليس بجرد الإيمان السلبى إنما هو الإيمان الإيجابى الذى يصاحبه العمل الإيجابى فى نصرة الرسل وشد أزرهم فيما كلفهم الله به والعمل بما وجب أن ينفذوه من عبادات، فدين الله تعالى ليس مجرد تصور اعتقادى وإنما هو منهج واقعى للحياة ونظام محدد يصرف شئونها وكل ذلك فى حاجة إلى نصرة وإلا فما وفى المؤمن بالميثاق الذى أخذ عليه ولذلك جاء الإيمان بالرسل مقرونا بنصرتهم قال تعالى (وآمنتم برسلى وعزرتموهم) :

وبالإضافة لإخراج الزكاة جاء الحث على القرض والقرض وإن كان لعباد الله الفقراء والمحتاجين قد جاء التعبير بنسبته لله تعالى (وأقرضتم الله قرضا حسنا) حثا على الانفاق وعناية بإنفاق المال فى كل ما يحتاج إلى المال خاصة عباد الله الفقراء هذا هو الشرط وهو الطرف الأول أما الثانى فأما الجزاء فقد كان فى الآتى : تكفير السيئات وما دام الإنسان من شأنه أن يخطىء ويقع فى المحذورات فتكفير السيئات بالنسبة إليه جزاء لا يصل إلى مرتبته جزاء ورحمة من الله تعالى واسعة ،وتدارك لضعف الإنسان وعجزه وتقصيره .

وبالإضافه إلى تكفير السيئات جنة تجرى من تحتها الأنهار كما قال تعالى (لأكفرن عنكم سيئاتكم ولأدخلنكم جنات تجرى من تحتها الأنها . . .) الخ .

والجنة بالنسبة لعباد الله محض فضل منه جل وعلا ، لا يحصل عليه المرء

بعمله وإنما يناله بفضل من الله تعالى حين يبذل الجهد فى كل ما نيط به عملا أو تركا .

ثم ختم ذلك الميثاق بشرط جزائى من الله تعالى وذلك فى قوله تعالى (فمن كفر بعد ذلك منكم فقد ضل سواء السبيل) ذلك الميثاق من الله تعالى كان مع نقباء بنى إسرائيل عمن وراءهم ، وقد قبلوه جميعا وارتضوه فأصبح ميثاقا مع كل فرد فى بنى اسرائيل وعهدا مع الأمة المؤلفة منهم . والسؤال الآن ماذا كان منهم أمام ذلك العهد والميثاق ؟

كان النقض لذلك أن قتلوا أنبياء الله بغير حق بدل أن يؤمنوا بهم وينصروهم تحقيقا لما التزموا به ، كما بيتوا القتل والصلب لعيسى بن مريم عليه السلام وهو من الرسل الذين أخذ عليهم العهد والميثاق لنصرته والإيمان به كغيره من سائر الأنبياء والمرسلين كما حرفوا كتابهم « التوراة » ولم ينفذوا أحكامها . وأخيراً بالنسبة للرسل وقفوا من خاتم الأنبياء والمرسلين محمد ابن عبد الله ﷺ موقفا لئيما خسيساً ماكراً عنيداً ، وخانوه وخانوا مواثيقهم معه بالإضافة لنقضهم عهد الله وميثاقه فى رسل الله جميعاً ، ولا ننسى فى ذلك ما وقع من بنى النضير وبنى قينقاع وما حدث من يهود بنى قريظة من نقضهم العهد وانضمامهم لأحزاب الشرك والكفر والنفاق ضد الإسلام وكتابه ونبيه لكل ذلك باءوا بغضب الله وسخطه فكان عليهم يقع الطرد من رحمة الله وهداه ، وقست القلوب حتى صارت كالحجارة أو أشد قسوة فأصبحت غير صالحة لاستقبال هذا الهدى والنور من الله رب العالمين وتأمل جزاء كل ذلك فى قوله تعالى (فبما نقضهم ميثاقهم لعناهم وجعلنا قلوبهم قاسية يحرفون الكلم عن مواضعه ، ونسوا حظا مما ذكروا به) ، وصدق الله العظيم فتلك صفات لا تفارق اليهود لحظة من حياتهم قط فانظر إليهم الآن وفى القرن العشرين وأمام كل المنظمات الدولية التى كان الغرض منها تأمين الأفراد والأمم على حياتهم وممتلكاتهم وأرضهم ومقدساتهم ماذا ترى فى تصرفاتهم

ترى عقارب وحيات وثعالب وذئاب تضمر المكر والخيانه ، ولا تنى تمكر وتخون وتغدر إن أعوزتهم القدرة على التشكيل الظاهر تراهم مع المسلمين نصبوا الشباك ، وأقاموا المصائد ، وتآمروا مع كل عدو لهم حتى تحين لهم الفرصة فينقضوا عليهم قساة جفاة لا يرحمون ولا يرعون إلا ولا ذمة وجلهم كذلك كما وصفهم الله تعالى وهو الأعلم بطباعهم وخفاياهم وقد صدق الواقع جبلتهم التى أورثها إياهم نقضهم العهد والميثاق القديم والتعبير القرآنى الذى نزل فيهم فى عهد الرسول ﷺ والخاص بهم والمعبر عن حالهم مع رسول الله ﷺ فى المدينه تعبير دقيق ملفت للأنظار تأمل ذلك فى التعبير القرآنى (ولا تزال تطلع على خائنة منهم إلا قليلا منهم) نرى كل ما سبق ذكره ماثلا فى التعبير الإلاهى الحكيم ، الفعل منهم خيانه ، والكلمة خيانه ، والنظرة خيانه والنية تنطوى على الخيانه كل ذلك يحمله النص القرآنى بحذف الموصوف وإثبات الصفه « خائنة » ليتق الخيانه الحاصله منهم دائما وفى كل عصر ومع كل من يعاملون ليتق مع كل ذلك وحدها مجردة لتفيد كل ذلك .

وحقا فإن ذلك جوهر فعل اليهود حقيقة صلتهم مع الرسول ﷺ ومع الجماعة المسلمة وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ومن هنا كان القرآن هو المعلم لتلك الأمة المسلمة والمرشد لها والرائد ، وهو لذلك يكشف لها عن حال أعدائها معها ، وعن تاريخهم ومواقفهم وفى الظروف التى كانت الأمة تسترشد بالقرآن وتستمع إلى توجيهاته وتحقق قواعده وتشريعاته فى حياتها ما كان يستطيع أعداؤها أن ينالوا منها مهما دبروا ولكنها حينما خالفت القرآن وهجرته فى كل ما مر أصابها ما أصابها وحل بها كل ما يراه القريب والبعيد والعدو والصديق .

ثم بعد أن قص علينا القرآن موقف اليهود من بنى إسرائيل من العهد والميثاق مع الله ومع رسوله وما نتج عن ذلك الموقف واصل الحديث عن

النصارى من بنى إسرائيل أو عمن قالوا إنا نصارى منهم كما جاءت عبارة القرآن الكريم عنهم (ومن الذين قالوا إنا النصارى ....) الآيات .

وبالتأمل فى هذا النص القرآنى يتضح أنهم ادعوا أنهم نصارى دون أن يحققوا ذلك واقعيا وعمليا ولقد كان أساس الميثاق الذى أخذ عليهم هو توحيد الله سبحانه وتعالى إلا أنهم عندما نسوا ذلك وانحرفوا عن الخط الحقيقى حدث منهم كل ما حدث مما لا تعرفه النصرانية الحقيقية ، والواقع يؤكد أنه قد وقع بين أولئك الذين قالوا إنا نصارى من الخلاف والشقاق والعداوة والبغضاء فى القديم والحديث ما يؤيد ما قصه عنهم القرآن الكريم، سواء أكان ذلك بسبب الخلاف حول العقيدة عندهم أم سببه الخلافات على الرياسة الدينية أم غيرها فى النواحى السياسية والاجتماعية والاقتصادية وقد استمر ذلك الخلاف والعداء خلال القرون الطويلة دون أن تخمد ناره قط وستمضى فيهم إلى قيام الساعة كما قرر القرآن الكريم (فأغرينا بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة وسوف ينبئهم الله بما كانوا يصنعون) .

وكان ذلك عقاباً لهم على نقضهم الميثاق ، ونسيان ما ذكروا به من عهد الله تعالى ، وأول ما كان فى ذلك العهد مما طولبوا به هو توحيد الله عز وجل وكان ذلك بعد رفع المسيح عليه السلام بقليل .

وبعد أن عرضت الآيات السابقة ما كان من عهد على اليهود والنصارى وما وقع فيه الجميع مما يخالف العهد الذى التزموا به جاء النداء من الله تعالى الذى طالبا منهم إعلان الرسالة الخاتمة التى بعث بها خاتم المرسلين وأنهم مطالبون بها كغيرهم من الأميين وغير الأميين كما تبين لهم تلك الآيات أن هذا النبى الأمى جاء بتلك الرسالة يوضح ويبين لهم الكثير مما كانوا يخفون من كتبهم كما أنها توضح بعض الانحرافات التى وقعوا فيها ليقوموها فى معتقداتهم كقول النصارى : إن المسيح عيسى بن مريم هو الله ، وكقول اليهود والنصارى نحن أبناء الله وأحباؤه والآيات تؤكد فى الوقت نفس

أنه لن يكون لهم حجة عند الله بعد تلك الرسالة الكاشفة وأنظر للآيات وتأملها تجد ما ذكر واضحا جليا (يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم كثيراً مما كنتم تخفون من الكتاب ، ويعفو عن كثير ، قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين ... وتقول (لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم قل فمن يملك من الله شيئا إن أراد أن يهلك المسيح بن مريم وأمه ومن فى الأرض جميعاً ... ويقول (وقالت اليهود والنصارى نحن أبناء الله وأحباؤه قل فلم يعذبكم بذنوبكم بل أنتم بشر ممن خلق يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء ولله ملك السموات والأرض وما بينهما وإليه المصير .

يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم على فترة من الرسل أن تقولوا ما جاءنا من بشير ولا نذير فقد جاء بشير ونذير والله على كل شيء قدير)(١) .

ولقد حقد أهل الكتاب على النبى الخاتم ﷺ واستكثروا أن يدعوهم إلى هذا الدين الخاتم بنى من الأميين ، وقد كانوا من قبل يتعالون ، ويتعالمون عليهم ، ونسبوا أن الفضل لله يؤتيه من يشاء من خلقه ويمنحه من يصطفى من عباده (الله يصطفى من الملائكة رسلا ومن الناس) .

وهذا النداء من الله فى القرآن الكريم لأهل الكتاب يلزمهم بالإيمان والاتباع لهذا النبى الخاتم كما يفرض عليهم نصرته وتأييده بمقتضى العهد الذى أخذ عليهم ، كما يسجل عليهم شهادته سبحانه وتعالى ، بأن هذا النبى الأمى رسول إليهم كما أنه رسول إلى العرب ، وإلى الناس أجمعين فلا مبرر لإنكار رسالته ﷺ ، ولا حجة ولا مجال فى الادعاء بأنها قاصرة على العرب دون غيرهم وكيف يستساغ ذلك أمام قوله تعالى (يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم كثيراً مما كنتم تخفون من الكتاب ويعفو عن كثير » .

---

(١) سورة المائدة ١٨ ، ١٩

والله سبحانه وتعالى فى تلك الآيات يؤكد لأهل الكتاب ولغيرهم أن محمداً رسول الله إليهم وأنه بعث ليبين لهم ويوضح ما تواطأوا على إخفائه من حقائق كتاب الله الذى كان فيهم على ألسنة رسلهم سواء فى ذلك اليهود والنصارى : إذ قد أخفى النصارى الأساس الأول للدين وهو التوحيد كما سبق ذكره ، كما أخفى اليهود الكثير والكثير من أحكام التوراة كرجم الزانى ، وتحريم الربا كافة إذ حرموه فيما بينهم وأباحوه مع غيرهم كما أخفى جميع أهل الكتاب بعثة النبى الأمى (الذى يجدونه مكتوبا عندهم فى التوراة والإنجيل).

كما أنه ﷺ يعفوا عن كثير مما أخفوه أوحرفوه مما لم يرد به شرع الله فقد نسخ الله من أحكام الكتب والشرائع السابقة ما كانت له أهميته والحاجة إليه وقت وجوده فى المجتمعات الصغيرة الخاصة التى بعث إليها الرسل من قبل ولفترة محدودة من الزمان قبل أن تجىء الرسالة الشاملة العامة، المستمرة والباقية ولذلك أكملها الله تعالى وأتم بها نعمة الدين على العباد . ولأنها كذلك لم يعد الأمر يحتاج إلى نسخ ولا إلى تعديل أو تبديل ؛ وفى الوقت نفسه ستبقى تلك الدعوة الخاتمة هى النور الذى يضىء لكل البشر الطريق المستقيم ويضع أفكارهم وعقولهم على التعاليم السماوية الصادقة التى تمد الناس بكل ما يرتبط بشئون الدين والدنيا وقد جاء التعبير عن كل ذلك أصدق تعبير وأدقه فى قوله تعالى (قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين . يهدى به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم) .

ثم بعد كل ذلك ما حكم من يغير أو يبدل فى دين الله الذى ثبت على ألسنة الرسل، وما حكم من يحيد عن الحق بعد وضوحه دون لبس أو خفاء، لقد حكم الله تعالى على هؤلاء جميعا بما جاء فى قوله عز وجل (لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح بن مريم . قل فمن يملك من الله شيئا أن أراد أن يهلك المسيح بن مريم وأمه ومن فى الأرض جميعا) ؟ الآية :

من المعلوم المؤكد أن الذى جاء به المسيح عيسى بن مريم عليه السلام من عند الله تعالى هو التوحيد الذى أعلنه كل رسول وصدق الله العظيم إذ يقول (وما أرسلنا من قبلك من رسول إلى نوحى إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون)(١) .

كما أقر الرسل كل الرسل بالعبودية الخالصة لله عز وجـــل من كافة الخلائق . إلا أن العقيدة الواضحة التى أعلنها كل فى قومه عمل عنها بعض الأدعياء الذين نسبوا إلى رسل الله ظلما وافتراء وممن وقعوا فى هذا العوج وذلك الانحراف الكثيرون من أدعياء النصرانية كما وصفهم الله تعالى وقد مر ذكر الآيات الكريمة التى قررت ذلك ، وبتتبع الواقع فى تاريخهم نجد أن الانحرافات التى وقع فيها أولئك القوم لم تأت كلها دفعة واحدة، ولكنها كانت على فترات متفاوته ، وأضافتها المجامع النصرانية انحرافا يليه انحراف وهكذا .

ولقد ظلت عقيدة التوحيد بعد المسيح عليه السلام فى تلاميذه وفى أتباعهم فترة من الزمن شهد لذلك إنجيل برنابا الذى تحدث عن عيسى عليه السلام بوصفه رسولا من عند الله عز وجل، ثم بعد ذلك وقعت الخلافات بين أتباع المسيح . فمنهم من أعلن أن المسيح رسول من عند الله كسائر الرسل ، ومنهم من قال إنه ابن الله وعلل ذلك بكونه خلق بدون أب وقد رد القرآن عن ذلك فى قوله تعالى (إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون الحق من ربك فلا تكن من الممترين)(٢). إلى آخر ما جاء عندهم من خلافات فى شأن المسيح عليه السلام .

---

(١) الأنبياء / ٢٥

(٢) سورة آل عمران / ٥٩ ، ٦٠

وعندما شاعت فيهم تلك الخلافات وانتشرت حاول بعض المفكرين النصارى أن يصفوا تلك الخلافات فقرروا عقد اجتماعات فيما بينهم لعلهم أن يتفقوا على رأى معين وفعلا عقدت المجامع وكان منها مجمع نيقيه سنة ٣٢٥م الذى اجتمع فيه ثمانية وأربعون ألفا من الأساقفة والبطارقة. يذكر عنهم ابن البطريق أحد مؤرخى النصرانية ما يأتى : وكانوا مختلفتين فى الآراء والأديان. فنهم من كان يقول: إن المسيح وأمه إلاهان من دون الله وهم «البربرانية» ويطلق عليهم «الريمتيين» ومنهم من كان يقول : إن المسيح من الأب بمنزلة شعلة نار انفصلت من شعلة نار، فلم تنقص الأولى بانفصال الثانية منها وذلك اتجاه (سابليوس) وأتباعه ومنهم من كان يقول: لم تحمله مريم تسعة أشهر، وإنما مر فى بطنها كما يمر الماء فى الميزاب لأن الكلمة دخلت فى أذنها وخرجت من حيث يخرج الولد من ساعتها وهو اتجاه (إليان) وشيعته.

ورأى آخر يقول : إن المسيح إنسان خلق من اللاهوت كواحد منا فى جوهره، وإن ابتداء الابن من مريم، وإنه اصطفى ليكون مخلصا للجوهر الإنسى، صحبته النعمة الإلهية، وحلت فيه بالمحبة والمشيئة، ولذلك سمى ابن الله تعالى الله عما يقولون علوا كبيرا، ويقولون إن الله جوهر قديم واحد، وأقنوم واحـــد، ويسمونه بثلاثة أسماء، ولا يؤمنون بالكلمة، ولا بروح القدس وهذا اتجاه (بولس الشمشاطى) بطريك أنطاكية وأشياعه وهم (البوليفانيون)، ومنهم من كان يقول إنهم ثلاثة آلهة لم تزل: صالح، وطالح، وعدل بينهما. وهو اتجاه (مرقيون) اللعين وأصحابه وزعموا إن مرقيون هو زعيم الحواريين، وأنكروا (بطرس) ومنهم من كان يقول بألوهية المسيح وهو رأى (بولس الرسول) وتبعه الثلاثمائة وثمانية عشر أسقفا(١).

---

(١) راجع محاضرات فى النصرانية للمرحوم الشيخ محمد أبو زهرة، راجع المرجع السابق، وكتاب فى ظلال القرآن المجلد الثانى ص ٨٦٠ وما بعدها

وهذا الرأى الأخير اعتنقه وشجع عليه (قسطنطين) الوثنى امبراطور الدولة الرومانية بعدذخوله النصرانية واعلانها دينا لبلاده فعل ذلك وهو لايدرى عن النصرانية شيئا وقد ذكرصاحب كتاب (تاريخ الأمة القبطية) فى ذلك ما نصه : إن الجامعة المقدسة والكنيسة الرسولية تحرم كل قائل بوجود زمن لم يكن ابن الله موجوداً فيه . وأنه لم يوجد قبل أن يولدوأنه وجد من لا شيء . أو من يقول : إنه قابل للتغيير ، ويعتريه ظل دوران . غير أن هـــذا المجمع بقراراته لم يقض على نحله الموحدين أتباع (آريوس) .

وقد غلبت على القسطنطينية ، وأنطاكية ، وبابل ، والأسكندرية ، ومصر ، وبالإضافه لما ذكر فقد ظهرخلاف جديد حول «روح القدس» فمن قائل هو إله ، ومن قائل هو ليس بإله فعقد مجمع القسطنطينية الأول سنة ٣٨١ م لإيقاف تلك الخلافات وإصدار قراراته فى هذا الشأن .

ومن القرارات التى صدرت عن هذا المجمع كما ذكرها ابن البطريق (قال تيموثاوس بطريك الاسكندرية : ليس روح القدس عندنا بمعنى غير روح الله وليس روح الله شيئا غيرحياته فإذا قلنا إن روح القدس مخلوق، فقد قلنا إن روح الله مخلوق ، وإذا قلنا إن روح الله مخلوق فقد قلنا إن حياته مخلوقة ، وإذا قلنا إن حياته مخلوقة ، فقد زعمنا أنه غير حى ، وإذا زعمنا أنه غير حى فقد كفرنا به ومن كفر به وجب عليه اللعنة) .

وهكذا تقرر ألوهية روح القدس عن طريق هذا المجمع كما تقرر ألوهية المسيح فى مجمع نيقية وتم الثالوث من الأب والابن والروح القدس .

ومن هذا البيان فى القرآن يتضح يقينا أن الله تعالى أرسل رسوله محمدا ﷺ إلى الناس كافة بما فيهم أهل الكتاب الذين بدلوا وغيروا سواء منهم اليهود والنصارى وأنه بين لهم الكثير مما يخفون من الكتاب كما أقام عليهم الحجة لأن لا يقولوا ما جاءنا من بشير ولا نذير) .

كما قررت الآيات سالفه الذكر . ولقد وثق رسول الله تعالى فيما كلف به وعلم أنه مبلغ دين الله تعالى وأن هذا الدين سيعم الناس جميعاً ويبدل وثنية الفرس وإنحراف الرومان إلى توحيد صادق لله عز وجل وقد تجلى ذلك فى كثير من المواقف ومنها .

ما رواه الامام أحمد فى مسنده : حدثنا محمد بن أبى عدى عن ابن عون ابن سيرين عن أبى حذيفة عدى بن حاتم سمعه يقول : دخل على رسول الله ﷺ فقال « يا عدى أسلم تسلم » فقلت : أنا من أهل دين .

قال : « أنا أعلم بدينك منك » فقلت أنت أعلم بدينى منى ؟

قال : (نعم ألست من الركوسية وأنت تأكل مرباع قومك) ؟

قلت : بلى قال فإن هـــذا لا يحل لك فى دينك قال فلم يعد أن قالها فتواضعت لها .

قال : أما إنى أعلم ما الذى يمنعك من الاسلام، تقول إنما اتبعته ضعفة الناس ، ومن لا قوة له ، وقد رمتهم العرب ، أتعرف الحيرة ؟

قلت : لم أرها وقد سمعت بها قال : فوالذى نفسى بيده ليتمن الله هذا الأمر حتى تخرج الظعينة من الحيرة حتى تطوف بالبيت من غير جوار أحد ولتفتحن كنوز كسرى ابن هرمز .

قلت كسرى ابن هرمز ؟ قال : نعم كسرى ابن هرمز وليبذلن المال حتى لا يقبله أحد .

ولقد كنت فيمن فتح كنوز كسرى بن هرمز والذى نفسى بيده لتكونن الثالثة لأن رسول الله ﷺ قد قالها . وسيأتى لذلك مزيد عند الكلام عن خصائص الدعوة .

النوع الثانى ومن أنواع الدعوة :

أن يقوم المسلمون أصحاب الفقه والعلم بتفقيه المسلمين وتعرفهم على تعاليم الاسلام فى كل ما يتعلق به ولذلك أوجب الله على فئة من المسلمين أن يتخصص أفرادها فى تعاليم الاسلام وأحكامه ليمكنهم القيام بتلك المهمة قال تعالى : (وما كان المؤمنون لينفروا كافة فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا فى الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون)(١) .

قال الامام الألوسى فى تفسير تلك الآية : (ليتفقهوا فى الدين) أى ليتكلفوا الفقاهة فيه فصيغة التفعل للتكلف ، وليس المراد به معناه المتبادر بل مقاساة الشدة فى طلب العلم لصعوبته فهو لا يحصل بدون جد وجهد (ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون) أى عما ينذرون فيه وضمير ليتفقهوا ولينذروا عائد إلى الفرقة الباقية المفهومة من الكلام .

وقد علق الألوسى قائلا : وكان الظاهر أن يقال « ليعلموا » بدل « لينذروا » ، و« ويتفقهون » بدل « يحذرون » لكنه اختير ما فى النظم الجليل للاشارة إلى أنه ينبغى أن يكون غرض المعلم الإرشاد والانذار وغرض المتعلم اكتساب الخشية لا التبسيط والاستبعاد(٢) .

كما ذكر الامام الشوكانى فى تفسيره عن تلك الآية : قوله اختلف المفسرون فى معنى « وما كان المؤمنون لينفروا كافة » ، فذهب جماعة إلى أن من بقية أحكام الجهاد لأنه سبحانه وتعالى لما بالغ فى الأمر بالجهاد ، والانتداب إلى الغزو كان المسلمون إذا بعث رسول الله ﷺ سرية إلى

---

(١) سورة التوبة ١٢٢

(٢) راجع جـ١١ صـ٤٨ للامام الألوسى ، جـ٨ صـ٢٩٤ للامام القرطبى

الكفار ينفرون جميعاً ويتركون المدينة خالية فأخبرهم الله سبحانه وتعالى بأنه ما كان لهم ذلك أى وأصح لهم ولا استقام أن ينفروا جميعاً .

بل ينفر من كل فرقة منهم طائفة من تلك الفرقة ويبقى ما عدا هذه الفرقة النافرة قالوا ويكون الضمير فى قوله ليتفقهوا عائداً إلى الفرقة الباقية والمعنى إن الطائفة من هذه الفرقة تخرج إلى الغزو ، ومن بقى يتفقون لطلب العلم ، ويعلمون الغزاة إذا رجعوا إليهم من الغزو ، أو يذهبون فى طلبه إلى المكان الذى يجدون فيه من يتعلمون منه ليأخذوا عنه الفقه فى الدين وينذروا قومهم وقت رجوعهم إليهم .

وذهب آخرون إلى أن هذه الآية ليست من بقية أحكام الجهاد ، ولكنها جاءت لبيان مشروعية الخروج لطلب العلم والتفقه فى الدين، جعله الله سبحانه وتعالى متصلا بما دل على إيجاب الخروج إلى الجهاد فيكون السفر نوعين :

الأول : سفر الجهاد .

والثانى : السفر لطلب العلم ، ومن المعروف أن السفر لطلب العلم إنما يكون فى حق الطالب الذى لا يجد من يتعلم منه فى الحضر يقول الإمام الشوكانى فى تفسيره للآية بعد ذلك .

والمعنى : فهلا نفر جماعة بغرض التفقه فى الدين ، وإنذار من لم يفقه ، فجمع بين القصدين الصالحين ، والمطلبين الصحيحين ، وهما تعلم العلم وتعليمه ، فمن كان غرضه بطلب العلم غير هذين ، فهو طالب لغرض دنيوى لا لغرض دينى الخ(١) .

---

(١) راجع فتح القدير ، الجامع بين فنى الرواية والدراية من علم التفسير جـ٢ ص٤١٦

النوع الثالث والأخير من أنواع الدعوة :

قيام المسلمين جميعاً كل بقدر مايعلم فى الدين فيما بينهم بالدلالة على الخير والترغيب فيه والنهى عن الشر والتحذير منه .

ولهذا النوع أهميته فى مجال الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فعندما يقوم المسلمين فيما بينهم بهذا الواجب ترى الكثيرين منهم يدركون خطر الوقوع فى الشر فيحاولون الابتعاد عنه ، كما يدركون فى الوقت نفسه أهمية الطاعة ودرجة الصلة بالله وتنفيذ أوامره فيقبلون على ذلك وينفذونه وبذلك يسير المجتمع فى الطريق الصحيح الذى رسمه الله تعالى لعباده .

ولذلك نرى القرآن الكريم يحث على الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ويبين أن تلك الأمة المسلمة الخاتمة لما سبقها من الأمم حازت على الخيرية بالايمان بالله تعالى وبالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر .

كما نرى القرآن يضع الناس كل الناس فى دائرة من الخسران ثم يبين أن المنافذ التى منها يمكن للإنسان التخلص من تلك الدائرة ، تتجلى فى الإيمان بالله وبكل ما وجب الإيمان به ، والعمل الصالح والتواصى بالحق ، والتواصى بالصبر ، وذلك يتجلى فى سورة العصر فاستمع إليها وتأمل قول الحق سبحانه وتعالى فيما قرره .

يقول جل وعلا : « والعصر إن الإنسان لفى خسر إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر » .

وبتأملنا فى الأسلوب فى قوله تعالى : (وتواصوا) فى جانب كل من الحق والصبر نجد أنه ورد بصيغة التفاعل التى تدل على وقوع الحدث من الجانبين أى أن المسلم يوصى غيره بالحق ويقبل الوصية بذلك من غيره وأيضا الحال بالنسبة للتواصى بالصبر .

وتأكيدا لهذا الذى مر فى أنواع الدعوة قد قسم الشيخ على محفوظ إلى ثلاثة أقسام :

الأول : تبليغ الدعوة من جانب المسلمين لغيرهم من كافة الناس .

الثانى : قيام المستنيرين من المسلمين بدعوة غيرهم إلى الإسلام وتفقيههم فى الدين وتوضيح كل ما يتعلق بالإسلام من ناحية العقيدة ، والعبادة ، والمعاملات والسلوك .

الثالث : ما يشمل الخاصة والعامة كل حسب ما يعرف من تعاليم الإسلام الصحيحة(١) .

---

(١) أنظار هداية المرشدين ، تفسير المنار للشيخ رشيد رضا

طبيعة الدعوة الإسلامية

مما سبق ذكره يتضح لنا أن الله عزت قدرته وجلت حكمته قد أرسل رسوله محمداً ﷺ على حين فترة من الرسل حتى لا يكون لأحد على الله حجة كما قال تعالى (رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل وكان الله عزيزاً حكيما . لكن الله يشهد بما أنزل إليك أنزله بعلمه والملائكة يشهدون وكفى بالله شهيداً)(١) .

وقد شاء تعالى أن يكون القرآن وهو دستور الإسلام مصدقا لكتب الله السابقة ومهيمنا عليها ويتجلى ذلك فى قوله تعالى (وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنا عليه فاحكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم عما جاءك من الحق لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ولكن ليبلوكم فيما آتاكم فاستبقوا الخيرات إلى الله مرجعكم جميعا فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون)(٢) .

وفى الوقت نفسه رسم الله الطريق للنبى الخاتم ﷺ طريقا سويا واضحا يسير فيه وعليه وهو يقوم بواجب الدعوة فى تبليغها للناس وقد أتت دعوة الإسلام واضحة فى عقيدتها لا تصادم عقلا ولا تناقض الفطر السليمة كما أتت سهلة ميسرة فيما فرض على المؤمنين بها من عبادات ولتيسير العبادات أكثر وأكثر جاءت فيها الرخص مقرونة بالعزائم فمن عجز عن القيام بالواجب لعذر من الأعذار المقبولة شرعاً استخدم الرخصه كما جاء فى القاعدة الشرعية السليمة إن الله يحب أن تؤتى رخصه كما يحب أن تؤتى عزائمه فمثلا فى الصلاة من عجز عن الطهارة بالماء لمرض أو سفر

---

(١) سورة النساء رقم ١٦٥ ، ١٦٦

(٢) سورة المائده ٤٨

استخدم رخصة التيمم ومن عجز عن الصيام فى رمضان لمرض أو كبر سن فله الفطر وعليه الإعادة من أيام أخر، أو الفدية إن كان عذره لا يمكنه من الصيام طول حياته كالشيخوخة والمرض الذى لا يرجى معه الشفاء وسيأتى مزيد للكلام عن الرخص عند الحديث عن عالمية الدعوة ومرونة تعاليمها وبالإضافة لذلك فإن الإسلام يحترم العقل ويقدره بل وأن التكاليف منوطه بالعقل والشرع معا فمن فقد العقل والعياذ بالله رفع عنه التكليف ولأهميـــة العقل فى الإسلام قد حرم الله على العباد كل ما يفسده العقل ويغيبه ويعوقه عن قيادة الإنسان القيادة الرشيده الواعية كما أن الإسلام يدعو إلى تنمية الفكر والأخذ به إلى النظر فى ملكوت السموات والأرض ومن استخدم عقله وصار به عالما يعرف خالقه حق المعرفة ويقدره حق قدره جعله الله فى مرتبه تلى مرتبة الملائكة قال تعالى (شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم قائما بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم)(١)

كل تلك التعاليم الإسلامية وهى كثيره ومتنوعة يدرجه جملتها تشمل محيط البشريه جمعاء فيما يتعلق بالدين أو يرتبط بالدنيا قد أقامها الله تعالى على أساس توحيد الله تعالى والاعتراف بوحدانيته جل وعلا وتنزيهه عن كل مالا يليق، مع إخلاص العبادة له دون غيره.

وهنا يأتى هذا التساؤل : هل بعد وضوح الدعوة فى عقيدتها، ويسرها فى عبادتها وأحكامها وعدلها فى معاملاتها وأستقامة سلوكياتها هل بعد كل ذلك يوجد مجال للقول ؛ بأن من طبيعة الدعوة إكراه الناس على الإعتقاد ؟ اللهم إن تلك فرية وهـــذا زعم باطل تبرأ منه تعاليم

---

(١) سورة آل عمران ١٨

الدعوة براءة الذئب من دم يوسف ، و فى الواقع ألف دليل على فساد ذلك وأنه أفتراء وأفتراء .

إن الإسلام الكريم قد أعلنت تعاليمه فى جلاء ووضوح ومن فجر الإسلام الأول أن الله كرم الإنسان على سائر الخلق وأصطفاه الله من بينها خليفة عنه فى الأرض،وأنه سبحانه و تعالى قد أسجد لآدم أبى البشر ملائكته المكرمين .

قال تعالى : (ولقد كرمنا بنى آدم وحملناهم فى البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا)[1].

وقال تعالى : (وإذ قلنا للملائكة أسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى واستكبر وكان من الكافرين)[2] .

والآية الأولى توضح تكريم الله لآدم وتفضيله على كثير من خلق الله تعالى وقد تجلى التكريم فى العديد من المجالات كرمه فى الخلق إذ جعله على تلك الهيئة بتلك الفطرة التى تجمع بين الطين والنفخة من روح الله تعالى، كما كرمه بالإستعدادات التى فطر عليها ، والتى استحق بها الإستخلاف عن الله فى الأرض ، أيضاً كرمه بتسخير القوى الكونية له فى الأرض ، وأمداده بعون القوى الكونية فى الكواكب والأفلاك وصدق الله إذ يقول (يأيها الناس أعبدوا ربكم الذى خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون الذى جعل لكم الأرض فراشا والسماء بناء وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقاً لكم فلا تجعلوا لله أنداداً وأنتم تعلمون) البقرة .

---

(١) سورة الإسراء ٧٠

(٢) سورة البقرة ٣٤

وقوله : (هو الذى جعل لكم الأرض ذلولا فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه وإليه النشور) .

كما كرمه بذلك الموكب العظيم الذى نفذت فيــه الملائكة أمر ربها فى السجود لآدم أبى البشر ، كما توضح تلك الآية الأولى أن الله تعالى سخر نواميس الكون وجعلها موافقة لطبيعة الحياة الإنسانية،ومار كب فيها من استعدادات ، ولولا ذلك ما أمكن أن تقوم الحياة الإنسانية وهى ضعيفة بالقيـاس إلى العوامل الطبيعية فى البر والبحر ، وما زود الله به الإنسان وهيأه عليه من استعدادات بالإضافة إلى تسخير النواميس الكونيه له ذلك جدير بالتكريم الذى كرم به كما هيأه للقيـــام بحق الإستخلاف فى الأرض .

وقد أتت تعاليم الإسلام بالإضافة لما تقدم ذكره بالنسبة لتكريم الإسلام له أتت بما يحقق الأخوة الإسلامية والإنسانية بين بنى البشر جميعاً بصرف النظر عن اللون والجنس، كما أنها أكدت أن الله تعالى أرسل رسله إلى الناس كل رسول أتى قومه بما يتناسب معهم وألزم الله تعالى عباده بالإيمان بكل الرسل دون أن يفرقوا بين رسول وآخر .

قال تعالى : (ياأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير) وقال جل وعلا(آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لانفرق بين أحد من رسله وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير) .

وأيضاً فإن التعاليم الإســـلامية قررت أن الأنبياء جميعا متفقون فى الإيمان بوحدانية الله والدعوة إلى تحقيقها فى قلوب الخلق أجمعين وأنه تعالى هو وحده المستحق للعبادة دون غيره وقد تجلى ذلك فى الكثير من

آيات القرآن الكريم فمن دعوة الرسل كل الرسل إلى الإيمان بتوحيد الله وعبادته جاء قوله تعالى : (وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون)(١) .

كما جاء قوله تعالى عن الموحى به بين رسل الله جميعاً قوله تعالى : (إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده وأوحينا إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط وعيسى وأيوب ويونس وهارون وسليمان وآتينا داود زبوراً(٢) .

وقوله تعالى (شرع لكم من الدين ماوصى به نوحاً والذى أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه كبر على المشركين ما تدعوهم إليه الله يجتبي إليه من يشاء ويهدى إليه من ينيب)(١)

وهكذا تقرر تلك الآيات بالإضافة إلى الكثير من آيات القرآن الكريم الوحدة بين رسل الله جميعاً كما تقرر أن شرع الله إلى العباد شرع إيمان وحب وصدق واخلاص لا نفره فيه بين مؤمن وآخر ولا عداء ولا ظلم .

كما أن آيات القرآن فى الوقت نفسه تؤكد أن الإسلام إنى خاليا من التعقيد والتناقض، وأن تعاليمه لاغموض فيها ولا ألغاز كما أنها لا تستعصى فى الفهم أمام عقل رشيد وفكر مستقيم ولا يتاتى أن يقع شيء من ذلك

---

(١) سورة الأنبياء / ٢٥

(٢) سورة النساء / ١٦٢

(٣) سورة الشورى / ١٣

فى تعاليمها وهى دعوة خاتم الأنبياء والمرسلين مهد لها الأنبياء السابقون وبها ختمت رسالة السماء إلى أهل الأرض أجمعين دعوة الإسلام هى نداء الفطرة وزادها قال تعالى (فأقم وجهك للدين حنيفا فطرة الله التى فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون)(١).

هذه هى الدعوة الإسلامية وتلك تعاليمها المستمدة من نصوصها والمأخوذة من القرآن الكريم دستور الدعوة الإسلامية وهذا موقفها من الرسل والرسالات السابقة فهى فى تعاليمها فى كل ما أتت به ما يدعو الناس إلى اكراه إنه قلب للحقائق، ومغالطة للواقع أن يقال ذلك بالنسبة لها وكيف يعقل ذلك أو يقبل ونحن نرى أن الناس جبلوا على رفض ما يملى عليهم بالإكراه وأنهم إن قبلوه فترة لظروف القهر والغلبه فسرعان ما يتخلون منه ويعلنون الثورة ضده فى أقرب فرصه تتيح لهم ذلك وبالإضافه لكل ماسبق، عندما تمعن التأمل فيما جاء من نصوص تتعلق بالعقيدة والعبادة نجد أنها ترفض الإيمان القائم على الاكراه والقسر وهذا هو منطلق الدعوة الإسلامية لأنها بينت أن الله تعالى لو شاء أن يجبل الناس على الإيمان بالجبلة والطبيعة لفطرهم عليه شأنهم فى ذلك شأن الملائكة.

قال تعالى (ولو شاء ربك لآمن من فى الأرض كلهم جميعا أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين. وما كان لنفس أن تؤمن إلا بإذن الله ويجعل الله الرجس على الذين لا يعقلون قل انظروا ماذا فى السموات والأرض وما تغنى الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون)(٢).

ويقول سبحانه (وإن كان كبر عليك اعراضهم فإن استطعت أن تبتغى نفقا فى الأرض أو سلما فى السماء فتأتيهم بآية ولو شاء الله لجمعهم على الهدى

(١) سورة الروم/ ٣٠
(٢) سورة يونس/ ٩٩، ١٠١

فلا تكونن من الجاهلين إنما يستجيب الذين يسمعون والموتى يبعثهم الله ثم إليه يرجعون .

وبالإضافة لما تقدم فإن الله سبحانه وتعالى قد أخذ العهد والميثاق على ذرية آدم جميعا وأشهدهم بذلك على أنفسهم فاعترفوا بربوبيته تعالى وأمروا بها كما ذكرتهم الآية بذلك وقررت أنه لا عذر فى المخالفة ولا احتجاج بغفلة تصيطر على أحد كما أنه لا حجة بتقليد الآباء والأمهات فى انحراف تأمل ذلك كله فى قوله تعالى (وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين . أو تقولوا إنما أشرك آباؤنا من قبل وكنا ذرية من بعدهم أفتهلكنا بما فعل المبطلون وكذلك نفصل الآيات ولعلهم يرجعون)(١) .

وفى تلك الآيات جميعاً نجد أن الله سبحانه وتعالى يخبر نبيه ﷺ ويوضح له أن من أعرضوا عن الإيمان ولم يستجيبوا لنداء الله فى ذلك على ألسنة رسله إنما ذلك حدث بمقتضى علم الله تعالى وحكمته دون أن يظلم أحداً قهر يوقعه فيما يقع فيه وإنما كان ذلك بعد أن زود الله آدم وذريته بما يوضح له الطريق المستقيم ويرغبه فيه ويبين له السبل الباطلة ويحذره منها مع وجود العقل والمنطق الذى يجعل فى إمكان المكلف — بالتأمل فى شرع الله تعالى — أن يعرف حقيقة الحق وبطلان الباطل (ولو علم الله فيهم خيراً لأسمعهم ولو أسمعهم لتولوا وهم معرضون)(٢) .

وإذا كان قد اتضح لنا أن طبيعة الدعوة الإسلامية لا إكراه فيها على الإيمان وإنما دعت تعاليمها الناس جميعاً أن يستجيبوا لنداء الفطرة التى فطرهم عليها الله سبحانه وتعالى ويؤمنوا مختارين ليقبل إيمانهم إذا كنا نرى ذلك

---

(١) سورة الأعراف / ١٧٢ — ١٧٥
(٢) سورة الأنفال / ٢٣

فإننا نراه أيضا مع دعوة كل الرسل السابقين والدليل على ذلك موقف فرعون الذى ظل طويلا من الزمن يتبجح فى ادعاء الربوبيه ويجبر الناس على الإيمان به فى ذلك حتى أرسل الله تعالى نبيه موسى عليه السلام يؤازره فى ذلك أخوه هرون ويقول لهما (اذهبا إلى فرعون إنه طغى فقولا له قولا لينا لعله يتذكر أو يخشى)(١) .

وقام موسى يبلغ تعاليم ربه إلى فرعون وقومه ولكنهم أعرضوا وحدث من فرعون ما حدث وتجلت معجزة الله لموسى فى العصا مع البحر ونجى الله موسى ومن آمن معه وجاء الغرق يحيط بفرعون من كل مكان وهنا وفى ذلك الوقت الحرج يعلن فرعون مستنجداً طالبا الإنقاذ وغابت عنه افتراءاته فى ادعاء الربوبية أو تناسى ذلك وقال كما يحكى القرآن الكريم على لسانه (قال تعالى : وجاوزنا ببنى اسرائيل البحر فأتبعهم فرعون وجنوده بغيا وعدواً حتى إذا أدركه الغرق قال آمنت أنه لا إله إلا الذى آمنت به بنوا اسرائيل وأنا من المسلمين) ماذا كان فى مقابل ذلك هل قبل منه صرخات لسانه وهو يعلن أنه آمن بإله بنى اسرائيل واعترف باللسان بأنه لا اله غيره؟ كلا لم يقبل منه ذلك لأن ذلك كما قرر العلماء إيمان المكره وهو لا يقبل عند الله تعالى ويتضح ذلك فى الآية التالية إذ رد عليه المولى سبحانه وتعالى بقوله (آلآن وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين فاليوم ننجيك ببدنك لتكون لمن خلفك آية وإن كثيراً من الناس عن آياتنا لغافلون)(٢) .

وتأكيداً لهـذا المبدأ مبدأ الاعتقاد بعيداً عن الاكراه نرى أن الأنبياء كانوا يعلنون أمام قومهم أنهم لا يكرهون أحداً فى اعتناق الحق وإنما يوضحون لهم الحقائق ويرغبونهم فى الإيمان ويشرحون نتائجه الطيبة الكريمه

---

(١) سورة طه/ ٤٣ — ٤٤

(٢) سورة يونس/ ٩٠—٩٢

في الدنيا والآخره كما يوضحون لهم ظلمات الكفر والضلال ويحذرونهم من عواقبة في الدنيا والآخرة ومن هنا كانت دعوة الرسل إلى الإيمان بالله تعالى أساسها النظر والتأمل في الكون وأخذ الدليل بالفكر المستقيم وتعالى معى لتأمل دعوة نوح أبي الأنبياء لقومه وهو يناديهم على أساس الفكر والمنطق لا على قانون الالزام والإكراه .

قال تعالى (ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه إني لكم نذير مبين، ألا تعبدوا إلا الله إني أخاف عليكم عذاب يوم أليم ، فقال الملأ الذين كفروا من قومه ما نراك إلا بشراً مثلنا وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا بادي الرأي وما نرى لكم علينا من فضل بل نظنكم كاذبين . قال يقوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربي وآتني رحمة من عنده فعميت عليكم أنلزمكموها وأنتم لها كارهون)(١).

ويقول سبحانه عما دار من هود بينه وبين قومه (والى عاد أخاهم هوداً قال ياقوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره إن أنتم إلا مفترون ياقوم لا أسالكم عليه أجراً إن أجرى إلا على الذى فطرنى أفلا تعقلون . وياقوم استغفروا ربكم ثم توبوا إليه يرسل السماء عليكم مدداداً ويزدكم قوة إلى قوتكم ولا تتولوا مجرمين قالوا ياهود ما جئتنا ببينة وما نحن بتاركى آلهتنا عن قولك وما نحن لك بمؤمنين ان نقول إلا اعتراك بعض آلهتنا بسوء قال إنى أشهد الله واشهدوا أنى برىء مما تشركون من دونه فكيدونى جميعا ثم لا تنظرون إنى توكلت على الله ربى وربكم ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها ان ربى على صراط مستقيم . فان تولوا فقد أبلغتكم ما أرسلت به اليكم ويستخلف ربى قوما غيركم ولا تضرونه شيئا ان ربى على كل شيء حفيظ)(٢) .

---

(١) سورة هود / ٢٥ — ٢٨

(٢) سورة هود / ٥٠—٥٧

وكذلك الحال بالنسبة لخليل الله إبراهيم مع أبيه وقومه يقول الله تعالى (وإذ قال إبراهيم لأبيه يا أبت لم تعبد مالا يسمع ولا يبصر ولا يغنى عنك شيئا يا أبت إنى قد جاءنى من العلم ما لم يأتك فاتبعنى أهدك صراطا سويا)(١)

وهكذا الحال بالنسبة لسائر الأنبياء ، وبالتأمل فى هذا المجال نرى أن الله سبحانه وتعالى بعد أن يقص على خاتم أنبيائه محمد بن عبد الله ﷺ ما يقص عن الأنبياء السابقين مع قومهم يقول له (ذلك هدى الله يهدى به من يشاء من عباده ولو أشركوا لحبط عنهم ما كانوا يعملون . أولئك الذين آتيناهم الكتاب والحكم والنبوة فإن تكفر بها هؤلاء فقد وكلنا بها قوماً ليسوا بها بكافرين . أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده قل لا أسألكم عليه أجراً إن هو إلا ذكرى للعالمين)(٢) .

وهكذا الحال بالنسبة للدعوة الإسلامية فى موقفها للدعوة إلى الإيمان وعلى تعاليمها تلك كانت دعوة الرسول محمد ﷺ إلى ربه ، ولأنها الدعوة الخاتمة التى أوجب الله تعالى على كل البشر الايمان بها والتعبد على تعاليمها لذا اختصها الله سبحانه بما يبعدها عن مجال الاكراه بأية وسيلة من وسائل الإلجاء على الايمان وتوضيح ذلك أن رسل الله المتقدمين زمانا على بعثة خاتم النبيين سيدنا محمد ﷺ قد صاحب رسالة كل منهم فى كثير من الأحيان خوارق للعادات من المعجزات الحسية التى من شأنها أن تلجىء إلى الايمان مثل آية موسى فى اليد والعصا وغيرها، ومثل آية عيسى عليه السلام فى إبراء الأكمه والأبرص وأحياء الموتى بإذن الله .

وبالرغم من أن القرآن الكريم ساق الكثير من تلك المعجزات الحسية

---

(١) سورة مريم ٤٣ — ٤٧

(٢) سورة الأنعام ٨٨ ، ٩٠

التى أجراها الله تعالى على أيدى الأنبياء السابقين ، فإنه فى الوقت نفسه يقص علينا أن المشركين طلبوا من النبى محمد ﷺ شيئاً من تلك المعجزات ، إلا أن الله تعالى لم يجبهم إلى ما طلبوا رغم إمكان حدوثها ، بل والكثير من تلك المعجزات قد تحقق بالفعل له ﷺ .

يقول سبحانه وتعالى (وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعاً أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيراً أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفا أو تأتى بالله والملائكة قبيلا أو يكون لك بيت من زخرف أو ترقى فى السماء ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتابا نقرؤه قل سبحان ربى هل كنت إلا بشراً رسولا)(١) .

قال تعالى (وقالوا لولا نزل عليه آية من ربه قل إنما الآيات عند الله ، وإنما أنا نذير مبين أو لم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم إن فى ذلك لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون)(٢) .

وقال جلا وعلا (إن نشأ ننزل عليهم من السماء آية فظلت أعناقهم لها خاضعين)(٣) .

والآيات تبين رفض ماطلب المشركون من معجزات حسية رغم إمكان تحققها بل وقوعها بالفعل وذلك لإعتبارات عدة منها .

١ ـ المشركين طلبوا تلك المعجزات من النبى بأسلوب يفيد أنهم يريدونها من فعله وصنعه هو ﷺ كما جاء فى التعبير القرآنى (حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعاً) أو ، أو ، الخ .

---

(١) سورة الاسراء ٣٦
(٢) سورة العنكبوت ٥٠ — ٥٢
(٣) سورة الشعراء ٤

٢ — أن طلبهم وقوع المعجزات لم يكن من باب البحث عن الحق والتعرف عليه للايمان به وإنما كان ذلك من قبيل التحدي والعناد والجحود .

٣ — أن الرسالة الخاتمة التي شاء الله لها أن تبقى مع البشرية كل البشرية منذ فجرها الأول ، وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها لا تعتمد على المعجزات الحسية في إقرارها ؛ لأن أثر تلك المعجزات مقصور على مشاهديها والجدير بدعوة تخاطب الناس جميعاً وتلزمهم بالإيمان بها على ممر العصور والأزمان أن تصاحبها معجزة تظل مع الدعوة حتى آخر أيامها وقد تحقق ذلك بالفعل في معجزة القرآن الكريم العقلية التي تحدى الله بها الإنس والجن وقال للجميع ·

(قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً) ولإبراز أهمية القرآن في مجال المعجزات يقول الحق سبحانه وتعالى (أولم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم إن في ذلك لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون) .

وقد كانت الأدلة الإسلامية من هذا القبيل في العصر المكي والمدني أي يوم أن كان المسلمون قلة مستضعفين في بدء الدعوة ويوم أن صاروا أمة قوية يعمل لها العدو ألف حساب ففي ظل الفترة المكية يأتي قول الحق سبحانه وتعالى (إن هو إلا ذكر للعالمين لمن شاء منكم أن يستقيم) .

وقوله (فذكر إنما أنت مذكر لست عليهم بمصيطر إلا من تولى وكفر فيعذبه الله العذاب الأكبر)

وعن المرحلة الثانية مرحلة الحياة المدنية حيث القوة والتمكين في الأرض يأتي قوله تعالى (قل أطيعوا الله وأطيعوا الرسول فإن تولوا فإنما عليه ما حمل وعليكم ما حملتم وإن تطيعوه تهتدوا وما على الرسول إلا البلاغ المبين) .

وكل ذلك يؤكد ماسبق أن قررته وهو أن الإكراه فى الاعتقاد ليس من طبيعة الإسلام وأن تعاليمه ونصوصه تأبى ذلك تماما وترفضه وصدق الله العظيم فيما قال (فلما رأوا بأسنا قالوا آمنا بالله وحده وكفرنا بما كنا به مشركين فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا سنة الله التى قد خلت فى عبادة وخسرها هنا لك الكافرون) سورة غافر ٨٤ ، ٨٥ .

فكيف بعد كل ذلك يعقل أو يقبل قول قائل إن الدعوة الإسلامية فرضت بحد السيف واعتنقها الناس مكرهين مجبرين تلك افتراءات تبرأ منها دعوة الإسلام كغيرها من كل افتراءات يدعيها مدعوها من التشويه والتشكيك لصرف الناس عن الإيمان بهذا الدين الخاتم ، وصدق الله العظيم إذ يقول فى صريح آيات القرآن الكريم (لا اكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا إنقصام لها والله سميع عليم).

وهكذا نجد الدعوة الإسلامية قامت على أساس الإيمان الصحيح المبنى على إستخدام النظر والفكر وأنها كذلك أتت لتزكى النفس البشرية ، وتنقى الضمير وتطهره وتهذب العقل وتنطلق به نحو الفكر السليم وذلك لاصلاح الحياة فى كافة الميادين ، وتلك الأسس التى قامت من أجلها الدعوة لا يمكن أن تجد مجالها بين بنى البشر إلا إذا كانت لها قوة تحميها وتدافع عنها وتبعد كل زعم باطل وافتراء كاذب ولذلك قيل إن الحق والحرية لا يتحققان إلا فى ظل القوة والنظام ونفاذ أحكام الشرائع والنظم الاجتماعية لا تتحقق بدون سلطة وبقاء الجماعة وتحقق ثمرتها لا يكون بدون ذلك كله ولتلك الأسباب لابد أن يكون قتال العدل والرحمة مشروع فى ظل الاسلام لا للقهر والظلم والجبروت ولا لاستعلاء طبقة على أخرى ولا لفرض

إعتقاد دون اقتناع وإنما لبث كل ماسبق ذكره من فضائل وابعاد أشواك الأفكار الهدامة عن طريقه حتى تعلو كلمة الله وتأخذ طريقها فى الحياة لاصلاح الجنس البشرى كله وصدق الله العظيم .

إذ يقول (الذين إن مكناهم فى الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الأمور) .

خصائص الدعوة الإسلامية

دعوة الإسلام دعوة الحق والعـــدل اختصها الله سبحانه وتعالى بخصائص لم تتوفر لكثير من الدعوات ونستطيع أن نجمل تلك الخصائص فى نقاط ثم نتناولها بالتفصيل بعد ذلك خاصيه خاصية وخصائص الدعوة إجمالا هى :

١ — الدعوة الإسلامية من حيث المصدر هى من عند الله تعالى ولا يخفى على أحد أن كل تشريعات تلك الدعوة هى تشريعات إلهية تكفل سبحانه وتعالى ببيانها وحفظها من التبديل والتغير

٢ — تلك الدعوة شاملة لكل شئون الدين والدنيا .

٣ — عامة لكل البشر باقية فيهم إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها

٤ — تلك الدعوة الخاتمة توضح أن الجزاء على العمل نوعان دنيوى وأخروى تلك خصائص الدعوة اجمالا وإليك تفصيلها واحدة واحدة .

أولا : أما إنها من عند الله تعالى فذلك لأن من الله سبحانه وتعالى فالإسلام هو وحى الله تعالى إلى رسوله محمد ﷺ ما كان منه باللفظ والمعنى وهو القرآن الكريم ، وما كان بالمعنى دون اللفظ وهو السنه النبوية الصحيحة ، وكل ما جد من أحكام صحيحة تمشيا مع ما يستجد فى الناس من حوادث ووقائع فإن مرد تلك الأحكام إلى الكتاب والسنة وعلى هذا فإن الدعوة الإسلامية تختلف عن كل النظم والشرائع الوضعية لأن مصدر تلك الشرائع والنظم هو الإنسان ، ولا يخفى على ذى عقل رشيد ، الفرق بين ما شرع الله تعالى ، وبين ما وضع الإنسان من نظم وقنن من قوانين بفكره هو وإليك بعض الأدلة التى تبرهن على أن الدعوة من حيث المصدر هى من عنده سبحانه وتعالى .

من المسلم به لدى المؤمنين المسلمين جميعاً أن القرآن الكريم هو الأساس والأصل الذى يقوم عليه الإسلام وأن جميع الأحكام التى تتعلق به مستمدة منه ما أخذ منه مباشرة وما أخذ بالاجتهاد أو الإجماع أو غيرهما ، وما كان منها فى الماضى وما أخذ حسب الأحداث والوقائع واختلاف البيئات ومرور الأزمنة ؛ وقد ثبت أيضا نقلا وعقلا أن القرآن الكريم من عند الله تعالى . وهذا يؤدى إلى التسليم بأن الدعوة من حيث المصدر هى من عنده تعالى .

أما دليل العقل فذلك لأن النبى ﷺ مخاطب فى القرآن ، ومنادى ؛ كما أنه مأمور فيه وبه ، وذلك فى كثير من آياته سوره ، والملاحظ أن مخاطبته ﷺ فى القرآن الكريم أتى بجميع صور الخطاب وهذا من أقوى الأدلة وآكدها التى تبرهن على أن القرآن من عنده سبحانه وتعالى ؛ كما أنها فى نفس الوقت تنفى وتبطل زعم الزاعمين الذين يحاولون تزييف الحقائق ويصورون للناس أن القرآن من عند محمد ﷺ ، وليس من عند الله والخطاب جاء فى القرآن لرسول الله مرة موجها بضمير الخطاب ، وأخرى بأفعال الأمر والنهى والنداء ، ومن الملاحظ أيضا أنه ﷺ لم يناد فى القرآن الكريم باسمه ، وإنما نودى بوصف النبوة أو الرسالة ، وفى المواطن التى نودى فيها بغير ذلك الوصف اتبع النداء بما يفيد النبوة أو الرسالة .

ومن هذا القبيل قوله تعالى (يا أيها المزمل) وقوله (يا أيها المدثر) فقد أتبع الأول بقوله تعالى (قم الليل إلا قليلا نصفه أو انقص منه قليلا أو زد عليه ورتل القرآن ترتيلا إنا سنلقى عليك قولا ثقيلا)(١) وأتبع الثانى بقوله (قم فأنذر وربك فكبر وثيابك فطهر)(٢) الخ

---

(١) المزمل ١ — ٥ (٢) المدثر ١ — ٦

يقول الأستاذ المرحوم محمد أحمد الغمراوي : الأجدر بتلك الضمائر التى خوطب بها النبى ﷺ فى القرآن الكريم أن تسمى ضمائر النبوة أو الرسالة .

ويقول أيضا رحمه الله تعالى : وأفعال الأمر التى وجهت إلى النبى ﷺ أيضاً كثيرة فى آيات القرآن وسوره وأكثرها وروداً هو فعل قل ذلك الفعل المكون من حرفين أثره فى نفس القارىء ، وفى نقض زعم المستشرقين (أن القرآن من عند محمد أمثال جلد تسهير ، ومرجليوث) عجيب خاصة عندما يتأمل العاقل أن فعل الأمر هذا يتكرر فى الآية الواحدة عده مرات كما تكرر فى الآية التاسعة عشر من سورة الأنعام .

قال تعالى (قل أى شىء أكبر شهادة . قل الله شهيد بينى وبينكم ، وأوحى إلى هذا القرآن لأنذركم به ومن بلغ) فقد تكرر الفعل فى تلك الآية أربع مرات .

وفى الآية السادسة عشر من سورة الرعد وهى قوله تعالى (قل من رب السموات والأرض قل الله ، قل أفاتخذتم من دونه أولياء لا يملكون لأنفسهم نفعا ولا ضرا . قل هل يستوى الأعمى والبصير أم هل تستوى الظلمات والنور أم جعلوا لله شركاء خلقوا كخلقه فتشابه الخلق عليهم ، قل الله خالق كل شىء وهو الواحد القهار) فى تلك الآية تكرر خمس مرات .

وأيضا نجد ضمير الأمر قل هذا قد تصدر فى آيات متتالية كما ورد ذلك فى سورة سبأ . إذ جاء فى صدر خمس آيات منها متعاقبة تبدأ من الآية السادسة والأربعين وهو قوله تعالى (قل إنما أعظكم بواحدة أن تقوموا لله مثنى وفرادى ثم تتفكروا ما بصاحبكم من جنة إن هو إلا نذير لكم بين

يدى عذاب شهيد) إلى الآية الخمسين وهى (قل إن ضللت فإنما أضل على نفسى وإن اهتديت فبما يوحى إلى ربى إنه سميع قريب)(١) .

هذا بالإضافة إلى ماتحمله تلك الآيات جميعها من معان تنطق فى وضوح بنبوة هذا النبى ورسالته وأنه مبلغ القرآن عن ربه عز وجل .

ومن ذلك فإن الإنسان المنصف الخالى من الأغراض الوفى للأمانة العلمية البعيدة عن المغالطات لايسعه عندما يتأمل ذلك إلا أن يهتف من أعماق قلبه أشهد أن القرآن الكريم كلام الله وليس من عند محمد ﷺ ولا من عند غير الله من المخلوقين

وتعالى معى أيها القارىء الكريم وتأمل ماصدرت به سورة الكافرون والاخلاص والمعوذتين ماذا نجد ؟ .

إن تلك السور القرآنية لولا أنها صدرت بفعل الأمر (قل) لكان هناك مجال لملحد أو مستشرق أن يقول إن ذلك من كلام محمد أدرج فى القرآن الكريم .

إلا أن الأسلوب الحكيم جاء فى القرآن الكريم ليتذكر الناس كل الناس إن كانوا كذلك أن هذا القول غير جائز — لأنه لو كانت تلك الآيات، وتلك السور وماورد فى أسلوبها — من عند أحد من الناس لأسقطت كلمة قل عند التبليغ مثل ماتعوده الناس فى كتابات الرسائل .

وقد حدث أن النبى ﷺ عندما أرسل إلى هرقل والمقوقس يدعوهما إلى الإسلام وضمن كتابه « آية » (قل يا أهل الكتاب) من سورة آل عمران ذكر فى كتابه إليهما من قوله تعالى (ياأهل الكتاب تعالوا

---

(١) سورة سبأ ٤٦ ، ٥٠

إلى كلمة سواء بيننا وبينكم . .) الخ دون أن يذكر قوله (قل فى أول الآية .

وبهذا يتضح أن الخطاب الموجه إلى الرسول ﷺ فى القرآن الكريم وماجاء من التحدث عن النبى ﷺ ؛ هو أول الخصائص الذاتية التى أثبتت أن القرآن الكريم ليس من عند الرسول محمد عليه الصلاة والسلام ولا من عند أحد من الناس إنما هو تنزيل من الرحمن الرحيم كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن عليم خبير)[1]

ومن ذلك الذى تقدم يتبين لنا أنه لا يعقل أبداً أن يأمر النبى ﷺ نفسه ولا ينهاها أو يخاطبها .

وقد يعترض معترض ويقول كيف نسلم أن هذا الخطاب وتلك الأوامر تثبت أن القرآن من عند الله تعالى ، وهى ما يحتاج أولا إلى إثبات أنها صادرة من عنده تعالى للنبى صلى الله عليه وسلم وليست صادرة من غيره ؟

وإليك الدليل على أنها من عنده تعالى لنبيه محمد عليه السلام وليست من غيره عز وجل .

بتأملنا فى تلك الآية وما تحدثت عنه يتأكد لنا بالدليل القوى الواضح الذى لا يدع مجالا للشك أن تلك الأوامر وهذه النواهى والنداءات قد صدرت من عنده عز وجل إلى رسول الله لا من عند غيره تعالى معى وتأمل ضمير المتكلم فى القرآن الكريم . فبتأملنا فيه نجد أنه لا يمكن أن يكون راجعا إلى النبى ﷺ ، ولا يكون راجعا لغير الله تعالى اللهم إلا إذا ورد محكياً فى القصص .

---

(١) راجع محاضرات د/ محمد أحمد الغمراوى للدراسات العليا بقسم الدعوة والثقافة الاسلامية بكلية أصول الدين بالقاهرة .

وتلك خاصية هامة تدل بوضوح على أن القرآن الكريم من عند الله تعالى إن ضمير الجلاله للمتكلم فى القرآن الكريم لا يمكن بحال أن يكون راجعاً لغيره تعالى إذ أن الأفعال المسندة إليه لا يمكن أن تكون صادرة من غير الله تأمل معى ما جاء فى قوله تعالى (وإذ قلنا للملائكة أسجدوا لآدم) وفى قوله (وإذ استسقى موسى لقومه فقلنا أضرب بعصاك الحجر) الآية وفى قوله (ولقد آتينا موسى الكتاب وقفينا من بعده بالرسل وآتينا عيسى ابن مريم البينات وأيدناه بروح القدس) وفى قوله : (وعهدنا إلى إبراهيم وإسماعيل أن طهرا بيتى للطائفين والعاكفين والركع السجود) وفى قوله وهو يخاطب نبيه محمداً ﷺ (وإذا سألك عبادى عنى فأنى قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان فليستجيبوا لى وليؤمنوا بى لعلهم يرشدون) .

فى كل ذلك نجد الضمائر المذكورة مقرونة بأعمال مسندة إلى المتكلم لا يمكن بحال من الأحوال أن تكون لغير الله تعالى . وبذلك تدل بداهة على أن المتكلم فى ضمائر الجلالة المذكورة جميعها هو سبحانه وتعالى ومنه تقوم الحجة على الناس جميعاً أن القرآن الكريم من عند الله وحده دون سواه .

وبالإضافة لما تقدم ذكره إذا تأملنا الآيات الكونية فى القرآن الكريم التى ورد فيها التفات من الغائب إلى المتكلم بالنسبة لضمير الجلالة نجدها أوضح دلالة على أن المتكلم فى ذلك هو الله جل جلاله قال تعالى : (الله الذى أرسل الرياح فتثير سحاباً فسقناه إلى بلد ميت فأحيينا به الأرض بعد موتها كذلك النشور) ، وقوله تعالى : (فقضاهن سبع سموات فى يومين وأوحى فى كل سماء أمرها وزينا السماء الدنيا بمصابيح وحفظا ذلك تقدير العزيز العليم) .

وذلك لأن الذى يسوق السحاب إلى حيث يغيث به الناس ويحيى لهم الأرض بالنبات هو الله تعالى ، والذى خلق السموات السبع زين السماء

الدنيا بالمصابيح والقرآن الكريم فيه الكثير من الآيات الكونية التى فيها ضمير الجلالة وهى تدل بوضوح على أن المتكلم هو الله لأن ما أسند فى الآية لا يعقل أن يكون من غيره تعالى .

وفى كل ذلك دليل على أن الذى خاطب النبى ﷺ فى القرآن ووجه إليه الأمر والنهى فى كل ما سبق ذكره، وغيره مما ورد فى القرآن الكريم هو الله جل وعلا ، وما دمنا قد وصلنا إلى تلك النتيجة فإنه يتضح أن الدعوة الإسلامية من حيث المصدر هى من عند الله .

وهذا ماينبغى الوصول إليه أيضاً بالتأمل فى آيات العتاب التى وجهت إلى النبى ﷺ كما جاء فى قصة عبد الله بن أم مكتوب فى قوله تعالى: (عبس وتولى أن جاءه الأعمى) ، وماورد فى شـــأن المنافقين عندما استأذنوا رسول الله ﷺ فى التخلف عن الخروج للجهاد فى سبيل الله تعالى وذكروا أعذاراً ظاهرية قبلها منهم ﷺ ونزل فى هذا الشأن قوله تعالى : (عفا الله عنك لم أذنت لهم حتى يتبين لك الذين صدقوا وتعلم الكاذبين) سورة التوبة .

وبالإضافة لذلك ما حدث من النبى ﷺ من التحدث عن أمور غيبية ما كانت قد وقعت عند الأخبار عنها، وقد صدق الواقع أنها حدثت بالفعل ومثال ذلك ما أخبر عنه القرآن الكريم من الحرب بين الفرس والروم التى فيها غلبت الفرس الروم فى أول الأمر وأخبر القرآن أن الروم ستنتصر على الفرس بعد الهزيمة وقد أتى ذلك واضحاً فى قوله تعالى: (الم : غلبت الروم فى أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون فى بضع سنين لله الأمر من قبل ومن بعد ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم) الروم/ ١ — ٣

وأيضاً ماقصة القرآن الكريم من قصص عن الأقـــدمين من لدن آدم

وما حدث له ولغيره من الأنبياء مع أممهم وما حل بالمخالفين من عقاب إلى غير ذلك ، هذا بالنسبة للعقل وأدلته المنطقية .

وفوق ذلك فهناك الأدلة النقلية الكثيرة من الكتاب والسنة قال تعالى: (وإن كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وأدعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين .

وقوله تعالى : (وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات قال الذين لا يرجون لقاءنا أيت بقرآن غير هذا أو بدله قل ما يكون لى أن أبدله من تلقاء نفسى إن أتبع إلا ما يوحى إلى إنى أخاف إن عصيت ربى عذاب يوم عظيم ، قل لوشاء الله ما تلوته عليكم ولا أدراكم به فقد لبثت فيكم عمراً من قبله أفلا تعقلون » .

أما من السنة فقد جاء قوله ﷺ : مامن الأنبياء من نبى إلا قد أعطى من الآيات ما مثله آمن عليه البشر وإنما كان الذى أوتيته وحيا أوحاه الله إلى وأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة .

الخاصية الثانية من خصائص الدعول الإسلامية

الشمول :

النظم الإسلامية الصحيحة قـــد أقيمت فى كل ما أتت به على أساس العقيدة ومن هذا المنطلق نجدها تغاير كافة النظم الإجتماعية المختلفة فهى ليست واحدة من تلك النظم التى أنتشرت فى الشرق والغرب كما أنها ليست خليطا منها أو من بعضها مما أطلق على تلك النظم من أسماء مختلفة وقد تفردت نظم الإسلام بتلك الخاصية لأن التشريع فيها من صنع الله الذى وضع شريعة كاملة للوجود كله ، وإن شريعة الإسلام هذه كاملة منذ نشأتها لأنها معتمدة على الكتاب والسنة كما أنهما المصدران الرئيسيان لها ، ومن هذا المنطلق نجد أن الجماعة الإسلامية تمت فى ظل الإسلام وتعاليمه وتحقق أرتباط وثيق بينه وبين العمل والإنتاج والحكم والآداب الخاصة بالفرد والمجتمع كذلك الشأن فـــيما يتعلق بالمبادىء والسلوك والقوانين فى التعامل وسائر متطلبات الحياة التى تحدد نوعه وترسم له طريق النور والتطور .

وبهذا التحديد تختلف التعاليم الإسلامية التى أبرزت المجتمع وتكيف من منطلقها فى واقع الناس عن النظم الاجتماعية الأخرى التى كانت تتأثر دائماً بكل ما يحدث من صراع بين الطبقات بسبب أختلاف وجهات النظر بينهما ، فاتجاه الرأسمالى يغاير اتجاه الشيوعى والاشتراكى مما يؤثر بطبيعة الحال فى القوانين والحكومات والأفكار الاجتماعية والأخلاق التى تسود بين الناس فى شتى المجالات(١).

---

(١) راجع فى ذلك كتاب نحـــو مجتمع إسلامى ص ٦٢ وما بعدها للأستاذ سيد قطب .

فمن ذلك نجد الفرق واضحاً جلياً بين نشأة النظم الإجتماعية وتطورها وبين التشريع الإسلامي الذي أسست فيــه قواعده ونظمه وكل ما يدير شئون المجتمع الإسلامي من الشريعة الحقة الثابتة شريعة الله لعباده أجمعين ولا بد من وضع هذا الفرق في الإعتبار لأهميته فهناك فرق لا ينكر بين مايضع البشر من نظم وقوانين من وحي أفكارهم وعقولهم وبين ما يأتي من عند الله الذي خلق الوجود بمــا فيــه الإنسان ويعلم سبحانه وتعالى ما يصلحه مما يفسده .

وهذا يجعلنا ندرك حقا أن المجتمع لم يكن هو الذي يصنع الشريعة — كما زل في ذلك كثير من الباحثين والمفكرين — وإنما الشريعة هي التي حددت سمات المجتمع وأبرزت ما يميزه عن غيره وهي التي وضعت مقوماته كما أنها هي التي وجهته وصيرته إلى الأحسن دائما .

ومن ناحية أخرى لابد أن نضع في الإعتبار أن شريعة الإسلام ليست مجرد استجابة للحاجات المحلية الموقوتة — كما هو الشأن في غيرها من النظم والمذاهب الإجتماعية المختلفة التي هي من فكر الإنسان وإنما كانت شريعة مسايرة لتطوير البشرية كلها لأن الله واضعها يعلم ما يكون من الإنسان في كل ظروفه وبيئاته وتطوراته وما دامت تلك الشريعة كتب لها الإستمرارية مع كافة البشر فلابد أن تساير كل تطوراته .

ولهذا أتى شرع الله ذلك بحيث إنه كلما مر الزمن وتقــدم الناس في المعرفة كانوا أقرب إليه وأعظم ملاءمة وفهما لما فيه الخير والسعادة ، وتلك مميزات ذات أثر هام في تجديد تلك الخصائص للدعوة الإسلامية ، ولمجتمعها المسلم الذي يؤسس ويقوم على تعاليم الإسلام بحيث يأخذ طابعاً يتميز به دون سائر المجتمعات الأخرى .

إن مهمة التشريع الإسلامي في المجتمع الإسلامي — لما تقدم —

ينبغى أن تظل محكومة بأصل ثابت وهو « الكتاب والسنة » وبذلك القيد يظل التشريع الإسلامى دائماً فى كل ما يقدم لمجتمعه محكوماً بأصله الثابت الذى هو الكتاب والسنة(١) .

وقد يعترض معترض فيقول : إن المجتمع الإسلامى كان ينحرف عن هذا الخط فى بعض المناسبات ، ولا يعترض بذلك لأن هذا الذى كان يحدث من ذلك القبيل إنما كان نتيجة لتأثر هذا المجتمع الإسلامى بما يدخله من مبادىء تخالف مبادئه وتغاير الخصائص التى ميزته عن غيره أو بعوامل أخرى ترجع إلى الأفراد الذين لهم كلمة التوجيه والتأثير فى هذا المجتمع ، ومع ذلك فإن كل هذا يعـــد طارئا وليس من طابع النظام الإسلامى الصحيح .

وفى نفس الوقت ، فإن ذلك لا يغير من قاعدته الأصلية طالما أنه يأخذ الوصف الصحيح للمجتمع الإسلامى كما مر ذكره .

---

(١) المرجع السابق ، نظرات فى القرآن للشيخ محمد الغزالى ص ١٦٤ ؛ كتاب الإسلام عقيده وشريعة للشيخ محمد شلتوت ص ٤٨٧ ، ٥٠٦
نحو مجتمع اسلامى للاستاذ/ سيد قطب

تساؤل :

قد يقال هل من الصالح للجنس البشرى أن يظـــل تطور مجتمع من المجتمعات ونموه مقيد بأصل ثابت فى حين أن حاجات الناس تتنوع من آن لآخر فى كل مجالات المجتمع وهى فى ذلك تحتاج إلى مبادىء جديدة وشرائع كذلك لتتلاءم مع ما جد وتناسب كل ما يجد .

ورداً على هذا التساؤل لابد من الوقوف على حقيقة ذلك الأصل الثابت الذى تقدم ذكره والذى تعود إليـــه كل الأنظمة والتشريعات للمجتمع البشرى بأثرة كما لابدمن الوقوف على شموله لأصول الحياة ولبيان تلك الحقيقة فإننا نحتاج إلى موازنات موضوعية بين مبادىء هذا الأصل الثابت ومدى شموله لتلك الأصول الكلية للحياة كما تحتاج من جهة أخرى إلى موازنه بين تلك المبادىء الثابتة التى أخذت من هذا الأصل الثابت والمبادىء الأخرى التى عرفت فى البشرية حتى اليوم ، فإذا أتضح من تلك المعرفة وهذه الموازنة أن مبادىء تلك الدعوة الإسلامية موضوعة أصلا للاستمرار والتجدد ، وأنها ما تزال أفضل وأسبق . وأن غيرها من سائر النظم التى عرفتها البشرية وحكمت بها متخلفة عنها ، ولم تقدم للمجتمع كل ما يحتاج إليه ، فحينئذ لا يكون الثبات عيبا ، وإنما يصبح ميزة به يوزن هذا التقدم المستمر حتى لا يخضع للأهواء والنزوات .

ومن ذلك حذر الله نبيه محمداً ﷺ من أتباع أهواء المنحرفين بعد أن أمره بالسير والتمسك بمـا أوحى إليه به قال تعالى : وأنزلنـــا إليك الكتاب بالحق مصدقا لمـا بين يديه من الكتاب ومهيمنا عليه فاحكم بينهم بمـا أنزل الله ولا تتبع أهواءهم عما جاءك من الحق لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ولكن ليبلوكم فيما آتاكم فاستبقوا الخيرات إلى الله مرجعكم جميعاً فينبئكم بمـا كنتم فيه تختلفون ، وأن أحكم

بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله إليك فإن تولوا فاعلم أنما يريد الله أن يصيبهم ببعض ذنوبهم وإن كثيراً من الناس لفاسقون)(١) .

وبإمعان النظر فى تلك الموازنات الموضوعية والمنطقية التى تقدمت بين نظم الإسلام وغيرها من الأنظمة الوضعية المختلفة نجد فى جلاء واضح لا لبس فيه ولا خفاء ، أن هذا الأصل الثابت أكثر طواعية وأشد مرونه وأعظم استعداداً لمسايرة التطور فى كل ما يجد فى حياة البشر جميعاً ويفوق فى ذلك كافة النظم التى يطلق عليها : النظم التقدمية فى حين أننا عندما نقيسها بما جاء به الإسلام من مبادىء نجدها مختلفة فى عمومها ، كما نشاهد عليها التناقض والنقص بالقياس إلى ما أتت به شريعة الإسلام مبادىء مرنة متجاوبة مع الفطرة ملبية لكل حاجاتها ومطالبها فى يسر وبدون تعسف ، بالإضافة لذلك فإننا نجدها فاقت كل وصلت إليه البشرية حتى الآن .

ومن ذلك كله يمكن أن نقرر فى ثقة ويقين بأنه من الخير للبشرية جمعاء أن يكون للتطور الإجتماعى أصل ثابت يعود إليه فى كل مايحتاج إليه مادام ذلك الأصل لا يكون عائقاً أمام ذلك التقدم ، وهذا النمو .

هذا وقد عرفنا فى الخاصية المتقدمة سالفة الذكر أن دعوة الإسلام من حيث مصدرها هى من عند الله تعالى الذى خلق البشر ويعلم طبائعهم وما يصاحب الأفراد والمجتمعات من تطور مستمر دائم كما أنه تعالى يعلم كل ما يحتاج إليه هؤلاء الخلق وما يحيط بهم فى عالم الغيب والشهادة .

ولذلك لابد أن تجىء تلك الشريعة ونظمها ومبادؤها موافقة لفطر

---

(١) المائدة سنة ٤٨ ، ٤٩

البشر جميعاً تلك الفطر التى لا تتبدل ولا تزول، ولكنها تنمو وتتشكل مع بناء الأصل الثابت الذى منه تنمو وتأخذ أنطلاقها وليكون ذلك واقعاً عملياً — لا مجرد مثل خيالية — مثل ما كان من خيال المفكرين أمثال المثل الأفلاطونية فى مدينته الفاضله — قد أتت تعاليم الإسلام فى صورة مبادىء كلية وقواعد عامة وذلك فى كثير من جوانبها ليمكن التفريع والطبيق فى الجزئيات المتجددة والأحوال المتغيرة دون أن تفارق أصولها الأولى، ومن غير أن تصادم الأهداف الثابته والغايات الدائمة التى تنطلق بالإنسان بوصفه إنسانا لا بوصفه فرداً معينا فى حيز من الزمان والمكان ولا بوصفه جيلا محدوداً فى فترة من فترات التاريخ .

وهذا وإن كان لا يجوز اعجاب الماديين الذين يحاربون المبادىء الثابتة لأنها لا توافق فكرهم عن التطور المستمر وتقف عقبة أمام اتجاههم إلى تحطيم تلك المبادىء الدائمة إلا أننا ننظر إلى الموضوع نظره أوسع من النظرة المادية المحدودة وبتلك النظرة نجد أنه لا تعارض بين وجود المبادىء الثابتة بوصفها المتقدم وبين تحقق التطور الدائم .

وهذا يؤدى بنا إلى القول بأنه إذا كانت الشريعة الإسلامية التى هى من صنع الله تعالى والتى مصدرها وأصلها الثابت الكتاب والسنة الصحيحة — ثابته لا تتغير لأنها ترسم إطاراً واسعا شاملا لكل تطور فإننا فى نفس الوقت نقول : — إن الفقه الإسلامى — وهو من صنع البشر استمدوه من فهمهم وتفسيرهم وتطبيقهم للشريعة حسب ما يتناسب مع كل جيل ؛ يتغير دائماً ؛ لأنه يتعلق بتطبيقات قانونية لتلك المبادىء العامة فى القضايا والأوضاع المتجددة التى تنشأ عن تطور الحياة ، وتغير العلاقات وتجدد الحاجات ويؤيد ذلك ما كان من رسول الله ﷺ إلى معاذ بن جبل وهو يريد ﷺ أن يطمئن إلى فقهه قبل أن يوفده إلى اليمن داعياً ومرشداً ومعلماً حيث قال له رسول الله ﷺ : كيف تصنع إذا عرض لك قضاء ؟

قال رضى الله عنه : أقضى بما فى كتاب الله تعالى . قال : فإن لم يكن فى كتاب الله . قال : فبسنة رسول الله ﷺ . قال : فإن لم يكن فى سنة رسول الله . قال : أجتهد رأيى ولا آلو جهداً . فقال ﷺ : الحمد لله الذى وفق رسول رسول الله لما يحب الله ورسوله(١) .

ومن هذا يتضح أن النبى ﷺ أقر معاذ بن جبل فيما ذهب إليه فى الأخذ بالقرآن الكريم أولا . فإن لم يهتد إلى معرفة الحكم من القرآن الكريم فعليه بالسنة لأن النبى يوضح للأمة ماخفى عليهم فى القرآن الكريم ولذلك يقول : ألا وإنى أوتيت القرآن ومثله معه فإن لم تجد فى السنة دليلا ملموساً لما يعالجه أو يعرض عليه من قضايا فعليـــه باستخدام الرأى والاجتهاد ليقيس حكما لم يرد فيه نص بحكم ورد فيه نص لعلة مشتركة بينهما وذلك ماذهب إليه علماء الإسلام . وأخذوا به فالأصل عندهم الكتاب والسنة والاجتهاد والقياس وغيرهما مرده إلى الكتاب والسنة ولذلك اطمأن النبى ﷺ إلى ماذهب إليه معاذ وحمد الله على ذلك .

وقد أتت تلك المبادىء العامة والأحكام الكلية شاملة لكل أصول الحياة وجوانبها إذ تناولت حياة الفرد فى كل مجالات نشاطه وتصرفاته ووضعت لذلك التشريعات التى تنظمها جنائياً ومدنياً واجتماعياً وسياسياً، فلم تترك جانباً من كل ذلك دون تنظيمه كذلك الحال بالنسبة للجماعة . ومازال النظريات التى تضمنتها فى كل هذا سابقة ومعطاءة بحيث مازال النظم الاجتماعية التى من صنع الإنسان عاجزة عن اللحاق بتلك التشريعات الإسلامية الإلهية . والدليل على ذلك ما نشاهده الآن وبعد الآن فى التراث الفقهى الضخم فى مجالى العبادة والمعاملة وإن كان مجال العبادة أكثر ثباتاً واستقراراً ؛ لأنه متعلق بشعائر تعبدية لاتتأثر بتوالى العصور والأجيال،

---

(١) رواه الترمذى وأبو داود .

أما مجال المعاملات فهو أكثر تطوراً لأنه أشد تأثراً بحاجات البشر المتجددة التى لا تستقر على وضع معين وقد قدم الإسلام بنظمه للبشرية فى كل مافيها مما يعد نموذجاً فريداً وهاهى المؤلفات الضخمة فى شتى الميادين والفروع العلمية أعظم شاهد وأكبر دليل . وقد شهد الباحثون المنصفون — من غير المسلمين — له بذلك .

وقبل أن أسوق بعض ماقاله غير المسلمين فى هذا المجال أذكر ماوصل إليه علماء المسلمين فى تفسيرهم لمرونة ماجاءت به دعوة الإسلام فى شتى المجالات يذكر الشيخ رضا تلميذ الإمام محمد عبده ، إن أحكام الكتاب والسنة فيها أحكام خاصة بالأعمال والوقائع ومنها عامة للتشريع والأحكام الخاصة ، منها ماهو قطعى الرواية والدلالة لا مجال للاجتهاد فيه ولا معدل عن الحكم به إلا لمانع شرعى ، من فوات شرطه كدرء حد بشبهة أو عذر ضرورة ، وقد أمر عمر بن الخطاب رضى الله عنه عام المجاعة ألا يحد السارق ، ومنها ماهو غير قطعى الدلالة ففيه مجال للاجتهاد لمن تتوفر فيه شروط الاجتهاد ، ومن هذا يتضح أن باب الاجتهاد لم يغلق وإنما المطلوب أن يوجد من هو أهل للاجتهاد كما كان الشأن بالنسبة للسلف الصالح من علماء تلك الأمة .

والشيخ رشيد رضا قد ذكر كلامه تحت عنوان : قواعد الاجتهاد من النصوص ! ويجدر بنا فى هذا المقام ذكر بعض النماذج لتلك الأحكام بالنسبة لما تتعلق به فإن أحكام الإسلام بالنسبة لما يتعلق بها تنقسم إلى الأقسام الآتية :

١ — منها أحكام تتعلق بالعقيدة : أى تتعلق بأمور العقيدة مثل الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ... الخ .

٢ — أحكام الأخلاق : أى مايتعلق بما يجب أن يتخلق به كتحقيق الصدق والأمانة وتجنب الكذب والخيانة ... الخ .

٣ — أحكام تتعلق بتنظيم علاقة الإنسان بخالقه سبحانه وتعالى كأداء الصلاة لوقتها والصيام والزكاة وغير ذلك من سائر العبادات .

٤ — أحكام تتعلق بتنظيم علاقة الإنسان بغيره من سائر الأفراد وهى أنواع :

(أ) أحكام تتعلق بالأسرة من نكاح وطلاق ونفقة وإرث .. إلخ ويطلق على ذلك فى عصرنا الحاضر أحكام الأسرة ، أو قانون الأحوال الشخصية .

(ب) أحكام تتعلق بعلاقة الأفراد ومعاملاتهم فيما بينهم كالبيع والشراء والإجارة والرهن وتسمى فى الاصطلاح الحديث « أحكام المعاملات المالية » أو « القانون المدنى » .

(ج) أحكام تتعلق بالقضاء والدعوى والشهادة وهى فى دائرة ما يطلق عليه الآن « قانون المرافعات » .

(د) أحكام تتعلق بالأجانب غير المسلمين عند دخولهم إلى إقليم الدولة الإسلامية وإقامتهم فيها مع المسلمين ، وتنظيم علاقاتهم فيما بينهم أو مع رعايا الدولة الإسلامية ، والحقوق التى يتمتعون بها والتكاليف التى تلزمهم فى هذا الشأن وذلك تحت ما يطلق عليه حديثاً « القانون الدولى العام » .

(هـ) أحكام تتعلق بنظام الحكم وقواعده ، وكيفية اختيار رئيس الدولة وشكل الحكومة التى تكون معه وعلاقة الأفراد بها من جهة الحقوق والواجبات وهى تدخل تحت ما يسمى « بالقانون الدستورى » .

(و) أحكام تتعلق بموارد الدولة الإسلامية ومصارفها وتنظيم العلاقات المالية بين أفراد الدولة أغنياء وفقراء ويطلق على ذلك حديثاً « القانون المالى » .

(ج) أحكام تتعلق بتحديد علاقة الفرد بالدولة من جهـــة الأفعال المحظورة والجرائم التى يرتـكبها الناس ومقدار العقوبة فى كل جريمة ويسمى ذلك حديثا « بالقانون الجنائى »(١) .

وبالإضافه لما سبق من فروق بين النظام الوضعيه ، والتشريع الإسلامى فى الدعوة الإسلاميه ، فإن هناك فرقاً هاماً وهو ما يطلق عليه (جهة الحل والحرمة) . فى الفعل نفسه ، فإن الفعل قـــد يكون صحيحا فى ظاهره لاستيفائه شروط الصحة ولـكنه فى نظر التشريع الإسلامى يعد حراماً لمخالفة ظاهرة لحقيقتـه الباطنه وتوضيح ذلك : إذا ادعى شخص دينا له على آخر واستطاع إثبات ذلك الدين أمام القضاء ، وحـكم القاضى له باستحقاق ذلك الدين ، فإن حكم القاضى هـذا لا يعنى أن المال أصبح من حق ذلك المدعى الذى استطاع إثباته بطرق ملتوية تخالف الواقع بل يبق الأمر فى حكم الإسلام على حقيقته الباطنة وهى عدم استحقاق المدعى لما ادعاه ظلما وافتراء وبالتالى فأخذ ذلك المال يعد حراماً عند الله تعالى يعاقب الله مرتكبة أشد العقاب يوم القيامه وذلك لأن القاضى حكم بالظاهر والله يتولى السرائر ، ولأن مناط الثواب والعقاب فى الآخرة حقيقـــه الأمور لاظاهرها . إلا أنه لمـا كان الباطن أمراً خفيا يعجز المرء عن إدراكه ، أو يتعذر عليه ادراكه ، وأيضـا من أجل أن تستقر الأمور وتجرى الأحكام على أسس ثابتة ، وقواعد مضبوطه .

فقـد اعتبرت الشريعة الإسلامية الظاهر وجعلت صحته ومطابقته كمتطلبات الشريعة ، قرينة على صحة الباطن . ومناطا لتعلق الحقوق وثبوت الآثام ولـكن الشىء أو الفعـل يبقى بالرغم من ذلك موصوفا بالحل

---

(١) راجع فيما تقدم كتاب الوحى المحمدى للشيخ رشيد رضا كتاب أصول الدعوه د / عبد الـكريم زيدان ص ٥٤ وما بعدها .

والحرمة بناء على حقيقته الباطنة وما يترتب على ذلك الوصف من جواز الإقدام عليه أو تركه، وما يتبع ذلك من ثواب أو عقاب لأن الحكم بحسب الظاهر لا يقلب الحلال حراماً أو العكس وبالتالى لا يحل للمسلم أن يبيح لنفسه فعل الحرام أو أكله وإن مكنه من ذلك القضاء وأباحه له بحسب الظاهر كما مر شرحه، وقد حذر النبى ﷺ من ذلك وتوعد مرتكبيه بالعقاب الشديد.

كما روى عن أم سلمة أم المؤمنين زوج النبى ﷺ أن النبى ﷺ سمع خصومة بباب حجرته، فخرج إليهم. فقال ﷺ إنما أنا بشر وأنه يأتينى الخصم فلعل بعضكم أن يكون أبلغ فأحسب أنه صادق، فأقضى له بذلك فمن قضيت له بحق مسلم فإنما هى قطعة من النار فليأخذها أو ليتركها(١)،

وهذا الفرق فى الحل والحرمة، فى الفعل نفسه تأخذ به شريعة الإسلام وحدها دون كافة القوانين الوضعية المختلفة ومن هنا تبرز أهميته فى حفظ الحقوق وصيانتها والحيلولة بين ما يقع من اعتداءات متكررة بين الناس لا يتغلب عليها إلا مراقبة الله فى تنفيذ ما شرع لعباده وبذلك يمكن الكف عن وقوع الإعتداءات بين الناس بعضهم والبعض الآخر، لأن المسلم يدرك حق الإدراك أنه إن أمكن أن يتخلص من العقوبة فى الدنيا على ما وقع فيه من جرم بأية وسيلة من الوسائل فإنه لا يمكن أن ينجو من المسئولية أمام الله عز وجل يوم القيامة ولذلك كان المسلم الحق لا يسمح لنفسه أن يقدم على تنفيذ شىء إلا إذا عرف أنه من حقه، وهذا بدون شك يغاير ما ينتج عن النظم الاجتماعية المختلفة التى فى ظلها تنتهى المسائل باصدار القرار من المحكمة أو السلطان دون النظر فى شىء آخر.

---

(١) رواه البخارى ومسلم وأبو داود، راجع الكتاب الأدب النبوى للمرحوم محمد عبد العزيز الخولى.

شهادة غير المسلمين للدعوة الاسلامية
فى ذلك المجال

إليك بعد ذلك . ذكر بعض مأثور من شهادات وتقارير لصالح التشريع الإسلامى فى مجال الشمول .

عقد فى لاهاى فى شهر أغسطس عام ١٩٣٧ مؤتمر القانون الدولى المقارن ونتج عنه القرار التالى :

١ — إن الشريعة الإسلامية حيـــة صالحة للتطور ومسايرة المدنية الحديثة وأنها لذلك جديرة بأن تشغل مكانة ممتازة بين مصادر القانون المقارن ،

٢ — عقد فى باريس بكلية الحقوق ١٩٥١ مؤتمر شعبة الدولى للقانون المقارن وقد وضع رجال القانون الذين حضروا ذلك المؤتمر : قراراً إليك نصه :

أثبتت الأبحاث بجلاء أن الفقه الإسلامى يقوم على مبادىء ذات قيمة أكيدة لامرية فى نفعها ، وأن اختلاف المذاهب الفقهية فى هذا الجهاز التشريعى الضخم ينطوى على ثروة من الآراء الفقهية وعلى مجموعـــة من الأصول الفنية البديعة التى تتيح لهذا الفقه الاستجابة بمرونة لجميع مطالب الحياة الحديثة .

وإذا كنا نرى تلك القرارات تصدر لصالح الدعوة الإسلاميه فإننا نرى فى نفس الوقت أن أولئك الأعداء الذين خانوا أمانة العلم وكتبوا ضد الإسلام وتعاليمه إنما دفعهم لما قالوا تعصبهم الأعمى وحقدهم الدفين الذى توارثوه من بنى ملتهم وهم يزعمون أنهم أتباع الرسل السماوية كلا لم يكونوا كذلك ماداموا وقعوا فى تلك الخيانة وصدق الله العظيم فيما

قال عنهم [فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمنا قليلا فويل لهم مما كتبت أيديهم وويل لهم مما يكسبون](١)

وقد شهد بخطورة هذا الحقد الدفين المتوارث ضد الإسلام وتعاليمه المستشرق أميل درمنجم : الذى يقول : إنه لا يوجد أحد فى الدنيا أمكنه أن ينكر وجود محمد ولكن وجد من ينكرون بعض ماجاء فى ترجمة محمد فى الكتب العربية ، أما من الجهة الأوربية فقد كانت الأوهام والعداوات الدينية تحول دون درس حقيقى علمى لعظمة منشىء الإسلام ثم يستمر فى كلامه ويقول :

إنه من القرن الثانى عشر إلى القرن التاسع عشر ارتكبت أغـــلاط كثيرة ارتكبها أمثال : باسكال ، وريمو نذمل ، وبوستل ، ورولان ، ومنسيكوا . وقال إن أكثر العداوة بين المسيحيين والمسلمين إنما جاءت من قبل المسيحيين وقد أيد هذا (جوفا) فى كتابه : مائة مشروع لتقسيم تركيا .

وإذا كنا نرى أن تلك الأقلام المغرضة حاول أصحابها النيل من الإسلام بعرض الشكوك والشبها محاولين طمس الحقائق للتقليل من شأن تلك الدعوة التى شاءها الله تعالى دينا عاما للناس كافة ، فإن منهم من استيقظ ضميره بعد فترة من الزمان وعاد إلى رشده وتحول من السير فى الطعن ضد الإسلام إلى الاعتراف بحقه ومكانته الصادقة الصلبة وأحقيته فى قيادة البشرية جمعاء وقد جاء فى كتابه الذى ألفه تحت عنوان : القاموس الفلسفى قوله : لقد نسبنا إلى الإسلام كثيرا من السخافات وهو فى الحقيقة خلو منها ، ولكن

---

(١) راجع كتاب حاضر العالم الإسلامى تلخيص شكيب أرسلان ، وكتاب الإسلام فى غزوة جديدة للفكر الإنسانى ص١٨ للأستاذ الجندى

كهنتنا كتبوا كثيرا من الكتب فى ذم الأتراك واتفق أن كان الأتراك مسلمين ، فأصيب الإسلام على حساب غيره .

ويقول خالد شلدريث المستشرق البريطانى : لم أتلق هذا الدين فى أول الأمر من كتبه ، ولكنى تلقيته من كتابات الطاعنين عليه ويستمر فى الحديث قائلا لقد درست البوذية والبرهمية ، وسائر الأديان ، وفى دور الكتب العامة بانجلترا بحوث عن كل دين ماعدا الإسلام فإن الكتب التى ألفت عنه مملوءة بالتحامل والمطاعن والعرض الظالم ، وزعموا أن الإسلام ليس دينا مستقلا ولكنه أقوال محرفة عن كتب المسيحية ، وقد تساءلت فى نفسى إذا كان الإسلام لاأهمية له إلى هذا الحد فلماذا هم يبذلون كل هذا الجهد للتحامل عليه ومقاومته وتوجيه المطاعن إليه، وقد وقر فى نفسى أنه لولا أن الإسلام دين يخشاه هؤلاء الناس ، ويحسبون حسابا كبيرا لما فيه من القوة والحيوية لما بذلوا كل هذه الجهود لمقاومته والطعن فيه وتشويه سمعته لذلك عزمت على قراءة هذه الكتب التى كتبت عنه واحدا واحدا .

وقد استطاع هذا المستشرق البريطانى بعد أن طوف حول ماكتب عن الإسلام بأقلام أعدائه أن يقف على حقيقة الأمر فتحول إلى الإسلام يقرأ مبادئه ويتعمق فى فهمها حتى يسر الله له أن يغمر الإيمان قلبه فأسلم وحسن إسلامه وصدق الله العظيم إذ يقول : يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون)

ولذلك رأينا هذا المستشرق بعد أن أسلم يقول : والإسلام لايخفيه أنتقاد منتقديه . فمنتقدوا الإسلام إنما يظهرون وجهة نظر خصومه وفى هذا مصلحة له ، وقوة ، ودعوة ، والحق يبدو مهما حاول المبطلون إخفاءه .

الخاصية الثالثة

عموم الدعوة الإسلامية

إن الدعوة الإسلامية كما أتت شاملة بتعاليمها لكل شئون الحياة ما كان منها وما يجد إلى نهاية الحياة ، وأتت بصورة تجعل تعاليمها تتمشى مع سنة التطور فى الوجود ؛ فإنها أيضاً أتت عامه لكل البشر من لهم كتاب سابق كاليهود والنصارى ومن لا كتاب لهم أصلا كمشركى العرب ووثنى الفرس ومن على شاكلتهم وهناك الكثير من الأدلة تؤيد ذلك وتؤكده قال تعالى وهو أصدق القائلين .

(قل يأيها الناس إنى رســـول الله إليكم جميعا الذى له ملك السموات والأرض لا إله إلا هو يحيي ويميت ، فآمنوا بالله ورسوله النبى الأمى الذى يؤمن بالله وكلماته واتبعوه لعلكم تهتدون)(١) .

وإذا قارنا تلك الآية الكريمة بما سبقها من آيات القرآن الكريم نجد أن ما سبقها من ايات يحدثنا عن تطلع أهل الكتاب إلى الرحمـــة والعفو والحصول على الحسنات دون السيئات فكان الجواب عليهم أن ذلك يكون لمن آمن بهذا النبى الخاتم الذى هو عندهم فى التوراة والإنجيل وعلى ألسنة أنبيائهم ورسلهم جاء الأمر بالإيمان به وأتباعه وصدق الله العظيم إذ يقول: واكتب لنا فى هـذه الدنيا حسنة وفى الآخرة إنا هدنا إليك قال عذابى أصيب به من أشاء ورحمتى وسعت كل شىء فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون . الذين يتبعون الرسول النبى الأمى الذى يجدونه مكتوبا عنـــدهم فى التوراه والإنجيل يأمرهم بالمعروف

---

(١) سورة الأعراف ١٥٨

وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والاغلال التى كانت عليهم فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذى أنزل معه أولئك هم المفلحون) .

وأيضاً من الآيات التى نزلت تدل على عموم الدعوة وعالميتها قول الله سبحانه (وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيراً ونذيراً ولكن أكثر الناس لا يعلمون[١] .

وقوله (تبارك الذى نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً)[٢] .

وبالتأمل فى آيات القرآن الكريم نجد أن عالمية الدعوة وعمومها لكل البشر أتى ذكرة فى الآيات المكية والمدنية معاً أى فى بدء الإسلام وهو فى حاجة إلى من ينصره من البشر لقلة المؤمنين وكثرة الأعداء المتربصين ومن الآيات المكية التى جاء فيها ما ينص على العموم قوله تعالى (إن هو هو إلا ذكر للعالمين)[٣] .

وقوله (وما هو إلا ذكر للعالمين)[٤] وقوله (إن هو إلا ذكر وقرآن مبين ، لينذر من كان حيا ويحق القول على الكافرين)[٥] وقوله تعالى (قل يأيها الناس إنى رسول الله إليكم جميعاً الذى له ملك السموات والأرض لا إله إلا هو يحيى ويميت فآمنوا بالله ورسوله النبى الأمى الذى يؤمن بالله وملائكته وأتبعوه لعلكم تهتدون وقد مر ذكر الآيات المدنية التى تؤكد ذلك وتوضحه .

---

(١) سورة سبأ ٢٨
(٢) سورة الفرقان ١
(٣) سورة التكوير ٢٧
(٤) سورة ن ٥٢
(٥) يس ٦٩

الأدلة من السنة على عموم الدعوة الإسلامية :

جاء فى صحيح مسلم أن رسول الله ﷺ قال : « بعثت إلى الأسود والأحمر » قال مجاهد يعنى الجن والإنس ، وفسره غير مجاهد بالعرب والعجم .

٢ — روى الإمام أحمد فى مسنده : حدثنا عبد الصمد ، حدثنا عبد العزيز بن مسلم حدثنا يزيد بن أبى زياد عن مقسم عن ابن عباس مرفوعا أن رسول الله ﷺ قال : أعطيت خمسا لم يعطهن نبى قبلى ، ولا أقولها فخرا بعثت إلى الناس كافة الأحمر والأسود ، ونصرت بالرعب مسيرة شهر ، وأحلت لى الغنائم ولم تحل لأحد قبلى ، وجعلت لى الأرض مسجدا وطهورا ، وأعطيت الشفاعة فأخرتها لأمتى يوم القيامة فهى لمن لا يشرك بالله شيئا .

٣ — روى الإمام مسلم : عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « والذى نفسى بيده لا يسمع بى أحد من هذه الأمة يهودى ولا نصرانى ثم يموت ولم يؤمن بالذى أرسلت به إلا كان من أصحاب النار .

٤ — روى أحمد فى مسنده عن أبى كعب عن أبيه رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال : مثلى فى النبيين كمثل رجل بنى داراً فأحسنها وأكملها وترك فيها موضع لبنة لم يضعها فجعل الناس يطوفون البنيان ويعجبون منه ويقولون لو تم موضع هذه اللبنة فأنا فى النبيين موضع اللبنة .

ورواه الترمذى عن بغداد عن أبى عامر العقدى وقال حسن صحيح.

٥ — قال الحافظ أبو يعلى : حدثنا إسحق حدثنا حماد عن الشعبى عن جابر قال : قال رسول الله ﷺ : لا تسألوا أهل الكتاب عن شىء فإنهم

لن يهدوكم وقد ضلوا ، وإنكم إما أن تصدقوا بباطل ، وإما أن تكذبوا بحق وإنه والله لو كان موسى وعيسى حيين لما وسعهما إلا اتباعي .

٦ — قال الإمام أحمد : حدثنا محمد بن أبي عدي عن ابن عون عن ابن سيرين عن أبي حذيفة عن عدي بن حاتم سمعه يقول : دخلت على رسول الله ﷺ فقال : « ياعدي أسلم تسلم » فقلت إني من أهل دين ، قال : « أنا أعلم بدينك منك » فقلت : أنت أعلم بديني مني ؟ قال : [نعم ألست من الركوسية وأنت تأكل مرباع قومك ؟ » قلت : بلى قال : « فإن هذا لا يحل لك في دينك » قال فلم يعد أن قالها فتواضعت لها ، قال : أما إني أعلم ما الذي يمنعك من الإسلام : تقول إنما اتبعه ضعفه الناس ومن لا قوة له وقد رمتهن العرب . أتعرف الحيرة ؟ قلت لم أرها وقد سمعت بها .

قال : [فو الذي نفسي بيده ليتمن الله هذا الأمر حتى تخرج الظعينة من الحيرة حتى تطوف بالبيت من غير جوار أحد ، ولتفتحن كنوز كسرى بن هرمز قلت : كسرى بن هرمز ؟ قال : « نعم كسرى بن هرمز وليبذلن المال حتى لا يقبله أحد » قال عدي فهذه الظعينة تخرج من الحيرة فتطوف بالبيت من غير جوار أحد ، ولقد كنت فيمن فتح كنوز كسرى ابن هرمز ، والذي نفسي بيده لتكونن الثالثة لأن رسول الله ﷺ قالها .

٧ — قال الإمام أبو جعفر بن جرير الطبري رحمه الله تعالى : حدثنا أبو كريب حدثنا يونس بن بكير عن عبد الحميد بن بهدام عن شهر بن حوشب عن ابن عباس رضي الله عنهم أنه قال : وحضرت عصابة من اليهود رسول الله ﷺ فقالوا يا أبا القاسم . حدثنا عن خلال نسألك عنهن لا يعلمهن إلا نبي فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« سلوا ما شئتم ، ولكن اجعلوا لى ذمة وما أخذ يعقوب على بنيه لئن أنا حدثتكم عن شىء فعرفتموه لتتابعننى على الإسلام ، فقالوا ذلك لك فقال رسول الله ﷺ :سلوا ما شئتم فقالوا خلال نسألك عنهن أخبرنا أى الطعام حرم اسرائيل على نفسه من قبل أن تنزل التوراه؟ وأخبرنا كيف ماء المرأة وماء الرجل وكيف يكون الذكر منه والأنثى ؟ وأخبرنا بهذا النبى الأمى فى التوراة ومن وليه من الملائكة ؟ .

فقال النبى ﷺ . « عليكم عهد الله لئن أنا أنبأتكم لتتابعنى ؟ فأعطوه ما شاء الله من عهد وميثاق فقال : « نشدتكم الذى أنزل التوراه على موسى هل تعلمون أن إسرائيل يعقوب مرض مرضا شديداً فطال سقمه منه فنذر لله نذراً لئن عافاه الله من مرضه ليحرمن من أحب الطعام والشراب إليه ، وكان أحب الطعام إليه لحوم الإبل ، وأحب الشراب إليه البانها فقالوا اللهم نعم فقال رسول الله ﷺ اللهم اشهد عليهم وأنشدكم بالله الذى لا إله إلا هو الذى أنزل التوراة على موسى هل تعلمون أن ماء الرجل غليظ أبيض، وأن ماء المرأة رقيق أصغر فأيهما علا كان له الولد والشبه بإذن الله عز وجل وإذا علا ماء الرجل ماء المرأة كان الولد ذكراً بإذن الله ، وإذا علا ماء الرجل ماء المرأة كان الولد ذكراً بإذن الله ، وإذا علا ماء المرأة ماء الرجل كان الولد أنثى بإذن الله عز وجل » قالوا اللهم نعم ، قال اللهم فأشهد . قالوا أنت الآن محدثنا عن وليك من الملائكة فعندها نتبعك أو نفارقك . قال : « فإن وليى جبريل ولم يبعث الله نبيا قط إلا وهو وليه، قالوا فعندها نفارقك ولو كان وليك سواه من الملائكة تابعناك وصدقناك قال : « فما يمنعكم أن تصدقوه قالوا إنه عدونا فأنزل الله عز وجل : قل من كان عدواً لجبريل فإنه نزله على قلبك بإذن الله مصدقا لما بين يديه وهدى وبشرى للمؤمنين من كان عدواً لله وملائكته ورسله وجبريل وميكال فإن الله عدو للكافرين، ولقد أنزلنا إليك آيات بينات وما يكفر بها إلا الفاسقون أو كلما عاهدوا عهداً نبذه فريق منهم بل أكثرهم لا يؤمنون، ولما جاءهم رسول من عند الله

مصدق لما معهم نبذ فريق من الذين أوتوا الكتاب كتاب الله وراء ظهورهم كأنهم لا يعلمون ، واتبعوا ما تتلوا الشياطين على ملك سليمان وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر وما أنزل على الملكين ببابل هاروت وماروت وما يعلمان من أحد حتى يقولا إنما نحن فتنة فلا تكفر، فيتعلمون منهما ما يفرقون به بين المرء وزوجه وما هم بضارين به من أحد إلا بإذن الله ويتعلمون ما يضرهم ولا ينفعهم ولقد علموا لمن اشتراه ماله فى الآخرة من خلاق ولبئس ما شروا به أنفسهم لو كانوا يعلمون ولو أنهم آمنوا واتقوا لمثوبة من عند الله خير لو كانوا يعلمون)(١) .

تعليــــق :

من المعلوم المسلم به لدى المؤمنين بالرسل وبرسالات السماء أن رسل الله جميعا صادقون فيما يبلغون عن الله عز وجل ، وأنهم مؤيدون فى ذلك بوحى السماء وذلك بما يجريه الله سبحانه وتعالى على أيديهم من المعجزات، ولذلك قال علماء التوحيد : إن المعجزة التى يجريها الله تعالى على يد عبد مدع للنبوة تصديقا له فى نبوته إنما هى بمثابة أن الله تعالى تقول : صدق عبدى فيما يبلغ عنى .

والأنبياء جميعا — قبل بعثة خاتم الرسل محمد بن عبد الله ﷺ — لم يدع واحد منهم أنه عام لكل البشر وهذا دليل قوى على صدق النبى فى أنه عام لكل البشر هذا بالإضافة لما سبق من أدلة من الكتاب والسنة وغيرهما . هذا بالإضافة إلى أن رسل الله بشروا بهذا النبى الذى أرسل كافة للناس ودعوا أممهم إلى الإيمان به وبرسالته كما نطقت بذلك الأدلة الكثيرة التى ذكرت بعضا منها وتعالى معى أيها القارىء الكريم نتأمل فيما ورد من آيات قرآنية تؤكد أن رسل الله السابقين جميعا أرسلوا إلى قومهم خاصة وهو

---

(١) نوح / ١

ما يؤكد هذا الذي نحن بصدد سوق الأدلة العقلية بجانب الأدلة النقلية على تأييد تلك القضية — قضية عموم الدعوة الإسلامية — قال الله تعالى عن نوح أبي الأنبياء أفضل الصلاة والسلام . (إنا أرسلنا نوحاً إلى قومه أن أنذر قومك من قبل أن يأتيهم عذاب أليم)(١) .

وقال تعالى (لقد أرسلنا نوحاً إلى قومه)(٢) ،وقال تعالى عن هود فى قومه (وإلى عاد أخاهم هوداً قال ياقوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره أفلا تتقون)(٣) .

وقال تعالى عن صالح (وإلى ثمود أخاهم صالحا قال ياقوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره)(٤) وقال عن شعيب (وإلى مدين أخاهم شعيب قال ياقوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره)(٥) .

وقال سبحانه وتعالى عن موسى عليه السلام وقد أرسل إلى قومه خاصة (ولقد أرسلنا موسى بآياتنا أن أخرج قومك من الظلمات إلى النور)(٦) .

وكذلك عيسى عليه السلام فإنه أرسل إلى بنى اسرائيل مصداق ذلك قوله تعالى (ورسولا إلى بنى اسرائيل أنى قد جئتكم بآية من ربكم)(٧) وقوله(وإذ قال عيسى بن مريم يابنى اسرائيل إنى رسول الله إليكم مصدقا لما بين يدى من التوراه ومبشراً برسول يأتى من بعدى اسمه أحمد فلما جاءهم بالبينات قالوا هذا سحر مبين)(٨) وتلك الآيات جميعا تدل على أن الأنبياء السابقين أرسلوا إلى أقوامهم خاصة ، دون أن تكون رسالتهم للناس كافة .

---

(١) الأعراف / ٥٩
(٢) الأعراف / ٥٩
(٣) الأعراف /٦٥
(٤) الأعراف /٧٣
(٥) الأعراف / ٨٥
(٦) ابراهيم /٥
(٧) سورة آل عمران / ٤٩
(٨) سورة الصف / ٦

أما بالنسبة للنبي محمد ﷺ فإنه أعلن ما أوجب الله عليه اعلانه على كل الملأ بأنه أرسل إلى الناس كافة وقد مضت الأدلة الكثيرة ذلك أذكر ببعض منها مثل (وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيراً ونذيراً ولكن أكثر الناس لا يعلمون)(١).

وهو ما يؤكد عموم رسالته لكل البشر ولهذا كانت الشرائع السابقة جميعاً منسوخه بتلك الشريعة الإسلامية العامة الناسخه لكل ما سبقها من شرائع وفي ذلك دليل على عالميتها يقول العلاقة ابن حزم في كتابه المحلى «مسألة: نسخ عز وجل بملته كل ملة وألزم أهل الأرض جنهم وإنسهم اتباع شريعته التي بعثه بها، ولا يقبل من أحد سواها، وأنه عليه السلام خاتم النبيين لا نبي بعده برهان ذلك، قوله تعالى (ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين).

حدثنا محمد بن أحمد بن الجور، حدثنا وهب بن مرة حدثنا محمد بن وضاح حدثنا أبو بكر بن شعبة، حدثنا عبد الله بن ادريس عن المختار ابن فلفل عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم. «إن النبوة والرسالة قد انقطعت فجزع الناس فقال: قد بقيت مبشرات وهي جزء من النبوة» انتهى قول ابن حزم.

ويمكن أن نعلل لنسخ الشرائع السابقة جميعها بالدعوة الإسلامية بأساليب كثيرة من أهمها — :

١ — إن معجزة الإسلام وهو القرآن الكريم معجزة خالدة باقية في تحديها للانس والجن إلى أن يرفع القران كما نزل بخلاف كل معجزات الرسل السابقين فهي فانية لأنها حسية لا تقوى على الاستمرار في الناس.

---

(١) سورة سبأ / ٢٨

٢ — الدعوة الإسلامية أتت بكل ما يحتاجه البشر فى حياتهم الدنيا والأخرى وقادرة على استيعاب كل مايجد من أحداث بين البشر وتقديم الحلول لها لما جاء فيها من أحكام كلية ومبادىء عامة سنتعرض لها فى موضعها من هذا الكتاب إن شاء الله تعالى .

٣ — صلاحيتها لكل زمان ومكان .

٤ — اصفاء رسولها على أنه خاتم الأنبياء والأخبار عن الدعوة الإسلامية بأنها المكملة للدين والتى بها تمت النعمة كما تجلى ذلك فى قوله تعالى (اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام دينا)(١) وسترى تفاصيل تلك النقاط فيما يذكر فى صفحات هذا الكتاب كل فى موضعه .

تعليق :

من كل ما تقدم يتضح لنا بيقين أن الدعوة الإسلامية أتت عامة لكل الناس من يومها الأول وأن النبى ﷺ يعلم ذلك من أول الأمر ولم يكن كما يدعى بعض المفكرين من غير المسلمين أن عالمية الدعوة لم تكن فكرة عند محمد وإنما أصحابه من بعده هم الذين تحولوا بها كذلك هذه المغالطة الماكرة التى تأباها تعاليم الدعوة الإسلامية يثيرها بعض الباحثين ليقللوا من شأن الإسلام ويحصروه بين العرب فقط كما قال بعضهم إن الإسلام دين العرب .

يقول « السير وليم موير » إن فكرة عالمية الرسالة قد جاءت فيها

(١) المائدة / ٣

ويقول : وعلى الرغم من كثرة الآيات والأحاديث التي يؤيد هذه الفكرة أى فكرة عالمية الدعوة فإنها لم تخطر ببال محمد نفسه ﷺ .

ويستمر فى مغالطاته فيقول : وعلى فرض أنه فكر فيها ، فقد كانت فكرته غامضة إذ أن عالمه الذى يفكر فيه إنما هو بلاد العرب ، ويبرز تلك المغالطات فى قوله : (كما أن هذا الدين الجديد لم يهيأ إلا لها) .

ويستمر فى أخطائه واضطراب كتاباته فيزعم أن النبى ﷺ لم يوجه دعوته منذ بعث إلى أن مات إلا للعرب دون غيرهم ويصر على مزاعمه تلك حول عالمية الدعوة فيقول : وهكذا قد نرى أن عالمية الإسلام غرست بين تعاليم الإسلام . ولكنها إذا كانت قد اختمرت ونمت بعد ذلك ، فإنما يرجع هذا إلى الظروف والأحوال أكثر منه إلى الخطط والمناهج .

كتب ذلك المستشرق المغالط كلامه هذا ضمن بحث علمى قدمه للقراء دون أن يصون الأمانة العلمية ، وغير مبال بواجب الفكر الحر الخالى من الأهواء والنزوات ، والتعصب الزميم[1] .

وعلى عكس ذلك رأينا المستشرق السير « توماس أرنولد » الذى راعى أمانة الكتابة فى تقرير الحقائق ويذكر تحت عنوان : « الإسلام دين عالمى » قوله : لم تكن رسالة الإسلام مقصوره على بلاد العرب بل إن للعالم أجمع نصيبا فيها . ولما لم يكن هناك غير إله واحد كذلك لا يكون هناك غير دين واحد يدعى إليه الناس كافة .

ولكى تكون هذه الدعوة عامة ، ولكى تحدث أثرها المنشود فى جميع الناس وفى جميع الشعوب ، وتراها تتخذ صورة عملية فى الكتب التى يروى

---

(١) راجع كتاب مع الله للشيخ محمد الغزالى ص ١٢٠ ومابعدها .

أن محمداً بعث بها فى السنة السادسة من الهجرة الموافق ٦٨٨ م إلى ملوك ذلك العصر فى هذه السنة أرسل الرسول كتبا إلى « هرقل » قيصر الروم ، وإلى « كسرى » فارس ، وإلى حاكم اليمن وإلى حاكم مصر وإلى النجاشى فى بلاد الحبشة .

وقد ذكر الكتاب الذى أرسله النبى ﷺ إلى هرقل ثم ذكر بعدها قوله : على أنه إن كانت هذه الكتب قد بدت فى نظر من أرسلت إليهم ضربا من الخرق ، فقد برهنت الأيام على أنها لم تكن صادرة عن حماسة جوفاء ؛ وتدل هذه الكتب دلالة أكثر وضوحاً وأشد صراحة على ما تردد ذكره فى القرآن من مطالبة الناس جميعاً بقبول الإسلام ، فقد قال الله تعالى « إن هو إلا ذكر للعالمين » ولتعلمن نبأه بعد حين »(١)، (وقوله: إن هو إلا ذكر وقرآن مبين ، لينذر من كان حيا ويحق القول على الكافرين)(٢) .

وقوله (وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين)(٣).

وقوله (تبارك الذى نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً)(٤).

(وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيراً ونذيراً ولكن أكثر الناس لايعلمون)(٥) .

(هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون)(٦).

---

(١) ص / ٨٧ ، ٨٨ (٢) سورة يس / ٦٩ ، ٧٠
(٣) سورة الأنبياء / ١٠٧ (٤) الفرقان / ١
(٥) سورة سبأ ٢٨ (٦) الصف / ٩

وبعد أن يذكر « توماس » تلك الآيات استدلالا على عالمية الدعوة من القرآن الكريم يواصل كلامه فى ذلك المجال فيقول : وفى ساعة من ساعات اليأس العميق عندما كان أهل مكة يمعنون فى النفور من كلام النبى ؛ وعندما عذبوا الرجال المستضعفين الذين هداهم النبى إلى الإسلام حتى اضطروهم أن يكفروا من بعد إيمان — يعنى ما جاء بشأن عمار بن ياسر عندما اشتد به إيذاء المشركين ولم يتحمل ونطق لسانه بما طلبوا منه مع بقاء قلبه على الإيمان وفيه وفى أمثاله نزل قوله تعالى (من كفر بالله من بعد إيمانه — إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان ولكن من شرح بالكفر صدراً فعليهم غضب من الله ولهم عذاب عظيم)(١).

فهذا الاستثناء فى الآية (إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان) نزل فى شأن عمار وأمثاله من المؤمنين — وهو مايشير إليه توماس فى كلامه المذكور آنفا ويستمر قائلا : وعندما لجأ آخرون إلى المهاجرة فى الله من بعد ماظلمهم مضطهدوهم — وذكر قوله تعالى فى سورة الإسراء (والذين هاجروا من بعد ماظلموا لنبوئنهم فى الدنيا حسنة ولأجر الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون الذين صبروا وعلى ربهم يتوكلون) ٤١، ٤٢

ثم يقول : عند ذلك تلقى النبى هذا الوعد المستغرب (ويوم نبعث فى كل أمة شهيداً عليهم من أنفسهم . وجئنا بك شهيداً على هؤلاء ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شىء وهدى ورحمة للمحسنين)(٢).

ثم يستمر فيقول على حد تعبيره — وإن ما يعبر به النبى فى تلك الآيات من مطالبة البشرية كلها بارتضاء الإسلام دينا ليزداد وضوحا فى قول « محمد » متنبئا بإنتشار دعوته : إن بلالا أول ثمار الحبشة ، وإن

---

(١) سورة الإسراء /٤١ ، ٤٢ (٢) سورة النحل /٨٩

صهيبا أول ثمار الروم ، وأما سلمان وهو أول من أسلم من الفرس فقد كان عبداً نصرانيا بالمدينة إعتنق الإسلام فى السنة الأولى من الهجرة وهكذا يصرح الرسول بكل وضوح وجلاء أن الإسلام ليس مقصورا على الجنس العربى ، وذلك قبل أن يدور بخلد العرب أى شىء يتعلق بحياة الفتح والغزو بزمن طويل .

وإن القصة التالية الخاصة بإرسال البعوث إلى كل الشعوب للدعوة إلى الإسلام لتشير إلى دعوى عموم الرسالة وهى أن الرسول قال لأصحابه وافونى بأجمعكم الغداة ، وكان إذا صلى الفجر احتبس فى مصلاة قليلا يسبح ويدعو ثم التفت إليهم فبعث عدة رجال إلى عدة قبائل وقال لهم انصحوا الله فى عباده ، فإنه من استرعى شيئا من أمور الناس ثم لم ينصح لهم حرم الله عليه الجنة وانطلقوا ولا تصنعوا كما صنعت رسل عيسى بن مريم فإنهم أتوا القريب وتركوا البعيد .

ثم يعلل كلامه بقوله (ويؤيد دعـــوى عموم الرسالة ، والحق فى المطالبة بأن يستجيب لها جميع الناس إن الإسلام كان الدين السماوى الذى اختاره الله من قديم للجنس البشرى كافة ثم أوحى به إليهم من جديد على لسان محمد خاتم النبيين (ما كان محمد أبا أحـد من رجالـكم ولـكن رسول الله وخاتم النبيين وكان الله بكل شىء عليماً)(١) .

كما أوحى به من قبل على لسان غيره من الرسل (وما كان الناس إلا أمة واحدة فاختلفوا ولولا كلمة سبقت من ربك لقضى بينهم فيما فيه يختلفون)(٢) .

---

(١) الأحزاب / ٤٠

(٢) سورة يونس / ١٩

[قل ما كنت بدعاً من الرسل وما أدرى ما يفعل بى ولا بكم إن أتبع إلا ما يوحى إلى وما أنا إلا نذير مبين](١) .

[كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبين مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب بالحق لتحكم بين الناس فيما أختلفوا فيه وما أختلف فيه إلا الذين أوتوه من بعد ما جاءتهم البينات بغيا بينهم فهدى الله الذين آمنوا أختلفوا فيه من الحق بإذنه والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم](٢) .

وقد ذكر السير توماس أرنولد تلك الشواهد وغيرها من الآيات القرآنية التى يستدل بها على عموم الدعوة الإسلامية كما يبين فى الوقت نفسه أن النبى محمداً ﷺ يدعو إلى التوحيد الذى دعا إليه جميع الأنبياء والرسل وهو بهذا الإتجاه وذلك الإعتراف سار فى طريق الصدق والإنصاف دون أن يسوقه تعصب أعمى إلى طمس الحقيقة وقلب الأوضاع مثل ما فعل غيره من كثيرين وقعوا فى ظلمات التعصب المذموم كما ساروا فى جهالات لا يؤيدها منطق ولا يعترف بها عقل رشيد .

تلك الحقيقة التى أبدها أرنولد بالأدلة وساق من أجلها البراهين تعد رداً قوياً على أمثال : السير وليم موير سالف الذى خالف ضميره بل أمات ضميره فى نفسه ومشى فى عصبيات الجهالة وصار ينكر ما هو كالشمس فى ضوئها وعظيم شعاعها الذى لا يخفى على ذى بصر وبصيرة وبالإضافة لما تقدم ذكره أسوق بعض الشواهد من كتب أصحاب الأديان الأخرى التى تؤيد عموم الدعوة الإسلامية .

١ — جاء فى سفر الميعاد أن موسى عليه السلام خطب فى بنى إسرائيل

---

(١) سورة الأحقاف / ٩

(٢) سورة البقرة / ٢١٣

فى آخر حياته وكان ذلك فى السنة التاسعة والثلاثين من سنى التيه — فذكرهم بأيام الله ونعمه عليهم وإحسانه إليهم وجاء فيما وجهه إليهم قوله : وأعلموا أن الله سيبعث لكم نبياً من أقاربكم مثل ما أرسلنى إليكم يأمركم بالمعروف وينهاكم عن المنكر ويحل لكم الطيبات ، ويحرم عليكم الخبائث فمن عصاه فله الخزى فى الدنيا والعذاب فى الآخرة .

وفى آخر السفر الخامس — وهو آخر التوراة التى بأيديهم — ذكر ما نصه : جاء الله من طور سيناء وأشرق من ساعير ، واستعلن من جبال فاران وظهر من ديوان قدسه عن يمينه نور ، وعن شماله نور عليه تجتمع الشعوب والمعنى جاء أمر الله تعالى وشرعه من طور سيناء وهو المكان الذى كلم الله موسى عنده ، وساعير هى جبال بيت المقدس المحلة كان بها عيسى عليه السلام وجبال فاران هى جبال الحجاز ، ومعنى استعلن من جبال فاران أى ظهر أمر الله من منطقة الحجاز وذلك تم على لسان خاتم الأنبياء سيدنا محمد ﷺ وكانت بعثته من منطقة الحجاز إظهاراً للحق الذى دعا إليه كل الرسل لأهل الحجاز وغيرهم من أهل الدنيا جميعاً كما مر ذكر الآيات والأحاديث التى تنص على عموم الدعوة الإسلامية(١) .

وتلك الأمكنة التى أشار إليها هذا النص من التوراة قد جاءت فى القرآن الكريم مقسما بها قال تعالى : [والتين والزيتون وطور سينين وهذا البلد الأمين] .

فالتين والزيتون : محلة بيت المقدس حيث وجد المسيح عليه السلام ، وطور سينين ، هو الجبل الذى كلم الله عليه موسى عليه السلام ، والبلد

---

(١) راجع كتاب الدعوة الإسلامية دعوة عالمية د/ على عبد الحليم محمود ص ٤٤ ، المرجع السابق ص ٣١

الأمين هى مكة المكرمة البلد الذى فيه ولد النبى محمد ﷺ ومنه بعث إلى العرب خاصة وإلى الناس عامة .

٢ — ماجاء فى صحف أشعيا :

ذكر فى تلك الصحف بعد كلام وجه إلى بنى إسرائيل وفيه عتاب على ماكان فيهم من مخالفات . ما يأتى : [فإنى أبعث إليكم وإلى الأمم نبياً أميا ليس بفظ ولا غليظ ولا صخاب فى الأسواق أصوره لكل جميل وأحبب له كل خلق كريم ثم أجعل السكينة لباسه والبر شعاره والتقوى فى ضميره والحكمة مقولته والوفاء طبيعته والعدل شعيرته والحق شرعته والهدى ملته والإسلام دينه والقرآن كتابه ، أحمد اسمه أهدى به الضلالة وأرفع به بعد الخمالة ، وأجمع به بعد الفرقة ، وأؤلف به بين القلوب المختلفة وأجعل أمته خير أمة أخرجت للناس ، قرابينهم دماؤهم وأناجيلهم فى صدورهم رهباناً بالليل ليوثا بالنهار][1] .

وتلك الأوصاف التى جاءت فى هذا النص قد ذكرها الإمام البخارى رضى الله عنه فى حديث عبد الله بن عمرو بن العاص عندما سئل عن أوصاف النبى ﷺ فى التوراة فأجاب بقوله : أجل والله إنه لموصوف فى التوراة ببعض صفاته فى القرآن الكريم .

يأيها النبى إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً وحرزاً للأميين أنت عبدى ورسولى سميتك المتوكل ليس بفظ ولا غليظ ولا صخاب فى الأسواق لايدفع السيئة بالسيئة ولكن يعفو ويغفر ولن يقبضه الله

---

(١) المرجع السابق ص ٤٥ د/ على عبد الحليم محمود .

حتى يقيم الملة العوجاء بأن يقولوا لا إله إلا الله ويفتح بها أعينا عميا وآذانا صما وقلوبا غلفا(١).

من تلك الاستشهادات التى استطردت فيها بعض الشيء نجد عموم النبى أقره القرآن الكريم وشهد به من أول الأمر كما أن السنة النبوية أيدته بل ودعت إليـــه بالقول والفعل ، وأيضاً كتب الأديان الأخرى كالتوراة وغيرها . هذا بالإضافة لشهادات الكتاب المحدثين من غير المسلمين .

ومن ذلك نأخذ أنه تلقى على عاتق الدعاة من المسلمين أمانة ثقيلة وهى العمل على كشف الزيف وإزالة العقبات التى وضعها أعداء الإسلام من المبشرين والمستشرقين فى طريق الإسلام حتى لا يعرفه الناس على حقيقته ،

كما أن أجهزة الحكومات الإدارية منها والإعلامية والمالية وغيرها مماله صلة بالدعوة ووجوب توصيلها للناس كل أولئك مطالبون أمام الله أن يقوموا بواجبهم نحو إعلام الناس بحقيقة الإسلام وأنه كلمة الله الأخيرة إلى أهل الأرض جميعا وسنرى لذلك مزيداً من القول عند الحديث عن تبليغ الدعوة الإسلامية .

---

(١) راجع تيسير الوصول إلى جوامع الأصول من حديث الرسول ﷺ حـ ٢ ص ٢٠١ للشيبانى .

مراعاة المصلحة فى الشريعة الإسلامية دليل على عموم الدعوة وشمولها :

الدعوة الإسلامية تضمنت مايتعلق بالإنسان لدينه ودنياه مايخص الفرد من ذلك ومايعم المجتمع كله لذلك أتت الشريعة الإسلامية مهتمة بمصالح الناس الحقيقية كما راعت فى الاعتبار الأول درء المفاسد عنهم ، الشريعة إذن ماشرعت إلا لتحقيق مصالح العباد فى عاجل دنياهم وآجل آخرتهم التى أخبر الله عنها بأنها هى الحيوان لو كان الناس يعلمون والموضوع أيضاً يتعلق بدرء المفاسد عنهم فى عاجل الدنيا وآجل الآخرة ولذلك نجد الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى يقول :

« إن الشريعة الإسلامية إما درء مفاسد أو جلب مصالح ، قال الله تعالى : (وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين) .

والرحمة تتضمن رعاية مصالح العباد ، ودرء المفاسد عنهم ولا تعد رحمة إذا أغفلت شيئاً من ذلك .

وقد جاءت النصوص فى تعاليم الإسلام مقرونة بما يفيد ذلك فعندما نقرأ نصا يوجب عقابا أو ينهى عن محذور أو يأمر بمطلوب نجده مقرونا بما يوضح تلك القاعدة أى (إما درء مفاسد أو جلب مصالح) .

ففى قوله تعالى (ولكم فى القصاص حياة يأولى الألباب) نجد أنه يقرر أن القصاص قد شرع لتحقيق تلك المصلحة وهى الحياة للناس جميعا فى ظل مبدأ الأمن والاستقرار وحقن الدماء ، وذلك بزجر من تسول له نفسه الاعتداء على أرواح الآخرين وإقامة الحد عليه بتنفيذ العقوبة المقررة فيما ارتكبه من خطأ .

كذلك الحال فيما ورد من نصوص تحذر من الوقوع فيما منعت تناوله سواء على وجه التحريم أم مادونه .

وإدراكا لذلك تأمل معنى قوله تعالى (إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء فى الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة فهل أنتم منتهون)(١).

وفى ذلك التأمل للنص نجد أنه يوضح أن تحريم الخمر تقرر ليقى الناس مفسدة الصد عن ذكر الله تعالى، وعن الصلاة كما يبعدهم عن الوقوع فى العـــداوة والبغضاء، ولا يختلف عاقلان فى أن درء المفسدة وجه من وجوه المصلحة،

وذلك لأن المصلحة لها وجه إيجابى، وهو جلب منفعة لم يكن حاصلا، ووجه سلبى وهو دفع ضرر أو مفسدة وفى كلا الوجهين الإيجابى والسلبى قد تحققت المصلحة للإنسان فى المجال العام وهكذا الشأن فى جميع الأحكام بلا استثناء فبالتأمل الدقيق نجد أنها لا تخرج عن هـذا المجال. وسواء فى ذلك ما يتعلق بالإعتقاد والعبادة والمعاملات والأخلاق.

وإذا حدث فى شىء من ذلك أن جهلنا وجه المصلحة فإن الجهل بها لا ينفى وجودها، فالمريض مثلا عندما يجهل وجه المنفعة فى دواء يقرره الطبيب، لا يمنع جهله هـذا من تحقيق المصلحة وإن بدا الدواء ضاراً فى ظاهره، وإذا كان الشأن هكذا فيما يتعلق بالإنسان مع الإنسان فما بالنا بما يضع خالق الإنسان فى كل ما يتعلق به؟

هذا من جانب، ومن جانب آخر فإن المصلحة فى الشريعة الإسلامية لا تقاس بالنسبة لحياة الناس الدنيوية فحسب ولكن لابد وفى الاعتبار الأول من اعتبار ما يتعلق بالحياة الآخرة التى هى دار الخلود والدوام وفيها يكون النعيم الحق، والشقاء الذى ما بعده من شقاء حفظنا الله من شقاء

---

(١) المائدة ٩١

الآخرة وجعلنا من أهل السعادة فيها، وصدق الله العظيم إذ يقول (يوم يأت لا تكلم نفس إلا بإذنه فمنهم شقى وسعيد فأما الذين شقوا ففى النار لهم فيها زفير وشهيق خالدين فيها ما دامت السموات والأرض إلا ما شاء ربك إن ربك فعال لما يريد. وأما الذين سعدوا ففى الجنة خالدين فيها مادامت السموات والأرض إلا ما شاء ربك عطاء غير مجذوذ)(١) .

وقد يقع الضرر على إنسان ما فى الدنيا بأن يصاب بأمراض تؤلمه أو يحرم من مال يستمتع به غيره أو يمنع الولد بأن يكون عقيما الخ وبالنظرة السطحية لمثل هذا الإنسان قد يحكم له بأنه قضى حياة وعاش عيشة سلب فيها ما من حقه أن يستمتع به .

ولكن بالنظرة الدقيقة والفاحصة المستمدة من قيم الشرع وأحكامه يتضح أن تلك الحياة الفانية التى حرم الإنسان فيها متعة مؤقتة من متعها ؛ إذا كان ذلك سيأخذ به إلى ما هو أعظم من ذلك وأحسن حيث يحصل على نعيم الآخرة الذى هو نعيم الخلود والاستمرار فإن ذلك من أعظم أوجه المصلحة ، وهذا ما قررته النصوص الدينية فى كل عصر وعلى لسان كل نبى بلغ عن الله تعالى ما أوجب عليه تبليغه .

---

(١) سورة هود ١٠٥ — ١٠٨

٢ — الرخص عند وجود الغث :

أيضا مما يبرهن على اعتبار وجه المصلحة فيما أتت به الشريعة الأسلامية تضمنيه من رخص عند وجود المشقة فى تنفيذ حكم من الأحكام سواء أكان فعلا أم تركا أمراً أم نهيا . بل وفى أهم ما يتعلق بالإسلام ويعتبر الاساس فيه والقاعدة وهو مايكون فى جانب العقيدة وفى هـذا الموقف لاتخفى عليك حال عمار بن ياسر رضى الله عنه ذلك الصحابى الذى يعد من السابقين إلى الاسلام هو وأبوه وأمه تحت جبروت المشركين وطغيانهم رأيناه فى جو هذ التعذيب القتال الذى لايطاق ضعفت عزيمته ونطق لسانه بماطلب منه الأعداء فيما يتعلق بالإسلام ونبيه وبعد أن حدث منه ذلك سر عليه النبى صلى الله عليه وسلم وهو فى مجال التعذيب فسأله ﷺ عن حاله فأجاب بأنه على أسوء حال وقص على النبى صلى الله عليه وسلم ما كان منه من نطق باللسان نتيجة لشدة العذاب الذى أصابه فقال له منى عليه الصلاة والسلام كيف كنت ترى قلبك عندما نطلق لسانك بما نطق به فأجاب بأن قلبه أنكر ما نطق به اللسان وما شك لحظة منذ أن آمن فصرح له النبى أن بلسانه بما يكف المشركين عنه مادام قلبه مطمئنا بالإيمان وفى ذلك نزل قوله تعالى [من كفر بالله من بعد إيمانه إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان] الآية(١).

وإذا كانت الرخصة أتت فيما يتعلق بالعقيدة كما رأينا فإنها من باب أولى نفذت بالفعل فيما يعلق بالعبادة والسلوك ، ولايخفى علينا ما أباحه الشرع من تناول المحذور من المأكول أو المشروب عند فقد المباح مع

---

(١) سورة النحل ١٠٦ ، وانظر فيها ما جاء فى ابن كثير ج٢ ص٥٨٧

خشية الهلاك قال تعالى [حرمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به والمنخنقة والموقوذة والمتردية والنطيحة وما أكل السبع إلا ماذكيتم وماذبح على النصب وأن تستقسموا بالأزلام ذلكم فسق اليوم يئس الذين كفروا من دينكم فلا تخشوهم واخشون اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام دينا فمن اضطر فى مخمصة غير متجانف لإثم فإن الله غفور رحيم](١).

ففى قوله تعالى « فمن اضطر فى مخمصة » إباحة للمحرم المذكور فى أول الآية إذا تعرض المرء للهلاك لعدم وجود المباح من الطعام أو الشراب وقيد ذلك بكونه بعيداً عن الإثم أى الذنب فى قصده واتجاهه(٢) .

وكذلك جاءت الإباحة فى تناول المحرم عند الاضطرار من باب الرخص فى قوله تعالى [قل لا أجد فيما أوحى إلى محرماً على طاعم يطعمه إلا أن يكون ميتة ... إلى قوله تعالى [فمن اضطر غير باغ ولا عاد فإن ربك غفور رحيم](٣) .

ومن المقرر عند العلماء أن دفع المشقة ضرب من ضروب رعاية المصلحة ودرء المفسدة عن الناس .

---

(١) سورة المائدة ٣

(٢) راجع الشوكانى فى كتاب فتح القدير جـ٢ ص١٢

(٣) سورة الأنعام ١٤٥

وإليك نماذج من الصور التى تتعلق بها مصالح العباد :

لقد نص الفقهاء بعد البحث والتأمل والاستقراء أن مصالح العباد تتعلق بأمور ضرورية أو حاجية أو تحسينية ، فالأمور التى لا قيام لحياة الناس بدونها والتى إذا فاتت حل الفساد وعمت الفوضى واختل نظام الحياة تسمى بالأمور الضرورية وذلك مثل : حفظ النفس ، والدين ، والعقل ، والنسل ، والمال .

والأمور الحاجية : أى الحاجيات هى التى يحتاجها الناس ليتحقق بها اليسر والسعة فى الحياة المعيشية فإذا فاتهم شىء منها لم يختل نظام الحياة غير أنه يترتب على فواتها إصابة الناس بالضيق والحرج .

والتحسينات : هى الأمور التى ترجع إلى محاسن العادات ومكارم الأخلاق ، وبفواتها تخرج حياة الناس عن النهج القويم الذى تحتمه وتقضى به العبادات الدينية وترتضيه وتلبى نداءه الفطر السليمة التى لا تحولها من نهجها السليم بيئة منحرفة أو وراثة سيئة .

وأحكام الشريعة الإسلامية فى كل ذلك تحقق المصالح المتعلقة بالناس فيما يرتبط بالضرورات ، والحاجيات والتحسينات .

وتفصيل ذلك كالآتى :

(أ) فبالنسبة للضرورات : أما من الناحية الدينية فقد شرع الله تعالى لإقامتها وتحقيقها ، العبادات ، كما أوجب لحفظها الجهاد الإسلامى كما أمر بتنفيذ حد الردة فى المرتدين ، هذا بالإضافة لتنفيذ العقوبة المناسبة فى كل من يفسد على الناس عقيدتهم .

ولحفظ النفس والاستمرار فى التناسل قد شرع الإسلام النكاح ورغب فيه ووضع الشروط والمنهج الذى يجعل الأسرة فى أعظم مقام يدفع بها إلى أداء دور أفرادها فى بناء المجتمع وإقامته على الوجه الصحيح ، هذا من ناحية إيجاد النفس أما من ناحية حفظها فقد أوجب القصاص على من يعتدى على غيره كما حرم أن يعرض المرء نفسه أو يلقى بها فى التهلكة.

أما من ناحية العقل فمن أجل حفظه وإبعاد كل ما من شأنه إفساده قد حرم الإسلام كل مسكر وأوجب فيه العقوبة العاجلة بإقامة الحد فى الدنيا كما توعد المخمورين بالعذاب الشديد فى الآخرة كما حث على الاهتمام بالعقل والعمل على نماء الفكر والأخذ به إلى ما يحقق مصالح الأفراد والجماعات ولكل ذلك حث على التعلم ورغب فيه ببيان منزلة العلماء فى الدنيا والآخرة .

والإسلام أيضا لا يغفل جانب المال إذ إنه شرع لتحصيله كل المعاملات العادلة التى من شأنها تنمية المال وصرفه فى وجهه المشروع دون استغلال أو حرمان لذلك كله جاء الفقه الإسلامى بثروته العلمية الضخمة فيما يتعلق بإباحة البيع والشراء وتحريم الربا والظلم والاستغلال حتى حدد الموقف فيما يتعلق بالشركات والرهن والقرض وغير ذلك من كافة المعاملات المالية التى شهد لها المفكرون والباحثون من علماء الغرب والشرق على السواء .

وقد شرع الإسلام لحفظ المال حرمة أكل مال الناس بأى طريق غير مشروع كما حرم إتلافه بأى وجه من أوجه الفساد حتى ولو كان المفسد للمال من يملكه ولذلك نجد الإسلام سلب السفيه حرية التصرف فيما يملك وأوجب الحجر عليه مع الانفاق عليه بحد الاعتدال قال تعالى [ولا تؤتوا السفهاء أموالكم التى جعل الله لكم قياما وارزقوهم فيها واكسوهم وقولوا لهم قولا معروفا] .

والملاحظ فى الآية أن المال نسب إلى الجماعة فى قوله تعالى [أموالكم] فى حين أنه ملك السفيه . والسفيه كما عرفه الفقهاء هو الذى لا يحسن التصرف فى المال كأن ينفقه فى أوجه غير مشروعة كالخمر والميسر ، أو يسرف فيه فيخرج فى الانفاق عن حد الاعتدال ولا يخفى فى هذا المقامه ماشرعه الإسلام لحفظ مال اليتيم وما جاء من تشديد على أوصياء اليتامى فى المحافظة على أموالهم والعمل على استثمارها فيما ينميها لصالح اليتامى وتوعد آكليها بالباطل بالعذاب الشديد وصدق الله العظيم إذ يقول [إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما إنما يأكلون فى بطونهم ناراً وسيصلون سعيراً] وهكذا الشأن فى كل ما يتعلق بالمال حفظا وصيانة أو نماء واستثماراً .

(ب) موقف الشريعة الاسلامية من الحاجيات :

كما اهتم الإسلام بالضرورات فى كل ما يتعلق بالدين والنفس والعقل والمال ، كذلك الشأن بالنسبة للحاجيات فإننا نجد التشريع الإسلامى أتى وافيا بالغرض فى هـــذا المجال إذ شرعت الرخص فيها عند المشقه ، كما شرعت الدية فى القتل الخطأ على عاقلة القاتل وكتب الفقه غنية فى هذا المجال بما يمد الطالب بكل ما يحتاج إليه . فليعد الباحث إليها ليحقق بغيته منها .

(ج) كذلك الحال بالنسبة للتحسينات فقد راعتها الشريعة حق رعاية فيما أتت به فمثلا عندما نتأمل مجال الطهارة فى منطق الشريعة نجدها دليلا واضحا على ذلك إذ شرعت طهارة البدن والثوب عند قصد العبادة وفى ذلك ما فيه من مجال الأمور التحسينية ، أيضا ستر العورة ولو كان المرء منفرداً بنفسه كما شرعت الزينة عن كل مسجد ، وجاء النهى عن بيع الإنسان على بيع أخيه وفضلا عن ذلك فقد امتدت الأمور التحسينية لتفيد غير المسلمين ومنها النهى عن قتل الأطفال والنساء غير المسلمين فى حــرب الإسلام

المشروعة مع أعـــداء الإسلام(١).

وبتتبعنا لتشريع الإسلام يتأكد لنا أنه إنما يهدف من وراء تشريع الأحكام للناس حفظ تلك الضروريات والحاجيات والتحسينات ، وهى ما تعـود عليهم بالنفع العاجل فى الدنيا والآجل فى الآخرة معاً . كما أن التشريع قـرر فى الوقت نفسه أنه إذا تعارضت المصالح والمفاسد قدم أعظمها مصلحة أو أقلها مفسدة . وتوضيح ذلك أن قتل القاتل لغيره فى القصاص مفسدة على القاتل لأنها تفوت عليه حياته وقد أوجبه الشرع لأن بتحقيقه مصلحة أعظم وهى حفظ الناس جميعا وهو ماعبر عنه القرآن الكريم بالحياة فى قوله تعالى [ولكم فى القصاص حياة يا أولى الألباب لعلكم تتقون] .

أيضا : إذا احتكر إنسان شيئاً ما ففى تركه وما صنع مصلحة له هو : ولكن فيه مفسدة خطيرة تعود بالضرر على المجتمع كله ، فجاء الشرع بمنع الاحتكار اتقاء للضرر الأكبر وهكذا فى كل ما يتأمله الإنسان من منطلق الشرع الحكيم الذى أتى من عند الله العليم الخبير . ولذلك عرفت تلك القاعدة عندالعلماء (درء المفاسد مقدم على طلب المصالح) . وقد أخذت تلك القاعدة من منطلق القرآن الكريم فى مثل قوله تعالى [ويسألونك عن الخمر والميسرقل فيهما إثم كبير ومنافع للناس وإثمهما أكبرمن نفعهما] الآية .

ولا يغيب عن أذهاننا ما قرره الفقهاء فى هذا المجال أسوق منه ما جاء على لسان ابن القيم رحمه الله إذ يقول [.... إن الشريعة مبناها وأساسها على الحكم ومصالح العباد وهى عدل كلها ورحمة كلها وحكمة فكل مسألة خرجت من العـدل إلى الجور ومن الرحمة إلى ضـدها ومن المصلحة إلى

(١) راجع أصول الدعوة ص ٨٠ وما بعدها د / عبد الكريم زيدان

المفسدة ، ومن الحكمة إلى العبث فليست من الشريعة وإن أدخلت فيها بالتأويل، فالشريعة عدل الله مع خلقه ورحمته بعبادة، ومن كل ذلك يتضح فيما جاءت به من أحكام صريحة في نصوصها وما انبنى عليها من أحكام اجتهادية عن طريق الاجتهاد الصحيح كل ذلك يؤكد أنه لا يمكن أن تضيق تلك الشريعة الخالدة بحاجات الناس المشروعة ولا تعجز بمصالحهم الحقيقية في العاجل والآجل في أي زمان ومكان مما يؤكد عمومها لكافة النـاس .

المقومات الذاتية للدعوة الإسلامية

تبرهن عــلى عموميتها

عندما يتأمل المرء أحكام الشريعة الإسلامية يجد أنها نوعان :-

(ا) ماجاء من تلك الأحكام على شكل قواعد كلية ، ومبادىء عامة .

(ب) ماجاء على شكل أحكام تفصيلية وفروع جزئية .

١ — ومن مرونة الأحكام فى الشريعة الإسلامية أنها أتت فى كلا النوعين أعنى ما كان منها على صورة كلية ومبادىء عامة ، وما كان على شكل أحكام تفصيليه وفروع جزئية — على نحو يوافق كل مكان وزمان ويلبى حاجة البيئة فى كل ذلك دون أن تعدم وجود دليل لكل ما يتعلق بالناس فى ظروفهم الدينية أو المعيشية وهو ما يجعــل تلك الشريعة الإسلامية صالحة فى عمومها لكل الأزمنة وكافة البيئات وذكر ذلك بشىء من التفصيل يتبين منه أن القواعد الكلية والمبادىء العامة قد وردت بصورة تتضمن أحكاماً عامة يمكن تطبيقها فى كل زمان ومكان بسهولة ويسر وفى نفس الوقت فإن القواعد الكلية فى تشريع الإســلام تعتبر أساساً لكل ما يقوم وينبنى عليهــا من أحكام جزئية ومن ذلك نجد :

١ — العــدل .

٢ — الشورى .

٣ — المساواة .

---

(١) راجع كتاب : الدستور القرآنى فى شئون الحياة للأستاذ عزت دروزة ص ٤٠٥

٤ ــ قاعدة لا ضرر ولا ضرار .

فبالتأمل فى مبدأ العدل فى منطق الدعوة الإسلامية نجد أنه أتى عاماً مطلقاً بكل ما يتعلق به من معنى وقد وجد كذلك ليتناول جميع المجالات التى يجب أن يتحقق فيها ؛ فالعدل بين الناس جميعاً من ناحية النشأة والجنس والحقوق والواجبات وتحقيق فرص الحياة لجميع الناس دون حاجز من جنس أو لون أو طبقة أو غير ذلك ؛ والعدل فى التقاضى والحكم فيه دون تأثر أو تأثير لمودة أو عداوة كل ذلك يدخل فى جانب العدل هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى فالملاحظ أن الشريعة الإسـلامية قد تركت الوسائل التى يتحقق بها العدل دون تحديد وذلك ليأخذ الناس من تلك الوسائل فى كل مجال بما يفيد لتحقيق العدل دون التقيد بالشكل .

هذا مع مراعاة كل ماهو مشروع لأن الإسلام يعنى بالشكليات بقدر ماهو مهتم بالحقائق فالعدالة فى التقاضى . لا تتقيد بشكل معين كأن يقال هل نتقيد بمحكمة واحـــدة أم بدرجات من المحاكم ؟ كأن يكون محكمة جزئية فكلية فاستئنافية إلخ .

وهل تتحقق العدالة بأن يكون القاضى عاماً أى بخصص القاضى ، وتخصص المحكمة فى نوع من القضايا ؟ وهكذا فى مجال تلك التساؤلات ، فقد ترك فى منطق الشريعة الإسلامية دون تحديد ، وذلك للأخذ بالأصلح من كل ذلك حسب تجارب البشر بما يتلاءم مع الظروف المتجددة فى أعراف الناس ومعاملاتهم ، فى كل زمان ومكان .

كذلك الحال بالنسبة لمبدأ الشورى فى الإسلام فقد أعتبرت الشورى أساساً من أسس الحكم فى الإسلام وقد جاء الأمر بها من الله تعالى فى مواضع عدة فى القرآن الكريم قال تعالى : [فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظاً غليظ القلب لا نفضوا من حولك فاعف عنهم واستغفر

لهم وشاورهم فى الأمر فإذا عزمت فتوكل على الله إن الله يحب المتوكلين](١) .

وقوله تعالى : [والذين استجابوا لربهم وأقاموا الصلاة وأمرهم شورى بينهم ومما رزقناهم ينفقون](٢) .

وقد سميت السورة التى ذكرت فيها تلك الآية بسورة الشورى مما يلفت الأنظار إلى أهمية الشورى فى الإسلام إذن قررت الشريعة مبدأ الشورى، وألزمت الناس بالأخذ به ، ولكن كيف يتحقق ذلك المبدأ على الوجه الأمثل فى ذلك نجد الإسلام ترك المجال دون تحديد ليأخذ الناس من الوسائل لتحقيق الشورى ما يتناسب مع زمنهم وظروفهم ، فهل يأخذ الناس بوسيلة التصويت العام أم يأخذون بأصوات ممثلين للنقابات والجامعات والطوائف المختلفة ، وهل يتم ذلك عن طريق الكتابة أم أم المشافهة إلخ .

كل تلك الوسائل تركتها الشريعة الإسلامية بدون تحديد وهذا يدل على مرونة الشريعة وأن أحكامها ومبادئها أتت بهذا العموم لتصير صالحة لكل زمان ومكان وقد بقيت حتى الآن وافية بالغرض لا تضيق بشيء فى موقف من المواقف مما جعلها صالحة السبق على كل ما يأخذ به الناس الآن فى كافة القوانين والأحكام(٣) .

---

(١) آل عمران / ١٥٩

(٢) الشورى / ٣٨

(٣) راجع كتاب نحو مجتمع اسلامى للأستاذ سيد قطب ص ٥٤ وما بعدها .

قاعدة لا ضرر ولا ضرار :

من عدالة الدعوة الإســـلامية ، وحرصها على مصالح الناس جميعاً ، ومرونتها فى تطبيق الأحكام بين الناس أخذها بهذه القاعدة الهامه فى حياة الناس وهى كما نرى من عنوانها تفيد أن الضرر مرفوض بحكم الشرع وبمقتضاها لا يجوز بحالة من الأحوال أن يوقع أحد بغيره ضرراً أو بنفسه أيضاً وفى الوقت نفسه لا يصح أن يقابل ضرراً بضرر كأن يتلف إنسان لغيره شيئاً ما فلا يجوز لمن يقع عليه التلف أن يرد بالمثل فى هذا التلف وإنما يطالبه بالتعويض وذلك حرصاً على مصالح الناس وإبعاد التلف عنهم وطبعاً أخذ العوض فيما أتلف عمداً قد أقره العلماء وأفتوا به على مر العصور واختلاف الأزمنة .

وإذا كنا نرى شريعة الإسلام وهى شريعة الله تعالى قد منعت الضرر ونهت عنه فإنها تقرر أن الضرر إذا وقع يجب رفعه ومن هذا أخذ الفقهاء تقرير حق الشفعة كما ورد فى كتب الفقه وأيدته الأدلة الصحيحة وفى ذلك ما فيه من العدالة والحرص على مصالح الناس . كما أنه يبرهن على مرونة الشريعة وصلاحيتها لكل زمن ومواجهتها لكل ما وقع ويقع فى حياة البشرية .

النوع الثانى من الأدلة

التى تبرهن على عموم الدعوة

تحت هذا النوع من الأدلة نجد الكثير فى تعاليمها ما يتعلق منه بالعقيدة وما يتعلق بما تفرع عنها فى العبادة والمعاملة والأخلاق والسلوك وكله يبرهن على عموم الدعوة الإسلامية وتذكر منه على سبيل المثال ما يوضح كل ما ذكر .

وإليك ما يتعلق بالعقيدة الإسلامية ، العقيدة فى الإسلام توافق كل ما جاء على لسان رسل الله أجمعين ولابد أن يكون الأمر كذلك كما أنه لا يمكن أن يحيد أى رسول من الرسل الله تعالى عنه ، وذلك المبدأ فى العقيدة هو الدعوة إلى الإيمان بالله الواحد وتنزيهه سبحانه وتعالى عن كل مالا يليق به والإيمان الصحيح بالله تعالى يلزم بالإيمان بكل ما أمر الله بالإيمان به كالإيمان بالرسل دون التفريق بين رسول وآخر فى ذلك والإيمان بالملائكة والكتب واليوم الآخر والقضاء خيره وشره ، والإيمان على هذا المبدأ ثم أتى على لسان كل رسول كما ساق الأدلة لقومه على ذلك ، وعلى ذلك فلا يمكن أن نتصور مجىء زمان أو جيل من الأجيال يقول أفراده بعضهم لبعض إن قضية الإيمان بوصفها آنف الذكر ، أصبحت من المسائل البالية التى أنقضى عليها الزمن وأصبحت لا تلائم العصر أو صارت لا يقرها العقل لا يتأتى ذلك عند من سلمت عقولهم من آفات التلوث والتقاليد لأن العقل كلما تقدم به الفكر المتزن كلما آمن بالحقائق وأدركها حق الإدراك ومن المقرر بين العلماء والمفكرين أن من شأن الحقائق الثابتة الثبات والإستمرار والعقل يقر ذلك ويؤيده دائماً طالما أنه على الفطرة المستقيمة ، ومن غير شك فإن الإيمان بالله تعالى من الحقائق الثابته الخالدة التى لا يعتريها التغيير فى أى زمان .

كذلك الأمر بالنسبة للعبادات كالصلاة والصيام وغيرهما من فرائض العبادات وما يتعلق بها من أحكام ، فإن كل ما يتعلق بذلك يعد من لوازم الإيمان بالله تعالى ومقتضاه . لأن تلك العبادات جميعاً ينظم علاقة الفرد بربه وتحث على الوفاء له والطاعة والإمتثال لأمره ، ومن هنا يتحتم القول بعدم انفكاك صفة المخلوقية للإنسان وعبوديته للخالق تعالى فى أى فترة من فترات التاريخ ، وبالتالى لا يمكن أن ينفك عن التزامه بكل ما وجب القيام به لخالقه تعالى ، ولا يغنيه أو يعفيه من ذلك أى شىء فى الوجود .

والعبادة كما هو مقرر فيما يتعلق بها تعد فوق كونها أمتثالا لأمر الله تعالى من أهم الوسائل فى تزكية النفس وطهارتها وتزويدها بمعانى الخلق والفضيلة وأبعادها عن كل ما يناقض ذلك أو يخالفه كل ذلك نلحظه مقرونا بالأدلة التى تلتزم الناس وتحثهم على القيام بأداء فرائض الله تلك فمثلا إذا سقنا دليلا من أدلتها وتأملنا ما ورد فيه نرى ذلك مشاهداً لكل الناس وأضحاً مدركا بأدنى تأمل . كقوله تعالى : [وأقم الصلاة إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ولذكر الله أكبر والله يعلم ما تصنعون](١) .

فالصلاة كما تقرر الآية الكريمة تنهى صاحبها وتكفه عن الوقوع فى كل محذور منهى عنه وقد عبرت الآية عنه بعبارتى «الفحشاء والمنكر» كذلك الشأن بالنسبة لفريضة الصيام قال تعالى تعالى [يأيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون](٢) .

أيضاً نرى ذلك فى أدلة الزكاة والحج أما عن المفروضة الأولى فقد

---

(١) العنكبوت / ٤٥
(٢) البقرة / ١٧٣

جاء قوله تعالى [خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها وصل عليهم إن صلاتك سكن لهم والله سميع عليم](١) وعن الثانية جاء قوله تعالى [الحج أشهر معلومات فمن فرض فيهن الحج فلا رفث ولافسوق ولاجدال فى الحج وما تفعلون من خير يعلمه الله وتزودوا فإن خير الزاد التقوى واتقون يا أولى الألباب](٢) .

ففى جميع تلك الأدلة كما ذكر نجد أنها توضح أن العبادات التى أشارت إليها وذكرت من أجلها من صيام وصلاة وزكاة وحج وغيرها جميع تلك العبادات تعمل على تكامل النفس البشرية وكل فريضة منها تقوم بإصلاح زاوية معينة فى الإنسان فالصلاة تعمل على طهارة الإنسان وبعده عن التلوث الحسى والمعنوى والصيام يعمل على تهذيب النفس وتربية الضمير وتحقيق جانب المراقبة الكاملة فى الإنسان لله عز وجل ، والزكاة تعمل على تعويد النفس وحثها على الجود والكرم والبذل والعطاء ولو كان ذلك لعدو من الأعداء والحج يربط الإنسان بجماعته الإسلامية الكبرى التى ينتسب إليها ويعد واحداً من أفرادها وكل ذلك قد تفرع عن عقيدة الإسلام التى هى الأم والأساس التى منه ينطلق المرء فى تلك الحياة ولكل ذلك نرى رسول الله ﷺ يؤكد أن المرء الذى لا يحصل على تلك الثمرة من عبادته فلا عبادة له فعن الصلاة جاء قوله ﷺ [من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر فلا صلاة له] .

وعن الصيام جاء قوله [من لم يدع قول الزور والعمل به فليس لله حاجة فى أن يدع طعامه وشرابه] .

وعن الصدقات جاء فيما يرويه أنس بن مالك أنه ﷺ قال : [ويل

---

(١) سورة التوبة / ١٠٣
(٢) سورة البقرة / ١٩٧

للأغنياء من الفقراء يوم القيامة يقولون : ربنا ظلمونا حقوقنا التى فرضت لنا عليهم ، فيقول الله عز وجل وعزتى وجلالى لأدنينكم ولأباعدنهم ثم تلا النبي ﷺ قوله تعالى : [وفى أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم] .

ثالثاً : ما يتعلق بالأخلاق والسلوك من وجوب الصدق والوفاء والتعاون على البر والتقوى ، وعدم التعاون على الإثم والعدوان التى منها مايتعلق بما يطلب أداؤه والقيام به ومنها مايتعلق بما ينهى عنه وينبغى اجتنابه والتخلى عنه كأضداد ماذكر من الكذب ، والغدر ، والأنانية ، وغير ذلك وكل هذا ضرورى لكل مجتمع من المجتمعات البشرية أفراداً وجماعات ولا يمكن أن يسد فراغه أى تقدم مادى فى أى مجال من المجالات ، وأفضل برهان وأصدق دليل على ذلك واقع البشر المشاهد فعندما تخلى الناس عن الأخلاق وتهاونوا بالقيم بل وداسوها ، سادت فيهم الاضطرابات والقلاقل النفسية كما تحطمت روابط الأسر بين الأبناء وآبائهم فى البيت الواحد فضلا عن البيوت المتنوعة وهو مايلزم بالأخلاق الفاضلة ويحتمها لكل زمان ومكان ولكافة البيئات دون أن يجىء وقت ما فى بيئة ما يقال فيه : إن الصدق والأمانة وسائر الأخلاق الفاضلة أصبحت فاسدة لا تصلح لذلك المكان أو لتلك البيئة . كما لا يقال إن ترك الظلم والتخلى عن سائر الرذائل صار من الامور الفاسدة التى لا تصلح للمجتمع أفراده وجماعاته ، اللهم إلا إذا ارتدت البشرية وانتكست الإنسانية إلى جاهلية مظلمة عمياء أشد خطراً وأعظم ضرراً من الجاهلية الأولى التى سبقت الإسلام وجوداً .

كذلك الأمر فيما يتعلق بالأحكام التفصيلية التى تتعلق بالمعاملات بين الأفراد والجماعات بعضهم والبعض الآخر فهذا اللون من المعاملات ضرورة للناس جميعاً وأعنى المعاملات التى تقوم على مبدأ الإسلام الصحيح فى إقرار كل فضيلة والأخذ بها ورفض كل رذيلة والتخلى عنها المعاملات بتلك الصورة لازمة للبشرية صالحة للبقاء والاستمرار بين أفرادها لأنها تفرعت على أساس أن الحاجة إليها تبقى دائمة وأن غيرها أياً كان لا يسد مسدها

ولا تتحقق المصلحة بدون ذلك اللون من المعاملات ومن تلك المعاملات ماورد فى شأن الأسرة من حيث تأسيسها وكيفية تحقيق الزواج ومايلزمه بالنسبة لكل من الزوجين وماينبغى أن يكون فيما يخص الأبناء والآباء وعلاقة كل بالآخر وحق كل على الآخر وهكذا كل تلك الأحكام أتت فى شريعة الله تعالى على وجه صالح وكاف ، لتحقيق الخير والسعادة للناس جميعاً ، فكيفية إتمام الزواج ورد فى تخطيط الإسلام ومنهجه على وجه من البساطة لا يحدث فيه إرهاق لكائن من كان بعيداً عن الطقوس والأشكال التى ينتج عنها الإرهاق المادى ومايتبعه وذلك يجعل هذا اللون فى المعاملات الأسرية صالحاً لكل زمان ومكان ، ولا يحتج أحد بما انحرف إليه الكثيرون من أفراد المسلمين فى مناسبات الزواج بما استحدثوه من أشكال وصور تتنافى مع مبادىء الإسلام وأخلاقياته ، ولا يمكن أن يحتج بانحراف الناس على ماجاء من مبادىء صحيحة تركوها وتخلوا عنها وأخذوا بأضدادها فى كثير من تلك المجالات والواجب على المصلحين والدعاة أن يعيدوا الناس إلى مبدأ الإسلام الصحيح ومنهجه المستقيم فى تلك المجالات وغيرها من كافة مايتعلق بالمعاملات الاجتماعية وغيرها .

ونظام الأسرة فى الإسلام ومايتعلق به فى كل ماشرع للأسرة من زواج ونفقة وطلاق وعدة وتعدد للزوجات ونفقة للأولاد وميراث بين الأحياء والأموات كل ذلك ورد بكيفية مازالت لها السبق على سائر النظم والقوانين المعمول بها بين الناس فى شتى بقــــاع الأرض ، كما أنها لم تزل تسوق الدليل على عموم الدعوة وشمولها لشئون الدين والدنيا ولكل الناس على اختلاف ألسنتهم وألوانهم وجنسياتهم وأنها أصلح نظام يحقق السعادة والهدوء والاستقرار للأسرة وللمجتمع .

أيضاً الأمر بالنسبة للعقوبات فى الإسلام وما ورد بشأنها من أحكام نجد منها ماجاء بخصوص حد القتل ، وما ورد بخصوص حد السرقة والزنا

والقذف والردة والسكر وغير ذلك من سائر الحدود والتعازير كل تلك الأحكام فى العقوبات مازالت تتحدى كافة الأنظمة والقوانين المعمول بها بين الناس فى سائر العقوبات وتشير الى أنها أعظم النظم وأمثلها لمقاومة الانحراف بكل صوره وأشكاله وإقامة المجتمع النظيف الفاضل الذى يتحقق فيه الأمن والاستقرار للفرد والجماعة ويجد المرء فيه نفسه آمنا فى كل شيء ومن كل الناس وهذا أعظم شيء يحصل عليه المرء ويتمنى أن يعيش فى ظله ، وفى الوقت نفسه تتحقق أعظم الصلات وأحسنها بين أفراد المجتمع فى ظل هذا النظام الإسلامى فيما يتعلق بقانون الحدود والعقوبات فى الإسلام وعندما يبحث الإنسان مجال العقوبات فى ظل الدعوة الإسلامية وتشريعها العادل المحكم يجدها قد ألزمت بالشروط الضرورية والكافية التى جعلت تلك الأحكام غاية فى المرونة كما أنها غاية فى الرحمة بالعباد كل العباد ، وقد طبق المسلمون الأوائل تلك العقوبات بروح الإسلام الصادقة وعدالته الحقة مما جعلها تحقق المجتمع الفاضل الكريم الذى وصل إلى درجة من الكمال والرقى الإنسانى الذى ماوصل إليه قط مجتمع من المجتمعات فى وقت من الأوقات ؛ ومن كل ذلك يتأكد لنا أن الأحكام التفصيلية التى وردت فى الشريعة الإسلامية الخاتمة جميعها يؤكد عموم الدعوة ويبرهن على صدقها وأن الدعوة بذلك صالحة لكل زمان ومكان .

« الخاصة الرابعة من خصائص الدعوة الإسلامية »

النص على أن الجزاء على العمل دنيوى وأخروى

الدعوة الإسلامية رسالة دين ودنيا ، ومن هذا المنطلق فإنها تتعلق بمصالح الناس جميعاً الدينية والدنيوية وحتى يمكن تحقيق ذلك كله فإنها أتت بالتعاليم التى تربى الناس على المراقبة الصادقة لله عز وجل مهما كان شأن العباد وصلة الإنسان بهم وهى بذلك لاتقف عند حد الإرشادات المجردة والخالية من النص على الثواب والعقاب وإنما فوق ماتسوقه من النصائح والإرشادات فإنها تبرز الجزاء على العمل وايا كان ذلك الجزاء أم عقاباً بحيث يصبح ذلك كالمشاهد أمام سامعيه كما أنها توضح تفاوت درجة هذا الجزاء حسب ماقدم المرء من صالح العمل وما اقترف من سيئة .

ومن أهم ماوضحته تعاليم الإسلام فى هذا الشأن أنها نصت على أن الجزاء على العمل نوعان ؛ دنيوى ، وأخروى إلا أن وقوعه أكثر وتصوره أشد وأنكى مايكون منه فى الآخرة قال تعالى [ونفخ فى الصور ذلك يوم الوعيد ، وجاءت كل نفس معها سائق وشهيد ، لقد كنت فى غفلة من هذا فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد ، وقال هذا مالدى عتيد ألقيا فى جهنم كل كفار عنيد مناع للخير معتد مريب الذى جعل مع الله إلهاً آخر فالقياه فى العذاب الشديد قال قرينه ربنا ما أطغيته ولكن كان فى ضلال بعيد قال لاتختصموا لدى وقد قدمت إليكم بالوعيد مايبدل القول لدى وما أنا بظلام للعبيد يوم نقول لجهنم هل امتلأت وتقول هل من مزيد وأزلفت الجنة للمتقين غير بعيد هـــذا ماتوعدون لكل أواب حفيظ من خشى الرحمن بالغيب وجاء بقلب منيب ادخلوها بسلام ذلك

يوم الخلود لهم مايشاءون فيها ولدينا مزيد](١) .

كما كانت عقوبات الدنيا مما اقتضته ضرورة الحياة ، واستقرار المجتمع وتنظيم علاقات الأفراد بصورة واضحة تضمن معها حقوق الناس جميعاً دون أن يضيع حق لأحد ، وقد أسند الإسلام تنفيذ تلك العقوبات لولى الأمر حتى لاتقع الفتنة وتتشعب الأخطار .

وبتأملنا فى الفقه الإسلامى وما تناوله من أحكام تتعلق بالجزاء نجد أن ذلك قد أتى بصورة واسعة تتفق مع شمول الدعوة وعمومها لكافة شئون الحياة ، وجميع الناس مع اختلاف بيئاتهم ومنازلهم ودرجاتهم الاجتماعية حيث شملت كل مايتعلق بالعقيـــدة ، والعبادات والسلوك والأخلاق والمعاملات فى كافه الأمور والأشياء .

وفتحا لباب الأمل فى التوبة والكف عن المخالفات والتخلص من المحرمات قد نصت تعاليم الإسلام على أن المرء إن تحققت منه التوبة النصوح بشروطها كان ذلك كفارة لأخطائه التى وقع فيها وقد جاء ذلك فى كثير من آيات القرآن الكريم وسوره ، قال تعالى [... والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواماً والذين لايدعون مع الله إلهاً آخر ولا يقتلون النفس التى حرم الله إلا بالحق ولا يزنون ومن يفعل ذلك يلق أثاماً يضاعف له العذاب يوم القيامة ويخلد فيه مهاناً إلا من تاب وآمن وعمل عملا صالحاً فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات وكان الله غفوراً رحيما](٢) .

وجاء فى السنة أحاديث كثيرة تؤيد وتؤكد أن التوبة النصوح

---

(١) سورة ق /٢٠ — ٣٥

(٢) سورة الفرقان /٦٧ — ٨٠

بها يمحو الله الخطايا عن مرتكبها ومن تلك الأحاديث ماروراه الإمام البخاري فى صحيحه عن عبادة بن الصامت رضى الله تعالى عنه أن النبى ﷺ قال: بايعونى على أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً، ولا تسرقوا ولا تزنوا، ولا تقتلوا أولادكم، ولا تأتوا ببهتان تفترونه بين أيديكم وأرجلكم، ولا تعصوا فى معروف، فمن وفى ذلك منكم فأجره على الله ومن أصاب من ذلك شيئاً ثم عوقب به فى الدنيا فهو كفارة له، ومن أصاب من ذلك شيئاً ثم ستره الله فهو إلى الله إن شاء عفا عنه وإن شاء عاقبه فبايعناه على ذلك».

هذا وقد روت السنة أيضاً أن النبى ﷺ عندما أقام الحد فيمن وجب عليهم وخاض الناس فى شأن من أقيم عليهم الحد؛ إذ به ﷺ يوضح مكانة التوبة فى هذا المقام، وها هو ماعز رضى الله عنه عندما ضعفت إرادته أمام تيار الشهوة ووقع فى جريمة الزنا — حفظنا الله منها ووقانا شرها — إذ به يذهب إلى النبى ﷺ ويطلب منه أن ينفذ فيه الحد فيقول له ﷺ لعلك فاخذت لعلك قبلت لعلك ضاجعت كل ذلك بقوله ﷺ ليتبين حقيقة ماوقع فيه معاذ وفى كل ذلك يقول معاذ إننى زنيت يارسول الله، فيأمر النبى ﷺ برجمه لأنه كان محصناً والمعلوم أن حد الزانى المحصن الرجم حتى الموت وبعد أن مات ودفن تكلم الصحابة فى أمره ومنهم من قال هلك ماعز ولكنه ﷺ عندما علم بذلك قال رحم الله ماعزاً لقد تاب توبة لو تابها صاحب مكس لغفر الله له، وفى رواية لقد تاب توبة لو قسمت على أهل الأرض لكفتهم، والحادثه بتفاصيلها ذكرها البخارى وغيره من علماء الحديث، وكذلك الأمر بالنسبة لحادثة الغامدية وهى غير حادثة ماعز وكل ذلك يؤكد أن التوبة النصوح بها يغفر الله ذنب التائب ويبدل سيئاته حسنات كما قرر القرآن الكريم ولا يقال كيف ذلك وهناك فى القرآن الكريم مايبين أن تلك العقوبة فى الدنيا لاتعفى من عقوبة الآخرة كما جاء فى قوله تعالى [إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون فى

الأرض فساداً أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الأرض ذلك لهم خزى فى الدنيا ولهم فى الآخرة عذاب عظيم](١) .

لا يقال ذلك ، كما أنه لا يقال إن تلك الآية تتعارض مع آيات سورة الفرقان آنفة الذكر وما جاء على أسلوبها من آيات القرآن الكريم ؛ وقد أجاب علماء المسلمين رحمهم الله وغفر لنا ولهم - بما يوضح الموقف تماماً ؛ ومما ذكروه شرحاً لذلك صالحاً أنهم قالوا إن آيات سورة الفرقان ومنها «إلا من تاب وآمن وعمل عملا صالحاً فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات] إنما وردت فى شأن من تاب توبة صادقة أمثال الغامدية ، وماعز وتكون العقوبة التى على كل منهما فى الدنيا كفارات حتى يلقى الواحد منهما ربه وليس عليه شاهد بذنب لأن الله الرحمن الرحيم أنسى الحفظة ما كان يعمله التائب من ذنوب قبل توبته ودليهم فى ذلك الكتاب والسنة .

أما بالنسبة لآية المائدة التى بين أيدينا فإنها وردت فى شأن من ارتكب ما ارتكب وعـــوقب عليه فى الدنيا مرغما دون أن تكون لديه توبة صادقة ولو استطاع أن يفر من العقوبة لفر كما أنه حاول كثيراً التخلص من تنفيذ العقوبة فيه بشتى الوسائل وشخص شأنه كذلك تكون عقوبته فى الدنيا خزيا له ؛ لا كفارة ويضاف لذلك عقوبته فى الآخرة كما قال تعالى [ذلك لهم خزى فى الدنيا ولهم فى الآخره عذاب عظيم] وبذلك لا تعارض ولا تناقض بين تلك الآية وبين الآيات الأخرى مثل آية سورة الفرقان كما لا يخفى علينا أن تلك الآية وردت فى شأن قطاع الطريق الذين يعتمدون على قوتهم ويتعرضون للناس بالأذى ؛ تارة بانتزاع أموالهم بالقوة وتارة بقتلهم ، وأخرى بقتلهم مع أخذ ما معهم ورابعة بإخافتهم

---

(١) سورة المائدة ٣٣

المارين دون أخذ شيء منهم لحالا تهم مع الناس واحدة من أربع حالات وكان جزاؤهم أيضا كذلك لأن كل حالة يناسبها جزاء معين ومن هنا قرر العلماء أن قطاع الطريق يقتلوا إن قتلوا ، وتقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أن أخذوا المال ولم يقتلوا ، ويقتلوا ويصلبوا إن قتلوا وأخذوا المال ، وينفوا من الأرض إن أخافوا المارة دون أن يأخذوا منهم شيئاً .

وقد فرض الإسلام تلك العقوبة فى قطاع الطريق حفظا للاموال والأنفس والأعراض وعملا على استتباب الأمن فى المجتمعات البشرية ولذلك عندما طبقت تلك الأحكام تطبيقا عادلا وصادقا تحول مجتمع الصحراء إلى مجتمع عادل ما عرفت البشرية مثله منذ أن خلق الله السموات والأرض وإلى أن يرث الأرض ومن عليها .

ومن كل ما سبق يمكننا أن تقرر الحقائق الآتية .

عندما نصت الشريعة الإسلامية على أن الجزاء على العمل نوعان دنيوى وأخروى إنما هدفت بذلك إلى استقرار الأمور ، وتحقق الكف عن الأذى والبعد عن الوقوع فى الأخطاء والمحذورات ، والعمل على اعطاء كل ذى حق حقه ولو كان فى الإمكان أن يحصل الإنسان على ذلك الحق بالباطل دون أن يعاقبه أحد فى الدنيا وفوق كل ذلك مراقبة الله العليم الذى هو مع المرء أينما كان وعلى آية صورة وجد وفى كل ذلك ما فيه مما يجعله يفوق كل قوانين البشرية الوضعية وأنظمتها الاجتماعية المختلفة رغم ماينفق فى سبيلها من ملايين الدولارات والدليل على ذلك ملموس وواضح فعندما يقع المرء المسلم فى محذور تخونه عنده إرادته وتضعف عزيمته ويوسوس له الشيطان سرعان ما يعود إلى رشده وصوابه ويتذكر جرم ما ارتكب وأن نتائج ذلك فى الآخره لاتطاق وكل ذلك يدفعه إلى العوده السريعة لخالقه نادما مستغفراً طالبا العفو فى الدنيا قبل الآخرة وحادثه كل من ماعز والغامدية خير دليل وأكبر شاهد لما أقول .

وكل ذلك يسوق الأفراد والجماعات إلى أن يحسنوا أمورهم فى دنياهم كما يحاول اعطاء كل ذى حق حقه دون اعتداء على شىء مما يجعل المجتمع خير المجتمعات وحسنها أمنا وعدلا واستقراراً ورفاهة(١) .

الدعوة الإسلامية وضرورة تبليغها للناس :

قد عرفنا فيما سبق أن الدعوة الإسلامية عامة لكل البشر، شاملة لكل شئون الحياة الدينية والدنيوية معاً ، وأنها الدعوة الخاتمة لكل رسالات السماء ، كما قال الرسول ﷺ أنا العاقب فلا نبى بعدى ، وقد قرر القرآن ذلك فيما سبق أن ذكرته أيضا ، ومنه قوله تعالى (ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين) وقوله (اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام دينا) .

ومن هذا المنطلق تدرك أهمية الدعوة وضرورة استمرارها فى البشرية جمعاء ولا يتأتى ذلك إلا بحتمية تبليغها المستمر وذلك بإعداد الدعاة من العلماء الذين يتخصصون فى الدعوة الإسلامية : عقيدة، وعبادة، وسلوكا ومعاملات من وحى الكتاب والسنة .

وما تفرع عنهما . ثم يواصلون تبليغ الإسلام لكل من يجب أن يبلغهم على وجهه الصحيح بإبعاد وإزالة كل الشكوك والشبهات التى يثيرها أعداء الإسلام لتكون حجر عثرة فى طريق الناس فتحول بينهم وبين التأمل فيه أو محاولة الإيمان به وتبليغ الدعوة فيه ، ومنه ثمرتان :

(أ) ثمرة تعود على الناس أنفسهم وذلك لأن الداعية المسلم الذى يقوم

---

(١) راجع كتاب الإسلام عقيدة وشريعة للإمام الاكبر الشيخ محمود شلتوت ص ٢٨٧

بواجب التبليغ إنما يعمل على عرض الإسلام عرضا سليما واضحا قائما على كتاب الله عز وجل وسنة رسوله ﷺ وذلك يتم عن طريق وسائل التبليغ جميعا المكتوب منها والمسموع والمشاهد كما سيأتى تفصيل ذلك فى مكانه وبهذا يمكن للإنسان المفكر الواعى أن ينظر إلى الإسلام نظرة اهتمام مما يجعله يتأمل تعاليمه وأحكامه الأمر الذى يدفعه إلى اعتناقه بعد أن عرف حقيقته ، وبالاضافه لذلك فإن المسلمين أنفسهم فى حاجة ضرورية وملحة إلى عالم مسلم بشرح لهم الإسلام الذى آمنوا به ويحثهم على تنفيذ أحكامه والعمل بكل مايلزمهم العمل به .

(ب) الثمرة الثانية التى تتعلق بتبليغ الدعوة تتعلق بالدعوة نفسها وذلك لأن من طبيعة الدعوة الإسلامية الحركة والوصول إلى كل مكان به ناس ينبغى أن يدعوا إلى معرفة الله تعالى والإيمان به .

وقد اقتضت حكمة الله عز وجل أن يكلف الناس بالدين، ويأمر المؤمنين به أن يستمر ار فى الدعوة الى ذلك الدين لتذكير الناس الدائم به وترغيبهم فى الإقبال عليه والأخذ بتعاليمه وهذا الاستمرار فى الدعوة إلى الدين واجب خاصة فى ذلك الزمان الذى كثر فيه عدد المعارضين للإسلام المنفرين منه بخلق الافتراءات والأكاذيب ضده .

ولذلك يقول الإمام الاكبر الشيخ الخضر حسين رضى الله عنه «ولا تنس أن المضلين المخادعين فى هذا العصر قد تهيأ لهم من الوسائل فى الدعاية مالم يتهيأ لغيرهم . فمن نواد تفتح ، وصحف تنشر ، وجمعيات تعقد ، وأموال تنفق ، وجاه يبذل .

وهناك طائفة لم تفسق عن جحود وتمرد، وإنما أوتيت من قبل الجهل

وعدم صفاء البصيرة ، فوضعت بجانب حقائق الإسلام مايتبرأ منه الإسلام(١) .

وتلك الافتراءات التى يختلقها أعداء الإسلام ضده تجعل مهمة التبليغ ضرورية وتحتاج إلى الكثير من المتطلبات، كما تجعلها من أفضل الواجبات، وأعظم المساعى ورغم ماللدعوة : من أهمية وفائدة فإننا نجد الكثيرين من المفكرين والشعراء فى القديم والحديث ينكرون فضلها ، ويذهبون إلى القول بأنه لاجدوى ولا فائدة من القيام بها ، ويعللون لأفكارهم الخاطئة تلك بقولهم إن الناس جبلوا على صفات معينه ، اكتسبوها ونشأوا عليها من عوامل البيئة والوراثة، ولا أمل بل ولا قدرة على تغيير شىء من ذلك هكذا يقررون .

ومن هؤلاء فى القديم ، البراهمة الذين ذهبوا إلى القول بأن الشر طبيعة فى الوجود وأن الحياة رجس ونجس لايطهره إلا الانسلاخ من الحياة نفسها وذلك إما بعيشةالتجرد والزهد فى كل أعراضها، وإما بتقديم مزيد من التطهر نفسه قرباناً للنار حتى يصير هباء منثوراً لاظل له فى الوجود أيضاً من المتشائمين من فلاسفةالعرب أبو العلاء المعرى الذى أنكر أن يكون للوعظ أثر أو أية فائدة ترجى منه ، دفعه إلى ذلك القول طول مكثه واستمراره فى الناس مما نتج عنه أن اختبرهم فلم يحصل من وراء ذلك إلا على اليأس وخيبة الأمل لما رأى عليه الناس من تمسك بما ألفوا دون تخل عنه أو ترك شىء منه .

واستمع إليك وهو يقول :

وما قبلت نفسى من الخير لفظة وإن طال مافاهت به الخطباء

---

(١) راجع كتاب : الدعوة إلى الإصلاح : للشيخ محمد الخضر حسين .

وقوله :

بنى الدهر مهلا إن ذممت فعالكم فإنى بنفسى لامحالة أبدأ

وقوله :

إن مازت الناس أخلاق يعاش بها
فإنهم عند سوء الطبع أسواء

أو كان كل بنى حواء يشبهنى فبئسما ولدت فى الخلق حواء

والملاحظ على أبى العلاء المعرى أنه رغم نظرته التشاؤمية تلك التى يذهب بها إلى القول بعدم فائدة الوعظ ، وأنه لاخير يرتقب من ورائه ؛ رغم ذلك فإنه ما كان يترك الوعظ أبداً وإنما استمر منكباً عليه آخذاً بمجاله أكثر من أى شىء آخر يشغله والذى أوقعه فى التشاؤم بالنسبة للدعوة إلى الخير أنه كان قد وضع لنفسه مثلا أعلى وحاول الحصول عليه والوصول إليه ولكن بدون جدوى إذ باءت أعماله فى ذلك بالفشل والحرمان ومن هنا يئس من الحياة والأحياء وكان يتمنى الخروج من تلك الدار الدنيا فى أقرب لحظة ويتجلى ذلك فى قوله :

متى أنا للدار المريحة ظاعن فقد طال فى دار العناء مقامى

وقد ذقتها مابين شهد وعلقم وجربتها من صحة وسقام

ولتبرمه من الدنيا وماحوت : يقول :

هى المنتهى والمشتهى ومع السها أمانى منها دونهن العظائم

ولم تلقنا إلا وفينا تحاسد عليها وإلا فى الصدور سخائم

كذلك الحال الحال عند بعض فلاسفة العصر الحديث وربما نلتمس العذر للفلاسفة والمفكرين القدامى الذين لم يصلوا إلى ماوصل إليه

المفكرون المعاصرين فى العلوم الحديثة كعلم النفس والاجتماع والأخلاق. هذا بالإضافة إلى ماوصل إليه العلم الحاضر من تجارب وملاحظات جعلتهم يدركون التغيرات الدائمة والمستمرة التى تصاحب واقع الناس فى عاداتهم وسلوكهم .

ومن أولئك الفلاسفة المعاصرين :

١ — شوبنهور .
٢ — وكانت الألمانيان .
٣ — سبينوزا الهولندى .
٤ — ليفى برول الفرنسى .
٥ — هيوم الإنجليزى .

وإليك ماذهب إليه كل منهم فى عملية التربية والتوجيه وعدم جدواها فى تغيير النفس البشرية .

١ — يقول شوبنهور الفيلسوف الألمانى: يولد الناس أخياراً أو أشراراً كما يولد الحمل وديعاً، والنمر مفترساً وليس لعلم الأخلاق إلا أن يصف سيرة الناس وعوائدهم كما يصف التاريخ الطبيعى حياة الحيوان .

٢ — ويقول « كانت » الفيلسوف الألمانى أيضاً : إن الذى يشاهد موقف الإنسان فى ظرف معين ويعرف سوابق تصرفاته فى مثل هذا الموقف يستطيع أن يتنبأ سابقاً بماسيفعله فى مثل هذا الظرف المعين كما يتنبأ العالم الفلكى بكسوف الشمس وخسوف القمر فى ساعة محدودة .

٣ — وذهب الفيلسوف الهولندى « سبيوزا » إلى القول بأن أفعال الناس كغيرها من سائر الظواهر الطبيعية تحـــدث ويمكن استنتاجها

بالضرورة المنطقية الهندسية كما يستنتج من طبيعة المثلث أن زواياه الثلاث تساوى زاويتين قائمتين .

٤ — وأيضا نجد الفيلسوف الفرنسى « ليفى برول » يقرر أن ميولنا الحسنة أو القبيحة التى نجىء بها إلى هذا العالم عند ولادتنا هى طبيعتنا فكيف نكون مسئولين عن طبيعة هى ليست من عملنا ، أو على الأقل ليست من عملنا الشعورى الاختيارى .

٥ — أما الفيلسوف « هيوم الإنجليزى » فيقول : إن شعورنا بالمسئولية ليس إلا وهما خداعاً(١) .

تلك أقوال لبعض المفكرين فى القديم والحديث وإذا سلم المرء بما ذهبوا إليه وما قال به أصحابها لنتج عن ذلك نتائج سيئة للغاية تضر بالتربية أشد ضرر وتهدم مجال النصح والإرشاد شر هدم .

ونحن قبل التفصيل فى رد هذه الأقوال والحكم عليها بالبطلان لا بد أن نضع فى اعتبارنا الأول أن التغيير من العادات التى نشأ عليها الناس فى غاية الصعوبة وأنه يحتاج إلى حكمة وفطنة كما يتطلب علما وخبرة فائقة ولذلك نجد بعض المفكرين يقول : من السهل عليك أن تنقل جبلا من مكان إلى آخر ومن الصعب عليك جدا أن تحول امرءا من الناس من عادات وتقاليد ألفها إلى خلق وعادات لم يألفها كما قال أحد الشعراء « وتعي الطباع على الناقل »(٢).

---

(١) راجع كتاب : مبادىء علم الأخلاق ص ٦ وما بعدها للمرحوم الأستاذ الدكتور / محمد عبد الله دراز .

(٢) راجع كتاب موعظة المؤمنين للأستاذ البهى الخولى .

وربما نجد أن ذلك هو الذى دفع بشار بن برد الشاعر الإسلامى المعروف الذى عاصر العصر العباسى إلى أن يقول :

طبعت على ما فى غير مخـــير هواى ولو خيرت كنت المهذبا

أريد فلا أعطى وأعطى ولم أرد وقصر علمى أن أنال المغيبا

فأصرف عن قصدى وعلمى مقصر

وأمســى وما أعقبت إلا التعجبا

من ذلك نقرر أن العمل فى حقـل التربية والتوجيه ومحاولة الأخـذ بأيدى الناس وعقولهم من طريق الغواية والرذيلة إلى مجال الخلق والفضيلة عمل شاق ومهمة لا يقوم بواجبها إلا الرجال ولذلك أسندت للأنبياء والمرسلين الذين اصطفاهم الله من خلقه واصطنعهم سبحانه وتعالى لنفسه وصدق الله العظيم إذ يقول لخاتم الأنبياء المرسلين [إنا سنلقى عليك قولا ثقيلا] ونخلص من ذلك كلـه إلى القول بأن مهمة الداعية وقيامه بعملية بعملية التبليغ لها أثرها فى النفس البشرية ومجالها الفعال فى تهذيب العادات والأعراف وصرف الناس عن مجال الغواية والفساد إلى منهـــل النور والحكمة والتوجيه والفضيلة .

وتعال معى نتأمل واقع البشرية ونستقرىء صفحات التاريخ لنرى ماذا كان عليه الناس وماذا صاروا إليه .

إذا تناولنا حالة العرب قبل البعثة النبوية ثم حالتهم فى ظـل الإسلام وأجرينا مقارنة فى هذا المجال ماذا نجد .

إننا بدون شك نرى الفرق واضحا لا يخفى على أحد فالعرب فى جاهليتهم قبل الإسلام كانت الحياة بينهم للأقوى كما كانوا بجانب ذلك يسيرون على عادات ما كان يتصور المرء تحولهم عنها أبداً فضـلا عن العقيدة وتقليد

الآباء والسابقين فى ذلك وكلما دعوا على غير ما توارثوه عن الآباء والأجداد / ردوا فى تصعب أعمى وقسوة ووحشية قلما نجد نظيراً لها فى البشر / قائلين [إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون] .

وتمسكا بتقليد الآباء والأخذ بما كانوا عليه وجد النبى ﷺ صعوبة مضنية فى موقفه من المشركين وهو يدعوهم إلى الإيمان بالله الواحد وترك ما عليه الآباء كما كان الأمر كذلك وهو يعرض عليهم أخلاق الإسلام فيما يتعلق بصلة الفرد بغيره من الناس وعلاقته به ومعاملاته المختلفة إذا باع أو اشترى إلخ .

ويحضرنى فى ذلك المقام ما كان من إحدى نساء المسلمين السابقين من حوار دار بينها وبين زوجها وهما يتأهبان للهجرة إلى الحبشة . حيث ترك الرجل إمرأته تنتظرة حول منازل مكة حتى يصل إليها بعد إعداده مايطلب لسفرهما وبينما تلك المرأة تنتظر زوجها إذ بعمر بن الخطاب رضى الله عنه — وكان لم يزل على شركه — يمر من الطريق الذى تنتظر فيه المرأة زوجها فيسألها قائلا : إلى أين يا أم فلان ؟ فترد المرأة على عمر قائلة إلى الحبشة فقد آذيتمونا فى ديننا وعجبت المرأة عندما سمعت الجواب من عمر على غير ما كانت تتوقع فلما حضر زوجها وكان عمر قد انصرف قصت على زوجها ما حدث وقالت له فى حديثها أتصدق أن عمر مر من هنا وسألنى إلى أين فأجبته إلى الحبشة فرد على قائلا : صحبتكم السلامة فقال الزوج لامرأته : أتظنين أن ابن الخطاب يسلم والله . لو أسلم حمار الخطاب فلن يسلم عمر بن الخطاب .

انظر إلى أى حد وصل اعتقاد الناس فى عمر مما جعلهم يسلمون أن يسلم الحمار الذى يملكه والدعمر ، ويستبعدون . أن يتحول عمر مما كان عليه من أعراف الجاهلية وتقاليدها ويدخل فى دين الله الجديد الذى قام يبلغه محمد بن عبد الله للناس تنفيذاً لأمر ربه تعالى .

هذا وليس الموقف بالنسبة لعمر وحده وإنما هنالك العشرات والمئات والآلاف مثل عمر الذين عارضوا الإســلام وحاربوه ووقفوا فى طريقه بالمرصاد لكل من تسول له نفسه الدخول فى الإسلام وتنفيذ ما أمر به ثم سرعان ما تحول هؤلاء إلى الإسـلام فآمنوا به واتبعوا النـور الذى أنزل معه ، ولابد أن يكون الأمر كذلك ، لا بالنسبة للإسلام فقط وإنما بالنسبة لكل الرسل مع أممهم فالجميع قوبلوا بالمعارضة والإعراض ثم تحول الناس شيئا فشيئا حتى دخل الكثيرون منهم فى دين الله الذى كانوا يعرضون عنه ويصدون الناس عن الدخول فيه .

ولا يعترض بظاهر بعض النصوص التى ربما يوهم ظاهرها أن الناس فعلا خلقوا بطبائع ثابتة فمنهم الخير ومنهم الشرير بطبعه وخلقه .

ومن تلك النصوص قوله تعـالى [يسبح لله ما فى السموات وما فى الأرض له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير . هو الذى خلقكم فمنكم كافر ومنكم مؤمن والله بما تعملون](١) .

وقوله تعالى على لسان نوح أبى البشر [وقال نوح رب لا تذر على الأرض من الكافرين دياراً إنك إن تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجراً كفاراً](٢) .

قال الإمام الشوكانى عن معنى قوله تعالى [هو الذى خلقكم فمن كافر ومنكم مؤمن] : أى فبعضكم كافر وبعضكم مؤمن . قال الضحاك . فمنكم كافر فى السر والعلانيـة كالمنافقين ، ومنكم مؤمن فى السر كافر فى العلانية كعمار بن ياسر ونحوه . وقال عطاء فمنكم كافر بالله مؤمن بالكواكب، ومنكم مؤمن بالله كافر بالكواكب .

---

(١) سورة التغابن ١ ، ٢ (٢) سورة نوح ٢٦ ، ٢٧

وقال الزجاج إن الله تعالى خلق الكافر ؛ وكفره فعل له وكسب مع أن الله خالق الكفر — وخلق المؤمن ؛ وإيمانه فعل له وكسب مع أن الله خالق الإيمان — والكافر يكفر ويختار الكفر بعد خلق الله له إياه ، لأن الله تعالى قدر ذلك عليه وعلمه منه لأن وجـــود خلاف المقدر عجز ، ووجود خلاف المعلوم جهل .

قال القرطبي : وهذا أحسن الأقوال وهو الذى عليه جمهور الأمة(١).

وبناء على ما قرره المدققون من علماء التفسير يمكننا القول بأنه عن إرادة الله وعن قدرته صدر هذا الإنسان وهيء من حيث الخلق والتكوين إلى الاتجاه نحو الإيمان ، أو نحو الكفر فكان بهـذا الاستعداد المزدوج قد ميز على سائر المخلوقات ، وعلقت به أمانة الإيمان بحكم هذا الاستعداد وهى أمانة كبرى وتبعة خطيرة ، وقد ميز الله تعالى الإنسان وأودع فيه القدرة على التمييز كما أودعه القدرة على الإختيار ، وأمده مع ذلك بالميزان الذى يزن به عمله ويقيس به اتجاهه ولتحقيق كل ذلك بعث فى كل أمة رسولا ليعينه تعالى بهم وبالرسالات على حمل تلك الأمانة والقيام بها](٢) .

أما عن الآيتين من سورة نوح [وقال نوح رب لا تذر على الأرض من الكافرين دياراً إنك إن تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجراً كفاراً] .

---

(١) راجع تفسير فتح القدير الجامع بين فنى الرواية والدراية من علم التفسير المجلد الخامس ص ٢٣٥ .

(٢) راجع المجلد السادس من كتاب فى ظـلال القرآن ص ٣٥٨٥ للأستاذ / سيد قطب .

فقد وضح العلماء معناهما بما لا يدع مجالا للشك أو اللبس والخفاء إذ جاء قول العلماء من المفسرين متفقا مع ما قرره الجمهور ؛ قال قتادة : دعا نوح على قومه بعد أن أوحى إليه — أنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن — فأجاب الله دعوته وأغرقهم ... كما قال أيضا : لم يكن فيهم صبي وقت العذاب ، وقال الحسن وأبو العالية : لو أهلك الله أطفالهم معهم كان عذابا من الله لهم وعدلا فيهم ولكن أهلك ذريتهم وأطفالهم بغير عذاب ثم أهلكم بالعذاب ، وقال المفسرون أيضا فى قوله تعالى [إنك إن تذرهم يضلوا عبادك ، ولا يلدوا إلا فاجراً كفاراً] أى إن تتركهم على الأرض يضلوا عبادك عن طريق الحق ، [ولا يلدوا إلا فاجراً كفاراً] أى إلا فاجراً بترك طاعتك كفاراً : أى كثير الكفران ، والمعنى : لايلدوا إلا فاجراً أى إلا من سيفجر ويكفر .

فهم متفقون إذن على أن الفجر والكفر يحدث بعد النشأة وبلوغ مرحلة التمييز ، ولا بد أن يكون الأمر كذلك لأنه ما من مولود إلا ويولد على الفطرة ، ثم بعد ذلك يتحول عن الفطرة بعوامل البيئة والوراثة كما قال ﷺ : فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه وصدق الله العظيم إذ يقول [وهديناه النجدين] ويقول [ونفس وماسواها فألهمها فجورها وتقواها] .

وقد قال المفسرون فى توضيح « النجدين » النجد هو الطريق فى ارتفاع والمعنى بينا له طريق الخير وطريق الشر قال الزجاج المعنى ألم نعرفه طريق الخير وطريق الشر ، مبينتين كتبين الطريقين العاليتين .

وقد أخرج الطبرانى عن أبى أمامة أن النبى ﷺ قال : يا أيها الناس إنهما نجدان نجد خير ، ونجد شر ، فما جعل نجد الشر أحب إليكم من نجد الخير ، كما جاء مثل تلك الرواية ما أخبر به ابن مردويه عن أبى هريرة

رضى الله عنه كذلك الشأن بالنسبة لقوله تعالى : [ونفس وماسواها فألهمها فجورها وتقواها]، قال مجاهد فى معنى الآيتين عرفها طريق الفجور والتقوى والطاعة والمعصية، وقال الفراء فألهمها عرفها طريق الخير وطريق الشر وكما قال [وهديناه النجدين] .

وبناء على تلك النصوص القاطعة فالإنسان خلق ولديه الإستعداد لعمل الخير كما عنده الإستعداد لعمل الشر وتكون مهمة الدعوة والدعاة ترغيبه فى جانب الخير وحثه على الأخذ به والسير عليه ، وتنفيره من الشر وتحذيره من التلوث به وتلك وظيفة الرسل ومن يخلفونهم فى تلك المهمه والقيام بها من العلماء الذين كلفهم الله أن يتفقهوا فى الدين وينذروا قومهم .

والنتيجة إذن أن القيام بتبليغ الدعوة والعمل على نشرها بين الناس توضيح أحكامها شىء ضرورى لابد من الأخذ به وفى الوقت نفسه توجد ثمرة طيبة ونتيجة حسنة فى ذلك المجال وقد تحقق على أيدى الرسل والأنبياء الكثير من الخير نتيجة لذلك كما كان الأمر كذلك مع من يخلفون الأنبياء فى القيام بتلك المهمة السامية وهذه الرسالة التى هى أحسن ما يقوم به المرء من عمل فى تلك الحياة وصدق الله العظيم إذ يقول : [ومن أحسن قولا ممن دعا إلى الله وعمل صالحاً وقال إننى من المسلمين] .

وقد يقول قائل : لماذا كل ذلك وقد أعفانا الله من مسئولية الناس كما جاء فى قوله تعالى : [يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم ، لا يضركم من ضل إذا أهديتم إلى الله مرجعكم فينبئكم بما كنتم تعملون](١) وقوله تعالى : [ألا تزر وازرة وزر أخرى](٢) .

---

(١) سورة المائدة /١٠٥
(٢) سورة النجم /٣٨

وتلك شبهة أثيرت فى الصدر الأول للإسلام وجاء الرد عليها قاطعاً جازماً بحيث لا يوجد مجال بعد ذلك لأى مغالط فى هذا المقام .

روى الإمام أحمد بن حنبل والترمذى ، وأبو يعلى وغيرهم من حيث قيس ابن حازم قال . قام أبو بكر الصديق رضى الله عنه خطيباً فى الناس فحمد الله تعالى واثنى عليه ثم قال : أيها الناس إنكم تقرءون تلك الآية [يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا أهتديتم وإنكم تضعونها على غير موضعها ، وإنى سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إذا رأى الناس المنكر فلم يغيروه أوشك أن يعمهم الله بعذاب] .

وبهذه الكلمات الموجزة صحح الخليفة الأول رضى الله عنه لبعض الناس أفهامهم فى زمانه رضى الله عنهم جميعاً ونحن الآن أحوج إلى ذلك التصحيح لأن القيام بواجب الدعوة وتبليغها صار من أثقل التبعات عند نفوس الكثيرين من المسلمين حتى عند العلماء منهم ولذلك لجأ الكثيرون من الناس إلى تأويل الآية على نحو يرضى أهواءهم ويعفيهم من تبعة الجهاد فى تبليغ الدعوة ورد ما أثير حولها من شبهات وشكوك مما دفعهم إلى تأويل الآية أيضاً على وجـــه يخالف وجهها الصحيح الذى ركز عليه الخليفة الأول أبو بكر الصديق رضى الله عنـــه مما يتعرض له الدعاة من أذى واستهانه فى الأوساط التى يعيشون فيها وإن ذلك تخطيط متعمد فى مقابلة الدعاة إلى الإسلام بوسائل الإستخفاف والإستهانة حتى يمكن صرف الكثيرين من علماء المسلمين عن هذا المجال وبذلك يخلو الجو لأعداء الدعوة الإسلامية فى بث سمومهم ونشر الشكوك والشبهات حسب ما يحلو لهم ولم يكن ذلك وليد العصر الحاضر ولا الحياة المعاصره ولكنها سنة قديمة وطريقة ماكرة توارثها الناس جيلا بعد جيل وقد الله علينا طرفا منها واستمع إلى القرآن منها واستمع إلى القرآن الكريم وهو يقرر ماجاء على لسان قوم نوح لنوح عليه السلام قال تعالى : [ولقد أرسلنا نوحاً إلى

قومه إنى لكم نذير مبين أن لا تعبدوا إلا الله إنى أخاف عليكم عذاب يوم أليم فقال الملأ الذين كفروا من قومه مانراك إلا بشراً مثلنا وما نراك أتبعك إلا الذين هم أراذلنا بادى الرأى وما نرى لكم علينا من فضل بل تظنكم كاذبين](١) .

وقوله . [ويصنع الفلك وكلما مر عليه ملأ من قومه سخروا منه قال إن تسخروا منا فإنا نسخر منكم كما تسخرون](٢) .

وقوله عن المؤمنين بصفة عامة وموقف الكافرين منهم [إن الذين أجرموا كانوا من الذين أمنوا يضحكون وإذا مروا بهم يتغامزون ، وإذا أنقلبوا إلى أهلهم أنقلبوا فكهين](٣) .

وتتويجاً لتلك المسألة الهامة أسوق بعض ما ورد عن النبى ﷺ من أحاديث فيها وعيد ظاهر لمن يتخاذل فى مجال الدعوة إلى الله تعالى ويرى أمامه المنكر دون أن ينهى عنه كما يشاهد مجال المعروف فلا يأمر به روى عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال : إن أول مادخل النقص على بنى إسرائيل أنه كان الرجل يلقى الرجل فيقول له ياهذا أتق الله ودع ما تصنع فإنه لا يحل لك ، ثم يلقاه من الغد وهو على حاله فلا يمنعه ذلك أن يكون أكله وشربه وتعيده فلما فعلوا ذلك ضرب الله على قلوب بعضهم ببعض ثم قال : لعن الذين كفروا من بنى إسرائيل على لسان داود وعيسى بن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون كانوا لايتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون، ترى كثيراً منهم يتولون الذين كفروا لبئس ماقدمت لهم أنفسهم أن سخط الله عليهم وفى العذاب هم خالدين ، ولو كانوا

(١) سورة هود / ٢٥ — ٢٧
(٢) سورة هود / ٣٧
(٣) سورة المطففون /٢٩ — ٣٢

يؤمنون بالله والنبى وما أنزل إليه وما اتخذوهم أولياء ولكن كثيراً منهم فاسقون](١) .

ثم قال ﷺ: والله لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر ثم لتأخذن على الظالم ولتأطرنه على الحق أطراً أى ولتقصرنه على الحق قصراً أو ليضرب الله قلوب بعضكم ببعض ثم يلعنكم كما لعنهم .

هذا بالنسبة لمن سبقها وما أصابهم من لعنة ووعيد جزاء تفريطهم فى مجال الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر .

كما جاء بالنسبة لتلك الأمة الخاتمة لما سبقها من كافة الأمم والتى شرفها الله بأمانة الدعوة الخاتمة والباقية فى البشرية إلى قيــــام الساعة مارواه أبو حذيفة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : [والذى نفسى بيده لتأمرون بالمعروف ولتنهون عن المنكر أو ليوشكن الله أن يبعث عليكم عقاباً منه ثم تدعونه فلا يستجاب لكم](٢) .

ومن كل سابق ذكره نستطيع أن نرفض كل تلك الآراء السامة والمفرضه التى تقلل من شأن الدعوة إلى الله تعالى وتغالط فى القول بأنه لافائدة ولا ثمرة من القيام بهذه المهمة وأن الناس جبلوا إما أشراراً أو أخياراً ، وذلك لأن الواقع يكذب آراءهم تلك حتى فى عالم الحيوانات العجماوات إذ نشاهد طباع البهائم والسباع التى يروضها أصحابها على التهذيب والتربية تختلف عن الحيوانات والسباع التى تظل فى الغابات فى الجبال والأحراش وقد صدق الفيلسوف المسلم ابن مسكويه عندما قسم الفطرة إلى قابله للخير والشر وجعلها القاعدة ونبه إلى أن الطباع المستعصية على التغيير طباع شاذة خارجة عن تلك القاعدة لا يقاس عليها ولا يحتج بها(٣) .

---

(١) المائدة / ٧٨ — ٨١ (٢) رواه الترمذى .

(٣) راجع فى ذلك كتاب الدعوة إلى الإسلام للإستاذ الدكتور / أبو بكر زكرى وهواية المرشدين للشيخ على محفوظ ، كتاب مع الله للشيخ محمد الغزالى .

تتمة :

قد يغالط بعض الناس ويقول سادام الله سبحانه وتعالى قد خلق الإنسان وأمده بالعقل وعلمه البيان ألا يكفى ذلك فى الاستفادة من هدى السماء ويمكن الاستغناء به عن الرسل والرسالات ومن يقومون بعد ذلك بمواصلة مهمة التبليغ لما أثر عن الأنبياء؟

لايقال ذلك ؛ وإن قيل لا نسلم به لأسباب كثيرة منها : أن العقول وحدها مهما بلغت من الزكاء والحكمة فلن تستطيع الإحاطة بكل مصالح الدنيا فضلا عن قضايا الدين وشئون الآخرة ؛ كما أنها لا تستطيع الإجماع على ما هو خير وما هو شر لتفاوت العقول والنزوات كما لا تميز بين ما هو المعروف وماهو المنكر ولعدم إجماع العقول على شيء ما من تلقاء أنفسها أمام الأبحاث المجردة من هدى السماء وقيم الرسالات السماوية الصحيحة .

ومن هنا كانت الأبحاث العلمية المجردة دائماً رهن التجارب والملاحظات مما جعلها دائمه التغير فى الحكم عليها . وكم رأينا قضايا علمية قرر علماؤها الأحكام النهائية بالنسبة لها ثم سرعان ماينقض ذلك الحكم ويأتى حكم آخر جديد يناقض الحكم السابق على نفس القضية العلمية لما ظهر وجد فى العلم نتيجة للبحث القائم على الملاحظات والتجارب ومن هنا ندرك سر القاعدة التى تقول [العلم لايعرف الكلمة الأخيرة] .

هذا بالإضافة إلى أن العقول البشرية ، وإن سلمنا جدلا بأنها تدرك الخير من الشر وتميز بينهما فإن الشهوات التى ركبت فى الإنسان والغرائز المختلفة التى وجدت به من داخل النفس وخارجها مثل الغضب والأنانية والحقد وشهوة البطن والفرج وغيره سرعان مايصرف الإنسان ويحوله عن الالتزام بما اهتدى إليه عن طريق العقل المجرد ويوقعه فيما يناقض ذلك جرياً وراء الغرائز والشهوات واستسلاماً لها .

ثم لو سلمنا مرة ثانية جدلا أن الإنسان يمكنه أن يسيطر بالعقل على الشهوات ويحول بينها وبين الأخذ بما هو ضار ، فهل نستطيع أن نسلم بأنه يستطيع أن ينجو من تيار الخلاف والنزاع مع اختلاف المدارك والمشاعر لدى الناس جميعاً كما قال جل شأنه [ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم ... الآية](١) .

ولذلك نرى الناس نتيجة لهذا الاختلاف فى الإدراك والمشارب قلما يتفقون على رأى موحد ؛ فنرى هذا الرجل يستحسن ما يستقبحه غيره والعكس ؛ كما نرى الشخص يستقبح اليوم ما كان يستحسنه بالأمس وهكذا .

وإذا سلمنا أخيراً أن العقول أجمعت على شىء واتفقت على تنفيذه وحصل ذلك تمشياً مع جانب الخير فإن ذلك الذى قررته العقول واتفقت عليه لا يجد الاحترام والتقدير إلا عند الأشخاص الذين هم أصحاب ذلك الفكر ؛ أما من حملوا على الأخذ به دون أن يكونوا فى قرارة أنفسهم مقتنعين بجدواه وصحته فإنهم عندما تتاح لهم الفرصة للتخلص منه سرعان مايلقون به وراء أظهرهم دون أن يتقيدوا به أو يولوه أدنى عناية وانتباه .

وذلك كله يؤكد لنا أن القوانين التى تضعها عقول البشر ليس لها إلا سلطان المنع من الإعلان بالمخالفة دون أن تكون مانعة من الوقوع فى المخالفة نفسها .

ثم بعد ذلك : لماذا تلك المعركة المفتعلة بين العقل والدين بين الإنسان وخالقه سبحانه ألم يكن الله الذى وضع الدين وشرعه للعباد هو هو الله الواحد الذى خلق الإنسان وصوره فى أحسن صورة ومنحه العقل وكل المواهب التى بها يشق طريقه فى الحياة ويصل إلى مايصل إليه فى العلم

---

(١) سورة هود/١١٨ ، ١١٩

والانتاج كما سخر له هذا الكون لكل ما فيه من أرضه وسمائه وما يوجد بكل منها مما ظهر على الأرض أو خفى فى باطنها ؟

وإذا كنا جميعا نسلم بأن الله خالق الإنسان هو الذى شرع لعباده الدين وأرسل إليهم الرسل بمقتضى حكمته ومشيئه ووضع التعاليم التى شرعها فيما يتعلق بأمور الدنيا وشئون الآخرة ، فإنه تسليماً بذلك نقول: لا يمكن بأى صورة من الصور أن يستغنى الإنسان بعقله عن شرع الله وهدى السماء ما دام الإنسان مخلوقا لله سبحانه وتعالى وما دام الدين صادراً منه جل وعلا ومن هنا نجد القرآن يقرر وفى وضوح كامل أن من يقف عند الماديات ويأخذ بالعلم النظرى المجرد دون أن يهتدى بعلم الله الذى بينه لخلقه على ألسنة رسله وفى صفحات كتبه التى أنزلها سبحانه للعباد . نجد القرآن الكريم يحكم على هؤلاء الناس بأنهم لا يعلمون شيئا أى سلب عنهم العلم لوقوفهم عند ظاهر الحياه الدنيا مع غفلتهم عن الآخره وما يطلب لها .

ولذلك نجد قوله تعالى (وعد الله لا يخلف الله وعده ولكن أكثر الناس لا يعلمون . يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون)(١) .

يقول المفسرون، إن هؤلاء القوم من الناس الذين قال الله عنهم (يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا) هذا هو حدهم من العلم الظاهر ، يقفون عنده ثم لا يتجاوزونه ولا يرون ببصيرتهم ما وراءه ،والمعلوم كما بلغ رسل الله أجمعين، أن ظاهر الحياة الدنيا محدود صغير ، مهما بدا للناس واسعا شاملا، يستغرق جهودهم بعضه دون أن يستقصوه فى حياتهم المحدودة ، والحياة كلها طرف صغير من هذا الوجود الهائل ، الذى تحكمه نواميس وسنن محكمة متقنة .

ومن لم يتصل قلبه بحقيقة هذا الوجود ، ولا يتعرف حسه على تلك

---

(١) سورة الروم / ٦ ، ٧

النواميس والسنن التى تصرفه، يظل ينظر ظاهراً وكأنه لا يرى ، ويبصر تلك الحركة الحسية الدائرة ، ولكنه لا يدرى الحكمة التى وراء ذلك ، وأكثر الناس هم كذلك لأن الإيمان بالله الحق هو دون غيره الذى يصل ذلك الظاهر للحياة ، بأسرار الوجود وهو وحده الذى يمنح العلم روحه المدرك لأسرار الوجود ، والمؤمنون هذا الإيمان هم قلة نادرة بالنسبة لمن يعيشون فى هذا الوجود ومن هناك تظل الأكثرية محجوبة عن المعرفة الحقيقية وقد جاء عنهم قوله تعالى (وهم عن الآخرة هم غافلون) فالآخرة حلقة فى تلك السلسلة للنشأة الأولى ، كما أنها صفحه من كتاب الوجود كله وكتاب الوجود كبير ضخم كله أسرار وحكم ومن لا يدركون حكمة النشأة ، ولا يعون ناموس الوجود يغفلون عن الآخرة ، دون أن يقدروها حق قدرها ، ويحسبوا حسابها والغفلة عن الآخرة . يختل بسائر المقاييس عند الغافلين ؛ وتهز فى أيديهم ميزان الحق والقيم ؛ ومن هنا لا يقدرون على تصور الحياة وأحداثها وقيمها تصوراً صحيحاً وينتج عن ذلك أن يظل علمهم بالحياة ظاهراً سطحياً ناقصاً ، لأن حساب الآخره فى ضمير الإنسان يغير نظرته لكل ما يحدث فى تلك الأرض ، فحياته على الأرض ما هى إلا مرحلة قصيرة من مرحلته الطويلة فى الكون ، ونصيبه فى تلك الأرض إن هو الا قدر زهيد من نصيبه الضخم فى الوجود وكل ما يتم فى الأرض من أحداث وأحوال إن هى إلا قدر ضئيل من ذلك كله ولا يصح كما لا يقبل أن يبنى المرء حكمه على مرحلة قصيرة من تلك الرحلة الطويلة .

ولذلك جاء الاختلاف فى النظرتين للحياة ، نظرة المؤمن الصادق ؛ ونظرة المدرك لظاهر الحياة الدنيا ، الغافل عن الحياة الآخرة ، لأن لكل منهما ميزانه الذى يزن به ، فالغافل عن الآخره يرى ظاهراً من الحياة الدنيا والمؤمن بالآخرة مع الأولى يدرك ماوراء ذلك الظاهر من روابط وسنن ، ونواميس تشمل الظاهر ، ومايتبعه ، من الدنيا والآخرة ، والموت والحياة ،

والماضى والحاضر وعالم الناس ، والعالم الأكبر الذى يشمل الأحياء وغيرهم وذلك هو ما يعمل الإسلام أن ينقل البشرية إليه، ويرفعها فيه إلى المكان الكريم اللائق بمن استخلفه الله فى الأرض ومن أجل ذلك كله ، دعا الله تعالى الناس جميعا من يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا ويغفلون عن الآخرة ومن يؤمنون الإيمان الحق دعا الجميع أن يتأملوا ويتفكروا فى أنفسهم ، وفى شأن السموات والأرض ليدركوا الحق الذى قام عليه خلق الإنسان وخلق السموات والأرض بكل ما فيهما وما عليهما كما يقرر قوله تعالى (أولم يتفكروا فى أنفسهم ما خلق الله السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق وأجل مسمى وإن كثيراً من الناس بلقاء ربهم لكافرون) .

ولذلك نجد المفسرين يقررون أن من يعلم ظاهرا من الحياة الدنيا ويغفل عن الآخرة فهو فى حكم من لم يعلم شيئا كما أشارت الآيات الكريمة من سورة الروم إذ جاء قوله تعالى (يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا) فى الآية الثالثة بدلا من قوله تعالى (لا يعلمون) فى الآية قبلها وما فى الآية السابقه نفى للعلم كذلك لأن البدل يأخذ حكم المبدل منه[1] .

---

(١) راجع كتب التفسير ، الفخر الرازى والالوسى فى أول سورة الروم وخاصة كتابى محاضرات فى (آيات من الكتاب والسنه) لقسم الدراسات العليا شعبة الدعوه لكلية اصول الدين للمرحوم الدكتور/ المسير ، والمجلد الخاص من كتاب الظلال ص ٢٧٥٩ طبعة دار الشروق للشيخ سيد قطب ، من توجيهات الإسلام ص ١٧ وما بعدها للسيخ شلتون .

نظرات فى الدين والحياة :

(١) تثار قضية حول الدين ونشأته ؛ ورغم وضوح الأدلة وقوة الحجة عند من يقررون من العلماء أن الدين وجد بوجود آدم فى الأرض؛ فإن هناك من خالف هذا وقال إن الدين لم يكن كذلك وإنما هو حديث عهد بالناس .

ومن الناس الذين ذهبوا ذلك المذهب أصحاب المذهب السوفسطائى من اليونانيين . وأيضا من أشعلوا نار الثورة الفرنسية أمثال فولتيير وظل ذلك القول لدى القائلين به حتى أواخر القرن الثامن عشر الميلادى ثم كثرت رحلات الرحالة إلى العديد من البلاد والقارات وفى تلك الرحلات؛ تأمل الرحالة العادات والتقاليد التى كان عليها أهـــل تلك البلاد وبالطبع حدث نقاش وحوار بين الرحالة وبين أهل تلك البلاد التى رحلوا إليها عما أسفر عن الوقوف على حقائق جعلت هؤلاء الرحالة يدركون أن الدين لم يكن حديث عهد بالبشرية ، وإنما هو ملازم للإنسان منذ القدم بحيث إنه لم تخل أمة من الأمم من وجود الدين فيها والمتدينين بها ونحن كمسلمين نؤمن بما تقرر فى الإسلام وجاء فى أصول أحكامه مما ثبت فى الكتاب والسنة النبوية الصحيحة ، فسواء صح عند أولئك الناس عن طريق الرحلات أو غيرها أن الدين موجود بوجود الإنسان ؛ أم لم يصح عندهم ذلك فإننا نؤمن أنه منذ أن هبط آدم إلى الأرض فالدين موجود فيه وفى ذريته وقد قرر القرآن الكريم ذلك ؛ كما أيد الواقع فى حياة آدم وذريته تلك الحقيقة يقول الله عز وجل ، [قلنا اهبطوا منها جميعا فإما يأتينكم منى هدى فمن تبع هداى فلا خوف عليهم ولاهم يحزنون](١).

---

(١) سورة البقرة/٣٧ .

ويقول جل وعلا [فوسوف إليه الشيطان قال يا آدم هل أدلك على شجرة الخلد وملك لايبلى فأكلا منها فبدت لهما سوءاتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة وعصى آدم ربه فغوى ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى قال اهبطا منها جميعا بعضكم لبعض عدو فإما يأتينكم منى هدى فمن اتبع هداى فلا يضل ولا يشقى](٢) .

ذكر الإمام الرازى آراء عدة حول معانى تلك الآيات القرآنية أسوق بعضا منها مما يؤيد ما ذهبت إليه وهو وجود الدين فى البشرية منذ وجد آدم أبو البشر عليه السلام قال الإمام الرازى :

المسأله الثالثة : فى (الهدى) وجوه أحدها المراد به كل دلالة وبيان فيدخل فيه دليل العقل وكل كلام تنزل على نبى ؛ وفيه تنبيه على عظم نعمة الله تعالى على آدم وحواء فكأنه قال وإن أهبطتكم من الجنة إلى الأرض فقد أنعمت عليكم بما يؤدى بكم مرة أخرى إلى الجنة مع الدوام الذى لاينقطع قال الحسن : لما أهبط آدم عليه السلام إلى الأرض أوحى الله تعالى إليه ، يا آدم أربع خصال فيها كل الأمر لك ولولدك . واحدة لى وواحدة لك وواحدة بينى وبينك وواحدة بينك وبين الناس .

أما التى لى فتعبدنى لا تشرك بى شيئا ، وأما التى لك فإذا عملت نلت أمرك ، وأما التى بينى وبينك فعليك الدعاء وعلى الإجابة ، وأما التى بينك وبين الناس فأن تصحبهم بما تحب أن يصحبوك به .

وثانيا : ما روى عن أبى العالية أن المراد من الهدى الأنبياء وهذا إنما يتم لو كان المخاطب بقوله (فإما يأتينكم منى هدى) غير آدم وهم ذريته

---

(١) سورة طه ١٢٠ — ١٢٣ .

وبالجملة فهذا التأويل يوجب تخصيص المخاطبين بذرية آدم وتخصيص الهدى بنوع معين من غير دليل دل على هذا التخصيص .

تعليق : من هذا الذى ذكره الإمام الرازى نرى أن فى الوجه الأول منه / ودائما يذكر الوجه الأول على أنه أرجح الأوجه والأولى فى جعله فى الاعتبار .

يقول فى ذلك الوجه الأول : المراد منه أى الهدى كل دلالة وبيان فيدخل فيه دليل العقل وكل كلام ينزل على نبى الخ ، وهذا يشير إلى وحى ينزل من عنده تعالى على نبى ومن المرجح عند العلماء أن آدم نبى فى ذريته وهو أول الأنبياء وإن كان قد ورد خلاف فى كونه رسولا أما نبوته فالقول بها هو الراجح لدى العلماء ورجح ذلك فى كلام الرازى أيضا ما ذكره عن الإمام الحسن .

وذكر الإمام الشوكانى فى تفسيره أن آدم نبى فى ذريته وساق فى ذلك عدداً من الأحاديث النبوية التى تؤيد ذلك وتقويه منها .

١ — ما أخرجه أبو الشيخ وابن مردويه عن أبى ذر رضى الله عنه قال : يا رسول الله أرأيت آدم نبيا كان ؟ قال نعم كان نبيا رسولا كلمة الله قال له : يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة .

٢ — وأخرج ابن أبى شيبة والطبرانى عن أبى ذر قال : قلت يارسول الله من أول الأنبياء ؟ قال : آدم . قلت : نبى ؟ قال : نعم . قلت : ثم من ؟ قال نوح وبينهما عشرة آباء .

٣ — أخرج البخارى وأحمد فى تاريخه والبيهقى فى الشعب نحوه من حديث أبى ذر مرفوعاً وزاد كم كان المرسلون ؟ قال ثلثمائة وخمسة عشر جما غفيراً .

٤ — وأخرج ابن أبي حاتم وابن حبان والطبراني والحاكم وصححه والبيهقي عن أبي أمامة الباهلي أن رجلا قال : يا رسول الله أنبي كان آدم ؟ قال : نعم . قال كم بينه وبين نوح ؟ قال : عشرة قرون . قال : كم بين نوح وإبراهيم ؟ قال : عشرة قرون قال : يا رسول الله كم الأنبياء قال مائة ألف وأربعة وعشرون ألفا ١٢٤٠٠٠ قال كم كانت الرسل من ذلك ؟ قال : ثلثمائة وخمسة عشر . جما غفيراً .

والإمام الشوكاني يؤكد بذكر تلك الأحاديث نبوة آدم أبي البشر في ذريته ومعروف أنه قد علم أبناءه وبلغهم عن ربه سبحانه وتعالى ما أوحى الله إليه به من تعاليم(١).

وبالإضافة لذلك إذا تتبعنا ماقص علينا القرآن الكريم مما كان يحدث بين ذرية آدم يتأكد لنا أن فيهم ديناً وأنهم عرفوا شرع الله من تعليم أبيهم لهم، تعال معي واستمع لقوله تعالى [واتل عليهم نبأ ابني آدم بالحق إذ قربا قربانا فتقبل من أحدهما ولم يتقبل من الآخر قال لأقتلنك قال إنما يتقبل الله من المتقين . لئن بسطت إلى يدك لتقتلني ما أنا بباسط يدي إليك لأقتلك إني أخاف الله رب العالمين . إني أريد أن تبوء بإثمي وإثمك فتكون من أصحاب النار وذلك جزاء الظالمين فطوعت له نفسه قتل أخيه فقتله فأصبح من الخاسرين](٢) .

والآيات كما هو واضح فيها تبين أن قابيل وهو الأخ المعتدى هدد أخاه

---

(١) راجع المجلد الأول من كتاب فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير ص٦٨ وما بعدها . وكتاب تفسير الفخر الرازي المشتهر بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب المجلد الثاني ص ٢٨ ، ٢٩ .

(٢) سورة المائدة ٢٧ — ٣٠ .

هابيل وهو المعتدى عليه بالقتل فجاء الرد من المعتدى عليه والمهدد بإراقة دمه مشيراً إلى إيمانه وتقواه وكفه عن الحرام وتطلع إلى مرضاة الله تعالى وخوفه من العقاب وكل ذلك يدل على أنه يعرف الله جيداً ويعرف الجزاء على الحسنات وعمل الخير كما يعرف العقوبة على السيئات وارتكاب المحذور وهذا يسوق إلى الاعتراف بأن آدم عليه السلام أتاه الهدى من الله تعالى فساقه إلى أبنائه وحببهم بمقتضاه فى عمل الخيرات والبعد عن المحرمات وعن كل شر يغضب الله تعالى كما حدثهم على الإيمان بالله واليوم الآخر والجنة والنار إلى آخر ما يلزم الإيمان به وهذا يؤكد ما نريد إثباته وهو وجود الدين فى آدم وذريته مما ينفى الرأى القائل إن الدين حديث عهد بالبشرية ويثبت أن الهداية الإلهية بالنسبة للبشر كل البشر تتابعت من الحق سبحانه وتعالى على آدم وذريته منذ أن هبط إلى الأرض حتى يمكن أن يقوموا بواجب الاستخلاف فى الأرض وبذلك استمر الوحى السماوى والهدى الإلهى مع الإنسان فى كل مرحلة من مراحله دون أن ينقطع عن أمة من الأمم كما قال جل شأنه [إنا أرسلناك بالحق بشيراً ونذيراً وإن من أمة إلا خلا فيها نذير](١) .

ومع ذلك التتابع فى بعثة الأنبياء فإن هناك من البشر من أعرض ولم يستجب ولذلك نجد الآية الكريمة من سورة فاطر السابق ذكرها على الآية آنفة الذكر يقرر الله سبحانه أن هناك من الأحياء من البشر من هم فى حكم الأموات لا يسمعون ولا يعتبرون وصدق الله إذ يقول [إن الله يسمع من يشاء وما أنت بمسمع من فى القبور](٢) .

---

(١) سورة فاطر ٢٤، راجع كتاب الدين للدكتور / محمد عبد الله دراز ص ٨٠ وما بعدها .

(٢) سورة فاطر ٢٢ .

فهداية البشر من الله تعالى ومهمة الرسل جميعا التبليغ الذى يتناول الإنذار والتبشير ومن علم الله منه الهداية هيأها له ومن علم منه الضلالة تركه لهواه ؛ وإذا كانت الأمم فى الماضى فى حاجة ملحة إلى الوحى السماوى الذى أدركها الله تعالى به بحكمته ورحمته ؛ فإن حاجة البشرية جمعاء فى عصرنا ذلك وفيما يليه من عصور أكثر حاجة وأشد ضرورة وأعظم طلبا لتعاليم الله سبحانه وتعالى ، ودليلنا على ذلك الواقع المشاهد فى حياة الناس فى كل الأمم والشعوب ، فإنها رغم ما وصلت إليه من تقدم علمى ملموس حلقت به فى عالم المادة مما يسر لها غزو الفضاء وتسخير الكثير مما على سطح الأرض وفى باطنها لم يعش أفرادها فى سعادة كما لا تستمتع المجتمعات بالاستقرار ولا تنعم بالأمن والحروب الطاحنة القائمة بين الكثير من المجتمعات والشعوب الآن أكبر شاهد ودليل على ذلك .

ولم يكن ذلك فحسب وإنما يضاف إليه هذا المسخ والإنقلاب فى القيم والمعايير مما أدى إلى قلب كيان الأسر والمجتمعات فلم يعد هناك رباط فى الأسر يحفظ عليها قيمها ويوضح لكل فرد فى الأسره ماله وما عليه نحو بقية الأفراد مما جعل الرباط الأسرى مهلهلا والتعاون الاجتماعى نادراً ولا غرابة بعد كل ذلك أن نشاهد ذلك الواقع المر فى حياة البشرية جمعاء الأمر الذى جعل البشرية كلها على حافة الهاوية مادامت بعيدة عن هدى السماء، ومادامت محرومة من هذا النور الإلهى فى الرسالة الخاتمة والرسول الخاتم ﷺ وكيف لايكون الأمر كذلك وقد حرمت البشرية فى معظم واقعها من الرحمة المهداة للخلائق كل الخلائق كما قال جل شأنه [وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين] وكما يصف هو ﷺ نفسه تحدثاً بنعم الله عليه فيقول [إنما أنا رحمة مهداة] .

وإنه لما يضاعف من آلام الناس ويقوى مجال التهديد فيهم هذا الجفاف

الروحى الذى كان نتيجة حتمية لانقطاع الصلة بين البشر وخالقهم مما أوقعهم فى المخالفة بالخروج عن تعاليمه التى أوجب عليهم مراعاتها والقيام بواجبها ومن ذلك كله شاع فى الناس الجشع وحب الذات كما فشت الأثرة عند من يملكون القوة المادية التى يهددون الناس بها حتى فى لقمة العيش إن لم يستجيبوا لمادياتهم المظلمة ولو كان ذلك على حساب الدين والبعد عن الله رب العالمين .

ومن غير شك فإن كل ذلك نذير شؤم على البشرية كل البشرية دون استثناء . وكل هذا يؤدى بنا إلى القول بأن كل ماوصل إليه الناس من ماديات وما سيصلون إليه فى المستقبل من تقدم مادى فى كل الميادين لايبعث على التفاؤل ولا يبشر بالطمأنينة إن لم يلازمه حسن الصلة بالله وحقيقة الإيمان به جل وعلا والانقياد له فيما فرض على العباد مع عظيم المراقبة وشدة الخوف منه جل جلاله .

ولا نستغرب بعد ذلك أن نرى فى حياة الناس من يذهبون فى ظل العقل وباسم الحرية الدينية والتفكير المطلق من يعدون الإلحاد تفكيرا حسنا ، والربا قاعدة اقتصادية صالحة ونظاما عادلا مفيداً والزنا عملا مقبولا وتصرفا عاديا وسيادة جنس ما على جنس آخر تقبله الطبيعة وتوافق عليه .... إلى آخر مايسود فى الناس وتوضع القوانين لحمايته والدفاع عنه ، ومعاقبة من يخرجون عليه(١) .

ومعنى قولى إن البشر كل البشر فى حاجة إلى الدين الذى منه هدى

---

(١) راجع من توجيهات الإسلام للشيخ شلتوت ص ١٨ ، والدعوة إلى الإسلام للدكتور أبو بكر زكرى ص ١٢٣ ، ١٢٧ و كتاب مع الله للشيخ محمد الغزالى ص ٢٧ وما بعدها .

الله تعالى للعباد فإننى إنما أعنى الإسلام وحاجة الأمم كلها للعودة إليه والسير على تعاليمه وآدابه والأخذ بعقيدة الفطرية السليمة التى تلبى حاجة الإنسان الضرورية فى كل مطالب الحياة كما تهدف سلوكه وتصرفه مما يدفع به إلى أن يكون عضواً نافعاً مثمراً فى مجتمع البشر جميعاً أعنى بذلك الإسلام وحده دون أى تدين آخر لأن الإسلام هو الدين الذى ارتضاه الله تعالى للعباد كلهم وهو الذى وصى به الأنبياء والمرسلون جميع من أرسلوا فيهم وأقول ذلك تحذيراً من تلك السقطات التى سقط كثير الكثيرون ممن وضعوا فى مجال الفكر والثقافة منها نحن أولاء نجد من يذهبون إلى القول بأن غاندى وعيسى ، ومحمد سواء دون أن يفرقوا بين ماهو دين سماوى أتى يوجد من الله الخالق للعباد ، وبين ماهو وضعى محط أتى من خيال البشر وضع الإنسان . ودون أن يفرقوا بين النبوة المحدودة بالزمان والمكان ، وبين الرسالة العالمية العامة التى شاء الله لها أن تبق فى البشرية مابقيت الدنيا .

(ب) الدين الحق وما قيل عن تطور العقيدة والرد على ذلك :

عرفنا فى الموضوع السابق أن الدين لازم البشرية منذ أن هبط آدم إلى الأرض ليقوم بواجب الاستخلاف فيها وهى المهمة التى خلق الله من أجلها وأخبر الملائكة عنها منذ خلق آدم عليه السلام وأيضاً أمده مايعينه على القيام بحقوقها بعد أن منحه الكلمات التى كان فى تلقيها منه سبحانه توبة صادقة محت عنه أثر الزلة التى أوقعه الشيطان فيها بوسوسة له .

كما أخذ عليه وعلى ذريته العهد والميثاق أن يبلغ مايأتيه من هدى الله ولا يتبع الشيطان بعد أن عرف أنه العدو الأول الذى يحاول أن يوقعه وذريته فى المعصية لله والمخالفة لأوامره . وبذلك يتأكد لكل مفكر

منصف أن آدم هبط إلى الأرض مسلماً لله رب العالمين متبعاً للهدى الذى هداه الله إليه وبذلك يكون آدم وذريته الذين اتبعوه كانوا مؤمنين لله إيمان التوحيد الخالص دون شك أو شبهة .

وهى العقيدة الحقة التى بدأ بها آدم فى الأرض دون أن يكون منه عقيدة منحرفة تخالف ذلك .

ولا يعترض أحد على ذلك ويقول كيف نسلم بأن آدم بدأ عقيدته فى الأرض على التوحيد الصادق وقد رأينا قوم نوح وهم من ذريته شاعت فيهم الوثنية والشرك وتعددت فيهم الألوهية كما يقص علينا القرآن الكريم ذلك فى قوله تعالى [وقالوا لا تذرن آلهتكم ولا تذرن وداً ولا سواعاً ولا يغوث ويعوق ونسراً](١) .

ولا يعترض أحد بذلك أو بمثله والرد على ذلك سهل ويسير نعم إن قوم نوح من ذرية آدم إلى أنهم قد جاءوا بعد مضى قرون كثيرة مضت بعد آدم وقبل بعثة نوح كما مر ذلك فى الحديث النبوى الشريف ، وبمرور تلك القرون بين آدم ونوح صاروا إلى ذلك الشرك فى تأليه غير الله تعالى كما هو الشأن بين كل رسول سابق ورسول لاحق فقد لقى نوح ربه وقضى حادث الطوفان على كل الكافرين فى الأرض وجاءت رسالة إبراهيم خليل الله وكان فى قومه الكثيرون ممن ألهوا النجوم والهياكل ودافعوا عنه بل وحاولوا إحراق إبراهيم الذى حطمها لهم . وهكذا .

وتلك سنة الله فى الخلق أن يبعث فى كل أمة نذيراً يعيد الناس إلى إله الحق الذى كان عليه من سبقه من الرسل كما قال عن خاتم الأنبياء

---

(١) سورة نوح / ٢٣

والمرسلين محمد بن عبد الله ﷺ [ولن يقبضه الله حتى يقيم الملة العوجاء بأن يقولوا لا إله إلا الله ويفتح بها أعيناً عمياً وآذاناً صماً وقلوباً غلفاً] والحديث بطوله فى صحيح البخارى وقد قال شراح الحديث أمثال ابن حجر : الملة العوجاء ماحل بملة إبراهيم بعد أن فارق الحياة الدنيا فقد عاد الناس بها بعد موت إبراهيم إلى الشرك والوثنيه وبعث الله نبيه محمد ﷺ ليعيد الناس إلى التوحيد الخالص الذى كان عليه إبراهيم ومن آمن معه كما كان عليه نوح ومن آمن معه كما كان آدم ومن آمن معه من ذريته .

ومن كل ذلك يتأكد لنا أن هذا الانحراف فى العقيدة الذى إليه قوم نوح عليه السلام طارىء على البشرية بكل ما اشتمل عليه من وثنية وأساطير وخرافات وغير ذلك ، والشيطان هو الذى أوقعهم فى ذلك قياماً بمجال التسليط الذى أعطى له امتحاناً للعباد عن طريق الثغرات الموجودة فى النفس البشرية ، وقد أخبرنا الله تعالى فى القرآن الكريم أنه خلق الإنسان ومنحه قدراً من الاختيــــار الذى هو مناط الابتلاء وبه يملك الإنسان أن يستمسك بالحق ويهدى الله تعالى دون أن يكون للشيطان عليه من سلطان كما قال جل وعلا [إن عبادى ليس لك عليهم سلطان إلا من اتبعك من الغاوين](١) .

كما يملك الإنسان بهذا الاختيار أن ينحرف عن هدى الله فيؤدى به إلى مثل ماوقع فيه قوم نوح وغيرهم من بعدهم .

وقد عارض علماء الأديان المقارنة فى تلك الحقيقة أعنى عقيدة التوحيد وزعموا أن الإنسان بدأ بعقيدة التعدد ثم انتقل إلى عقيدة التثنية ، ثم تحول إلى عقيدة التوحيد وقد ترقت العقيدة فى الإنسان بترقيه فى الحياة هذا

---

(١) سورة الحجر / ٤٢ .

مايقرره علماء الأديان المقارنة وقد تأثر بكلامهم ذلك بعض المفكرين من المسلمين .

وبالطبع قد دفعهم ذلك القصور فى الفهم أن يتحدثوا عن التوحيد بأنه طور متأخر من أطوار العقيدة قد سبقه مراحل متعددة حتى وصل إلى ماوصل إليه .

وللأسف قد أخذ على بعض المفكرين من المسلمين الذين دافعوا عن الإسلام فى كثير من كتاباتهم ؛ أنهم تأثروا بتلك الآراء التى لا تتفق مع منطق الإسلام وأصوله ؛ فذهب هؤلاء وهم فى موقف الدفاع عن الإسلام فى حماسة إلى القول بغير ماقرره القرآن الكريم بشأن العقيدة حين قرر أن آدم قد هبط إلى الأرض مؤمناً موحداً ، وأن ماحدث فى قوم نوح إنما هو تحول من عقيدة التوحيد بوسوسة الشيطان وتسلطه على ذرية آدم . ومن المعلوم لكل المسلمين أن الرسل كل الرسل أرسلوا بالوحدانية ودعوا أممهم إليها تحقيقاً لقوله تعالى : [وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحى إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون](١) .

ومن الملاحظ أن تلك الآية ذكرت فى السورة التى سميت بسورة الأنبياء ، كما جاء قوله تعالى : [وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين أو تقولوا إنما أشرك آباؤنا من قبل وكنا ذرية من بعدهم أفتهلكنا بما فعل المبطلون وكذلك نفصل الآيات لعلهم يرجعون](٢) .

---

(١) سورة الأنبياء / ٢٥ .

(٢) الأعراف / ١٧٢ — ١٧٤ .

وقد أكد النبي ﷺ ذلك المعنى المأخوذ من تلك الآيات الكريمة كما ورد فى الحديث الذى يرويه البخارى عن أبى هريرة رضى الله عنه أن النبي ﷺ قال : [ما من مولود إلا يولد على الفطرة ، فأبواه يهودانه ، أو ينصرانه ، أو يمجسانه كما تنتج البهيمه جمعاء (أى تامة الخلق) هل تحسون فيها من جدعاء ؟ أى مقطوعة الأذن و الأنف أى ناقصة الخلق . ثم يقول أبو هريرة رضى الله عنه (فطرة الله التى فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون](١) .

وجاء فى رواية أخرى أنه ﷺ قال : يقول الله تعالى : إنى خلقت عبادى حنفاء ، فجاءتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم) أى حولتهم عنه(٢) .

وقد فسر العلماء الفطرة التى جاءت فى الآية الكريمه والحديث النبوى الشريف الذى بين أيدينا بالجبلة والطبيعه ، والخليفه الإنسانيه الجامعه بين العالمين، المادى والروحى، والمستعدة لمعرفة ما تتلقاه من عالم الغيب والشهادة من خالقها سبحانه .

وسواء كان ما جاء فى قوله تعالى [وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم] الخ .

ذكر على سبيل الحال أو المقال فالله تعالى قادر على كل شىء ولا يعجزه شىء فى الأرض ولا فى السماء [إنما قولنا لشىء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون](٣) .

---

(١) رواه البخارى .
(٢) رواه الإمام مسلم .
(٣) سورة النحل ٤٠ .

وقوله تعالى : [إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون ، فسبحان الذى بيده ملكوت كل شىء وإليه ترجعون][(١)] .

فالعقيدة الإسلامية — عقيدة التوحيد الخالص لله تعالى — هى فى أصلها أقدم فى تاريخ البشرية من العقائد الوثنية ، وقد أتت كاملة من عند الله تعالى فى أول أمرها لا أنها وليدة الفكر البشرى لا نابعة من معلوماته المتطورة إلى الرقى ؛ إنما أتت للناس كل الناس من عند الله سبحانه وتعالى على ألسنة رسله كما قررت آيات القرآن الكريم التى مر ذكر بعضها .

لا وبعد سوق كل ما تقدم بحق الدفاع من المسلمين بصفة خاصة أن يتأثر مما ذكره علماء الأديان المقارنة من آراء خطيرة فيما يتعلق بالعقيدة والقول بتطورها .

وقد جاء فى كتاب [الله] للأستاذ العقاد بحث عن أصل العقيدة وقد ذكر فى هذا الكتاب ما نصه :

[ترقى الإنسان فى العقائد ، كما ترقى فى العلوم والصناعات فكانت عقائده الأولى مساوية لحياته الأولى ، وكذلك كانت علومه وصناعاته ، فليست أوائل العلم والصناعة بأرقى من أوائل الديانات والعبادات ، وليست عناصر الحقيقة فى واحدة منها بأوفر من عناصر الحقيقة الأخرى] .

وقال : ينبغى أن تكون لمحاولات الإنسان فى سبيل الدين أشق وأطول من محاولاته فى سبيل العلوم والصناعات ؛ لأن حقيقة الكون أشق مطلباً وأطول طريقاً من حقيقة هذه الأشياء المتفرقة التى يعالجها العلم تارة ، والصناعة تارة أخرى ، وقد جهل الناس شأن الشمس الساطعة وهى أظهر ما تراه العيون ، وتحسه الأبدان ولبثوا إلى زمن قريب يقولون

---

(١) سورة يس / ٨٢ ، ٨٣

بدورانها حـول الأرض ويفسرون كل حركاتها وعوارضها كما تفسر الألغاز والأحلام ولم يخطر لأحد أن ينكر وجود الشمس، لأن العقول كانت فى ظلام من أمرها فوق ظلام ولعلها لا تزال .

فالرجوع إلى أصول الأديان فى عصورها الأولى ، لايدل على بطلان التدين . ولا على أنها بحث عن محال ، وكل ما يدل عليه أن الحقيقة أكبر من أن تتجلى للناس كامة فى عصر واحد وأن الناس يستعدون لعرفان الحقائق الصغرى ، بل على نحو أصعب وأعجب من استعدادهم لعرفان هذه الحقائق التى تحيط بها العقول ويتناولها الحس والعيان

وقد أسفر علم المقابلة بين الأديان عن كثير من الضلالات والأساطير التى آمن الإنسان الأول ، ولاتزال لها بقية شائعة بين القبائل البدائية أوبين أمم الحضارة العريقة ولم يكن من المنظور أن يسفر بهذا العلم عن شىء غير ذلك ولا أن تكون الديانات الأولى ، على غير ما كانت عليه من الضلالة الجهالة ، فهذه وحدها هى النتيجة المعقولة التى لا يترقب العقل غير أو ليس فى هذه النتيجة جديد يستغرب به العلماء أو يبنون عليه جديداً فى الحكم على جوهر الدين . فإن العالم الذى يخطر له أن يبحث فى الأديان البدائية ليثبت أن الأولين قد عرفوا الحقيقـة الكونية الكاملة منزهة عن الشوائب والسخف والغباء ، إنما يبحث عن مجال .

كما ذكر الأستاذ العقاد فى نفس الكتاب فصل بعنوان أطوار العقيدة الآلهية](١) .

قال فيه [يعرف علماء المقابلة بين الأديان ثلاثة أطوار عامة مرت بهـا الأمم البدائية فى أعتقادها بالآلهية والأرباب وهى :

---

(١) كتاب [الله] للأستاذ العقاد ص ١٨ .

١ — دور التعدد .

٢ — دور التمييز والترجيح .

٣ — دور الوحدانية .

ففى دور التعدد كانت القبائل الأولى تتخذ لها أربابا تعد بالعشرات ، وقد تتجاوز العشرات إلى المئات ، ودون شك فى هذا الدور أن يكون لكل أسرة كبيرة رب تعبده أو يعيذه تنوب عن الرب فى الحضور ، وتقبل الصلوات والقرابين .

وفى الدور الثانى وهو دور التمييز والترجيح تبق الأرباب على كثرتها ويأخذ رب منها فى الظهور والبروز والرجحان على سائرها إما لأنه رب القبيلة الكبرى التى تدين لها القبائل الأخرى بالزعامه ، وتعتمد عليها فى شئون الدفاع والمعاش ، وإما لأنه يحقق لعباده جميعاً مطلباً أعظم كأن يكون رب المطر والإقليم فى حاجة إليه أو رب الزوابع والرياح وهى موضع رجاء وخشية يعلو على موضع الرجاء والخشية عند الأرباب القائمة على تيسير غيرها من العناصر الطبيعية .

وفى الدور الثالث تتوحد الأمة ، فتتجمع نحو عبادة واحدة تؤلف بينها مع تعدد الأرباب فى كل أقليم من الأقاليم المتفرقه ، ويحدث فى هذا الدور أن تفرض الأمة عبادتها على غيرها كما تفرض عليها سيادة تاجها وصاحب عرشها ويحدث أيضاً أن ترضى من إله الأمة المغلوبة بالخضوع لإلهها ، مع بقائه وبقاء عبادته كبقاء التابع للمتبوع والحاشية للملك المطاع ولا تصل الأمة إلى هذه الوحدانية الناقصة إلا بعد أطوار من الحضارة تشيع فيها المعرفة ويتعذر فيها على العقل قبول الخرافات التى كانت سائدة فى عقول الهمج وقبائل الجاهلية فتصف الله بما هو أقرب إلى الكمال والقداسة من صفات الآلهة المتعددة فى أطوارها السابقة ، وتقترن العبادة

بالتفكير فى أسرار الكون وعلاقته بإرادة الله وحكمته العاليه وكثيراً ما يتفرد الإله الأكبر فى هذه الأمم بالربوبية الحقه ، وتنزل الأرباب الأخرى إلى مرتبـــة الملائكة أو الأرباب المطرودين من الحظيرة السماوية . . . الخ(١) .

وبتأملنا فيما ذهب إليه علماء الأديان المقارنة فى قولهم بتطور العقيدة وفى قول من تأثروا بهذا أمثال الأستاذ العقاد فيما ذكره فى كتاب [الله] الذى ذكرت استشهادات مما قال بتأملنا فى كل ذلك نجد هناك خطورة كاملة فى ذلك .

وأول تلك الخطورة ؛ تصور أن البشر هم الذين يصنعون الدين ويقررون العقيدة الدينية ؛ وبهذا الإتجاه تكون العقيدة خاضعة للإنسان انحطاطاً ورقياً ، وأن هذا الذى وصلت إليه العقيدة — فيما قرره هؤلاء المفكرون من علماء الأديان المقارنة — من التعدد للآلهة إلى التثنية إلى التوحيد مصاحبا للتطور الزمنى الذى مر بالإنسان .

هذا ما يفهم مما قرره الأستاذ العقاد تأثراً باتجاه علماء الأديان المقارنة كما يؤخذ من نص كلامه الذى ذكره عن كتابه [الله] ، « موضوع هذا الكتاب نشأة العقيدة الآلهية منذ أن اتخذ الإنسان ربا ، إلى أن عرف الله الأحد ، واهتدى إلى نزاهة التوحيد .

وقد مر بنا ذكر الأدلة التى تؤكد أن آدم هبط إلى الأرض موحداً مؤمنا بالله الواحد بحكم نبوته وبمقتضى الهدى الذى أتاه من عند الله تعالى وبذلك لم تبدأ العقيدة عند الإنسان الأول وهو آدم بالتعدد ثم التوحيد الذى أثاره علماء الأديان المقارنة ومن تأثر بهم . وبالتالى فإن أبناء آدم

---

(١) المرجع السابق ص ٣

تلقوا عقيدة التوحيد عن أبيهم غير مشوبة بشائبة التعدد أو التثنية ، وقد تعاقبت أجيال وفيها المؤمنون الموحـــدون شأن أى مؤمن يتبع النبى ويستجيب لما يدعوه إليه .

إلا أنه بمرور الزمن ، وتعاقب الأجيال ؛ حدث انحراف عن عقيدة التوحيد التى كانت الأصل فى البشرية كما تلقاها آدم عليه السلام من ربه .

وبكل ذلك نقرر بالدليل الواضح من الكتاب والسنة أن هذا الذى قال به علماء الأديان المقررة ومن ذهب مذهبهم، إن هو إلا آراء لهؤلاء. وأولئك لا يؤيدها الدليل ولا تساندها الحجة بل ويبطلها ويرفض الأخذ بها ماثبت من أدلة صحيحة من العقل والنقل والواقع .

وبالإضافة لما تقدم فإنى أقول : كيف نسلم بأن العقيدة تتطور بتطور الإنسان وتخضع له رقيا وانحطاطاً فى حين أننا الآن وفى القرن العشرين الذى ترقى فيه الإنسان ماديا إلى أعلى مراتب الرقى ، ومع ذلك نجد هؤلاء الذين صفوا ذلك الرقى المادى منهم من أنكر الألوهية مطلقاً ويخضع كل شىء للطبيعة أمثال الشيوعيين فى روسيا وفى غيرها ، ومنهم من يؤلف المخلوق ويقول الله ثالث ثلاثة أمثال الأمريكان الذين يقولون عيسى إله وأمه كذلك وقـــد سجل الله عليهم ذلك فى قوله عز وجل [لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة وما من إله إلا إله واحد . .] الآية . . .

وجدير بنا معشر المؤمنين بالله رب العالمين أن نرفض مثل تلك الأباطيل التى تتنافى مع الإسلام دون أن نتأثر بقائليها ونتمسك بالحق الذى أتى من عند الله عز وجل .

ومهمة المفكرين من المسلمين فى هذا المجال إبطال كل تلك المزاعم

بصفة عامة ويتعين بوضع مؤكد على من يدافعون عن الإسلام ويكتبون من إجل إبطال أباطيل خصوم الإسلام أن يكونوا أكثر الناس قوة وأشدهم دفاعاً عن الإسلام فى إبطال كل ما يثير أدنى شبهه نحو عقيدته وما تفرع عنها .

كما يتحتم على الدعاة من المسلمين أن يقفوا على تلك المزاعم وهذه الأباطيل ويظهرون زيفها وخطورها على الإسلام وأبنائه ويحذرون الناس من الأخذبها .

الدعوة وضرورة تبليغها

ثبت لنا عند الحديث عن أهمية الدعوة وضرورة الحاجة إليها وأن العقل لا يغنى عن الدين بحالة من الحالات ، أن الدعوة الإسلامية لازمة للناس كل الناس لا يستغنى عنها ، ولا يمكن أن يحل محلها شى على الإطلاق .

ومن هنا يتأكد لنا أنه مادام الوجود كله فى حاجة إلى الدعوة فى القديم والحديث ، فإن تبليغها واجب لابد من القيام به ، ولأهميته قد أختار الله سبحانه وتعالى الأنبياء والرسل الذين أصفاهم من بين العباد للقيام بتلك المهمة السامية والضرورية ، وقد كان الإصلاح فى كافة المجالات ملازماً لكل من استجابوا لدعوة الرسل واتبعوا الصراط المستقيم الذى رسمه الله تعالى لهم على لسان كل نبى .

وفى نفس المجال كان الحرمان والخزلان لكل من أعرض ولم يستجب وكل ذلك ملازم لتاريخ البشرية كما قصه الله تعالى لنا فى كتابه الكريم .

يقول الحق سبحانه وتعالى : فى جانب قوم نوح مع نبيهم [ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه فلبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً فأخذهم الطوفان وهم ظالمون فأنجيناه وأصحاب السفينة وجعلناها آية للعالمين](١) .

ويقول سبحانه [فكذبوه فأنجيناه والذين معه فى الفلك وأغرقنا الذين كذبوا بآياتنا أنهم كانوا قوماً عمين](١) .

---

(١) سورة العنكبوت /١٤ ، ١٥
(٢) سورة الأعراف / ٦٤

وقال تعالى عن قوم هود مع نبيهم [وإلى عاد أخاهم هوداً قال ياقوم أعبدوا الله ما لكم من إله غيره أفلا تتقون . قال الملأ الذين كفروا من قومه إنا لنراك فى سفاهة وإنا لنظنك من الكاذبين . قال ياقوم ليس بى سفاهة ولكنى رسول من رب العالمين أبلغكم رسالات ربى وأنا لكم ناصح أمين . . . إلى قوله تعالى فأنجيناه والذين معه برحمة منا وقطعنا دابر الذين كذبوا بآياتنا وما كانوا مؤمنين] (١)

وقال تعالى [وإلى عاد أخاهم هوداً قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره إن أنتم إلا مفترون . ياقوم لا أسألكم عليه أجراً إن أجرى إلا على الذى فطرنى أفلا تعقلون ، وياقوم استغفروا ربكم ثم توبوا إليه يرسل السماء عليكم مدراراً ويزدكم قوة إلى قوتكم ولا تتولوا مجرمين قالوا يا هود ما جئتنا ببينة وما نحن بتاركى آلهتنا عن قولك وما نحن لك بمؤمنين . . . إلى قوله تعالى فإن تولوا فقد أبلغتكم ما أرسلت به إليكم ويستخلف ربى قوما غيركم ولا تضرونه شيئا إن ربى على كل شىء حفيظ ولما جاء أمرنا نجينا هوداً والذين آمنوا معه برحمة منا ونجيناهم من عذاب غليظ](٢) .

وقال سبحانه وتعالى فى شأن قوم صالح [وإلى ثمود أخاهم صالحاً قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها فاستغفروه ثم توبوا إليه إن ربى قريب مجيب قالوا يا صالح قد كنت فينا مرجواً قبل هذا أتنهانا أن نعبد ما يعبد آباؤنا وإننا لفى شك مما تدعونا إليه مريب] إلى قوله تعالى [فلما جاء أمرنا نجينا صالحا والذين آمنوا معه برحمة منا ومن خزى يومئذ إن ربك هو القوى العزيز وأخذ الذين ظلموا

---

(١) سورة الأعراف ٦٥ ، ٧٢

(٢) سورة هود ٥٠ ، ٦٠

الصيحة فأصبحوا فى ديارهم جاثمين كأن لم يغنوا فيها ألا إن ثمودا كفروا ربهم ألا بعداً لثمود](١) .

وقال تعالى عن ابراهيم مع قومه [وابراهيم إذ قال لقومه اعبدوا الله واتقوه ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون ، إنما تعبدون من دون الله أوثانا وتخلقون إفكا إن الذين تعبدون من دون الله لا يملكون لكم رزقا فابتغوا عند الله الرزق واعبدوه واشكروا له إليه ترجعون . وإن تكذبوا فقد كذب أمم من قبلكم وما على الرسول إلا البلاغ المبين](٢) .

وقال سبحانه وتعالى مخاطباً نبيه محمداً ﷺ [كذلك أرسلناك فى أمة قد خلت من قبلها أمم لتتلو عليهم الذى أوحينا إليك وهم يكفرون بالرحمن قل هو ربى لا إله هو عليه توكلت وإليه متاب ولو أن قرآنا سيرت به الجبال أو قطعت به الأرض أو كلم به الموتى بل لله الأمر جميعا أفلم ييأس الذين آمنوا أن لو يشاء الله لهدى الناس جميعا ولا يزال الذين كفروا تصيبهم بما صنعوا قارعة أو تحل قريبا من دارهم حتى يأتى وعد الله إن الله لا يخلف الميعاد](٣) .

وقد ساق القرآن الكريم وعيداً عاماً فى شأن كل من عاند وأعرض ولم يؤمن بما دعاه إليه نبيه قال تعالى [وكأين من قرية عتت عن أمر ربها ورسله فحاسبناها حسابا شديداً وعذبناها عذابا نكراً . فذاقت وبال أمرها وكان عاقبة أمرها خسراً أعد الله لهم عذابا شديداً فاتقوا الله يأولى الألباب الذين آمنوا قد أنزل الله إليكم ذكراً](٤) .

---

(١) سورة هود ٦١ ، ٦٨
(٢) سورة العنكبوت ١٦ ، ١٨
(٣) سورة الرعد ٣٠ ، ٣١
(٤) سورة الطلاق ١٨ ، ١١

والملاحظ فى تلك الإيات الأخيره من سورة الطلاق أن الله عز وجل بعد أن ذكر الوعيد لكل قرية عصى أهلها أمر الله ورسوله وأعرضوا عن أمره تعالى ، ذكر الرسول محمداً ﷺ وما أنزل عليه من وحى يبلغه للناس وجاء ذلك فى مقام المدح وبيان الفضل والشرف لكل من يستجيب ويؤمن بما يدعوه إليه هذا النبى الخاتم ﷺ (١) .

« ما جاء فى حق النبى ﷺ وما أمر به من تبليغ للناس »

إذا تتبعنا القرآن الكريم وتصفحنا ما جاء فيه من آيات تتعلق تبليغ الدعوة على لسان النبى ﷺ نجدها كثيره ومتعددة كما أننا نجدها خطت طريق التبليغ بالنسبة للنبى ﷺ وجعلته على مراحل كما أننا نجد تلك الآيات الكريمة فى مراحل التبليغ تلك بدأت بدعوة أقرب الناس إلى النبى ﷺ ثم من بعدهم ثم جاء الأمر بالتبليغ عاما يشمل كل الناس تحقيقا لعموم الدعوة الإسلامية ، وعالميتها .

والآيات القرآنية التى جاءت تأمر بإبلاغ الدعوة أمراً مطلقا ، منها الآيات المكية ، ومنها الآيات المدنية وقد يأتى مع الأمر العام بالتبليغ رسم الطريق ووضح التوجيه السوى منهج الدعوة إلى الله سبحانه وتعالى كما أنها توضح الصفات التى ينبغى أن يتحلى بها الدعوة إلى الله لتثمر دعوتهم وتؤثر فى الناس وتنال القبول عندهم .

ومن الآيات المكية التى نزلت فى الصدد قول الله سبحانه وتعالى [يا أيها المدثر قم فأنذر وربك فكبر وثيابك فطهر وقد شاء الله تعالى أن تكون الآيات القرآنيه فاتحة سورة المدثر وهى أول آيات نزلت بصدد الأمر بتبليغ الرسالة وهذا لا ينبغى أن تكون الآيات من أوائل سورة

(١) راجع الشوكانى فتح القدير حـ ٦ ص ٢٤٦ وما بعدها .

العلق هى أول ما نزل على النبى ﷺ فى غار حراء ، لأننا هنا نقول أول الآيات التى نزلت بصدد التبليغ للرسالة .

كما نزلت من آيات الأمر للنبى ﷺ بالتبليغ قوله عز وجل [فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين](١) ، وقوله : [وأنذر عشيرتك الأقربين](٢) .

وقوله سبحانه وتعالى : [فلذلك فادع واستقم كما أمرت ولا تتبع أهواءهم وقل آمنت بما أنزل الله من كتاب وأمرت لأعدل بينكم الله ربنا أعمالنا ولكم لاحجة بيننا وبينكم الله يجمع بيننا وإليه المصير](٣) .

وقوله سبحانه :[أدع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين](٤) .

وقوله سبحانه وتعالى : [وكذلك أوحينا إليك قرآنا عربياً لتنذر أم القرى ومن حولها وتنذر يوم الجمع لا ريب فيه فريق فى الجنة وفريق فى السعير](٥) تلك آيات كريمة وبها وبغيرها من مكى القرآن ومدنيه جاء الأمر من الله سبحانه وتعالى للنبى ﷺ بالتبليغ وكلها ترسم منهاجا محكما ليسلكه رسول الله ﷺ فى دعوته إلى الله تعالى وهو يبلغ هذا الدين الذى أصفاه الله تعالى من أجله ،

---

(١) سورة الحجر / ٩٤
(٢) سورة الشعراء / ٢١٤
(٣) سورة الشورى/١٥
(٤) النحل / ١٢٥
(٥) سورة الشورى ٧

ومن ذلك فإنها تدعوه ﷺ أن ينفذ الأمر الصادر له من الله عز وجل معتمداً عليه جل وعلا مع قوة الإيمان به وعظيم الثقة فيه مع الصبر على المكاره، والتحلي بمكارم الأخلاق من طهارة الظاهرة والباطن والبعد عن كل الدنايا فى كافة الصور والأشكال كما أنها تأمره ﷺ بالإخلاص فى الدعوة دون من بها على أحد أو افتخار وتأمل معنى الآيات الأولى من سورة المدثر تجدها تشير إلى كل ذلك [يأيها المدثر قم فأنذر وربك فكبر وثيابك فطهر والرجز فاهجر ، ولا تمنن تستكثر ولربك فاصبر].

لماذا كانت أم القرى هى المنطلق لدعوة الإسلام

وقبل أن نواصل الحديث عما توجه إليه الآيات الكريمة ينبغى أن نقف وقفة متأنية عند الآيات التى ذكرت فى أول سورة الشورى وهى قوله تعالى :

[وكذلك أوحينا إليك قرآنا عربياً لتنذر أم القرى ومن حولها وتنذر يوم الجمع لاريب فيه فريق فى الجنة وفريق فى السعير] .

وإننا بتلك الوقفة المتأنية نجد أول السورة مرتبط بتلك الآيات فيما يدعو إلى تصديق النبى ﷺ والإيمان بنبوته وأنه رسول حقاً من عند الله سبحانه وأول السورة بدأ بتلك الحروف العربية المقطعة والواضحة المفهومة عند العرب المطالبين بادئ ذى بدء بالإيمان بهذا الدين الذى يدعوهم إليه محمد ﷺ .

وهنا فى تلك الآيات تأكيد إلى أن القرآن عربى نزل بلغة العرب التى منها تلك الأحرف فى أول السورة ومع كون القرآن عربى فقد تحداهم الله أن يأتوا بمثله ، وقد عجزوا وفى ذلك دليل على أن القرآن ليس من عند محمد ﷺ كما أنه ليس من عند أحد من الخلق

وقد مر فى أول هذا الكتاب عند الحديث عن خصائص الدعوه ومميزاتها مايؤكد ذلك المعنى بالأدلة من العقل والنفس وذلك القرآن العربى نزل به الوحى من عند الله سبحانه فى تلك الصورة ليؤدى به الغاية المرسومة

[لتنذر أم القرى ومن حولها] :

ومعلوم أن أم القرى هى مكة المكرمة التى كرمها الله تعالى ببيته العتيق

حيث كان أول بيت وضع للناس ، وقد أختار سبحانه وتعالى لتلك الرسالة الخاتمة من حيث البدء والتأسيس والتربية والتبليغ لذلك الدين مكة أم القرى ومن حولها من القرى ، كما أنزل القرآن بلغتها العربية لحكمة يعلمها تعالى ويريدها [والله أعلم حيث يجعل رسالته] .

وبتأملنا فى ذلك الإختيار الإلهى للدعوة ولمكان البدء بها ندرك طرفا من حكمته جل وعلا فى ذلك الاختيار ، وفى ذلك الوقت من الزمان بالذات التى جاءت فيه الرسالة للبشرية جمعاء والذى يوضح عالميتها منذ أيامها الأولى .

وإذا تأملنا واقع الناس على الأرض فى ذلك الزمان الذى نزلت فيه الرسالة على سيدنا محمد ﷺ والتقسيم الجغرافى نجد أن الأرض فى ذلك الوقت تكاد تتقسمها أربع أمبراطوريات :

١ — الإمبراطورية الرومانية التى تقع فى أوربا وتشغل جزء منها طرفا من آسيا وأفريقية.

٢ — الإمبراطورية الفارسية ويمتد نفوذها وسلطانها على مساحة كبيرة من كل من آسيا وأفريقية .

٣ — الإمبراطورية الهندية .

٤ — الامبراطورية الصينية .

وتكاد الامبراطوريتان الأخيرتان أن تكونا مغلقتين على أنفسهما ومعزولتين بعقائدهما واتصالاتهما الاجتماعية والسياسية وغيرها وتلك العزلة مكنت الفرس والرومان أن يكونوا أصحاب النفوذ والسلطان ولهم الأثر الفعال والحقيقى فى حياة البشر وتطورات الناس فيها .

كما كانت اليهودية والنصرانية تحت نفوذ كل من الفرس والرومان أيضا حيث تسيطر عليها الدولة فى الحقيقة ولا تستطيع كل من اليهودية والنصرانية السيطرة على الدولة .

هذا بالإضافة لما أصاب كلا من تلك التعاليم اليهودية والنصرانية من انحراف وفساد ولقد وقعت اليهودية فريسة للاضطهاد الرومى تارة، وللاضطهاد الفارسى تارة أخرى وبسبب ذلك الاضطهاد وعوامل أخرى أصبحت الديانة اليهودية مغلقة فى بنى اسرائيل فقط .

أما بالنسبة للمسيحية فقد ولدت فى ظل الدولة الرومانية التى كانت تسيطر حين البلاد على فلسطين وسورية ومصر، وبقية المناطق التى فيها انتشرت المسيحية سراً . وهى تخشى البطش الرومانى ومطاردته لها التى كانت تضطهد العقيدة المسيحية الجديدة اضطهاداً فظيعاً منكراً ، وقع أثناءه الآلاف من الضحايا القتلى فى مذابح وحشية مروعة .

وعندما انقضى عهد الاضطهاد الرومانى للمسيحية ودخل الامبراطور الرومانى فى المسيحية وأعلن أنها الدين الرسمى لبلاده ، أدخل معه كل أساطير الرومان ووثنيتهم فى المسيحية كما أدخل الفلسفة الاغريقية والوثنية ومباحثها على المسيحية مما وضع العقيده المسيحيه وتعاليمها فى وضع معقد وغريب لاتعرفه تعاليم السيد المسيح ولا تقره لا من قريب ولا من بعيد .

وبذلك تحولت المسيحيه الأولى السماوية عن مبادئها وفى الوقت نفسه ظلت الدولة الرومانية فى طبيعتها لاتتأثر كثيراً بالدين ولا بالديانة، وظلت هى المهيمنه دون أن تهيمن العقيدة عليها أصلا .

هذا بالإضافة لما انتهت إليه المسيحية بمذاهبها المتعـــددة إلى تطاحن ومشاحنة عجيبة ومهلكة لا تليق بدين سماوى ولا تتفق مع خلق الأنبياء ومناهجهم .

الأمر الذى مزق الكنيسة . بل وهدد الدولة كلها بذلك مما نتج عنـه اضطهاد بشع لكل من خالف المذهب الرسمى للدولة وساستها وهؤلاء الذين اتخذوا مذهبا رسميا لهم ولدولتهم وأولئك المبعدين عن مذهب الدولة من بقية المذاهب المسيحية كانوا جميعا فى إنحراف بشع عن حقيقـة المسيحية الذى بعث بها المسيح عيسى بن مريم عليه السلام .

وهنا : حول كل تلك الخلافات الفلسفية والمذهبية البغيضة والبعيـدة عن تعاليم السماء ، جاء الإسلام وظهر نوره ، جاء لينقذ البشريه كلها مـن ظلام الشرك وضلال التعصب الأعمى جاء لينقذ الناس فى جـزيرة العرب وفى غيرها من سائر البلاد ، لينقذهم مما انتهوا إليه مـن إنحلال وفساد واضطهاد وجاهلية عمياء ، جاء ليهيمن على حياة الناس بالحق والعـــدل ويقودهم إلى طريق الله على هدى ونور وكان لابد أن تسود تعاليم الإسلام وتأخذ مكانها ومكانتها فى قيادة البشرية التى هوت وكادت أن نقضى عليها وعلى مافيها من بقية الخلق إلى الأبد .

لم يكـن هناك بد من أن يبدأ حلته من أرض حرة لا سلطان فيهـا لإمبراطورية من امبرطوريات الفرس أو الرومان أو غـيرها . وبذلك ينشأ نشأته الحرة الأصلية التى لا يسيطر عليه فيها قوة خارجه على طبيعته ، بل يكون فى تلك النشأة هو المسيطر على نفسه وعلى من حوله ولـكل ذلك ومن أجل تحققه كانت الجزيرة العربية وأم القرى وما حـولها هى بالذات هى أصلح مكان على وجه الأرض لنشأة الإسلام يومئذ كما كانت أصلح نقطة يبدأ منها الإسلام رحلته العالمية التى شاءها الله تعالى منذبدايته ومن المعلوم لنا أن الدين فى الجزيرة العرب لم يكن ثابتا إذا كانت الوثنية

الجاهلية ممزقة ، ومعتقداتها وعباداتها كانت متفرقة وكان للعرب آلهة متعددة من الجن والملائكة والكواكب والأصنام ومع أنه كان للكعبة وقريش سلطان ديني عام في الجزيرة العربية إلا أنه لم يكن ذلك السلطان المحكم الذي يقف وقفة حقيقية في وجه الدين الجديد .

ولولا المصالح الاقتصادية والأوضاع الخاصة لرؤساء قريش ماوقفوا تلك الوقفة الطائشة والظالمة في وجه الإسلام ولما اضطهدوا الذين دخلوا الإسلام منذ فجره الأول ، فقد كانوا يعرفون جيدا ما في عقائدهم من اضطراب وضعف لكنه التعصب الأعمى هو الذي دفعهم لمقاومة الإسلام وحربه في أول الأمر .

كما كان للاضطراب السياسي في جزيرة العرب ، إلى جانب الاضطراب الديني أثر طيب وفعال في إيجاد الجو الذي ساعد كثيراً على نمو الإسلام وتربية الدعاة في أم القرى ، ليقوموا بأمانة الدعوة والعمل على انتشارها في أنحاء الدنيا .

أضف لذلك ما كان هنالك من صفات طيبة خلاقة يستمتع بها الشعب العربي نفسه كالشجاعة والنخوة ، والأريحية وكرم الأخلاق ومحاولة دفع المظالم وردها ، ولا ننسى ما أبرمه العرب من أحلاف قياماً بتلك الواجبات وتحقيقا لهذه الأحلاف مثل حلف الفضول الذي شهده النبي وهو صغير مع عمومته وبنيهم وقال عنه في الإسلام لو دعيت إليه لأجبت .

ولا ننسى ما كان يستمتع به العرب في جزيرتهم في ذلك الزمان أيضاً من إستعداد لتلقي الحضارة بل كان فيهم بالفعل البداية لبذور تلك النهضة وهذا الرقي ، مما جعلها تستمتع بكفايات وإستعدادات ، وشخصيات فذة تتهيأ لتلك النهضة التي هيأها الله لها وأعد الجو المناسب في أم القرى من

أجلها . ومن ذلك ما كان لديها من تجارب إنسانية معينة تتجلى وتبرز فى رحلاتها إلى أقصى امبراطورتي كسرى وقيصر وأشهر تلك الرحلات رحلة الشتاء إلى الجنوب تجاه الشام ، ورحلة الصيف إلى الشمال تجاه اليمن من أجل التجارة وهى ما أشار إليه قوله تعالى « لإيلاف قريش إيلافهم رحلة الشتاء والصيف فليعبدوا رب هذا البيت الذى اطعمهم من جوع وآمنهم من خوف » .

وقد تتابعت وتعانقت تجارب كثيرة عند العرب فى جزيرتهم مما جمع لها رصيداً ضخما منها أعد الأشخاص وهيأ المكان ليصبح أهلا لتلقى رسالة الإسلام الخاتمة والقيام بواجبتها وتحقيق أهدافها كما شاء الله لها أن تكون .

وجاء الإسلام فوجد ذلك الرصيد المهيأ من التجارب ، والاستعدادات المدخره لتلقى تعاليمه ودليلنا على ذلك ، وجود هذا العدد الطيب والعظيم من الرجال فى الصحابة من الرعيل الأول ، فى حياة النبى المصطفى ﷺ ، كأبى بكر الصديق ، وعمر الفاروق ، وعثمان ذى النورين ، وعلى ، حب الله ورسوله ، وحمزة أسد الله والعباس عم رسول الله ، وأبى عبيدة أمين الأمة وسعد بن أبى وقاص بطل الجهاد القائد المظفر بالنصر وخالد بن الوليد مؤدب المرتدين والمارقين والخارجين عن الحق ، وأبى أيوب الأنصارى ، خال رسول الله ﷺ ، وسعد بن بن معاذ وسعد بن عبادة وغيرهم وغيرهم ممن كان لديهم إستعداد أول الأمر لتلقى تلك الدعوة والقيام بواجبها ، وممن حارب الدعوة وتعصب للقديم فى أول الأمر ، فلما أفاق من كبوته وظهر له الحق الذى حرك المواهب لديه قام وأثبت بطولته وحاول أن يكفر عن تاريخه الماضى الذى صار لا يرضى عنه ولا يقبل أن يتصفح أحداثه لما يؤلمه منها .(١)

---

(١) راجع كتب التراث للمفسرين عامة فى قوله تعالى « لتنذر =

وتأييداً لما ذكرت أسوق بعض ماذكره المفكرون فى هذا الصدد وهذه أو الاستشهادات لأحد المفكرين المسلمين إذ يقـــول « أصبحت الديانات العظمى فريسة العابثين والمتلاعبين ا ولعبة المحرفين والمنافقين حتى فقدت روحها وشكلها ، فلو بعث أصحابها الأصليون لم يعرفـوها أصبحت مهـــد الحضارة والثقافة والحكم والسياسة مسرح الفوضى والانحلال والاختلال وسوء النظام ، وعسف الحكام وشغلت بنفسها ، لا تحمل للعالم رسالة ، ولا للأمم دعـوة وأفلست فى معنوياتها « ونضب معين حياتها ، لا تملك مشرعاً صافياً من الدين السماوى ، ولا نظاماً ثابتاً من الحكم البشرى(١)

أما الاستشهاد الثانى فهو لمفكر أوربى يدعى « ح. ه دنيسون يقول : « فى القرنين الخامس والسادس كان العالم المتمدين على شفا جرف هار من الفوضى ، لأن العقائد التى كانت تعين على إقامة الحضارة كانت قد انهارت ولم يك ثم ما يعتد به مما يقوم مقامها ، وكان يبدو إذ ذاك أن المدنية الكبرى التى تكلف بناؤها جهود أربعة آلاف سنة مشرفة على التفكك والانحلال وأن البشرية على وشك أن ترجع ثانية إلى ما كانت عليه من الهمجية ، إذ القبائل تتحارب وتتناحر ، لا قانون ولا نظام .

أما النظم التى خلقتها المسيحية فكانت تعمل على الفرقة والانهيار ، بدلا من الاتحاد والنظام وكانت المدنية كشجرة ضخمة متفرعة امتد ظلها إلى العالم كله .

= أم القرى ومن حولها » وكتاب فى ظلال القرآن بصفة خاصة المجلد الخامس ص ٤١٤٢ وما بعدها .

(١) راجع كتاب ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ص ٢٢ طبعة ثانية للأستاذ الداعية المسلم أبو الحسن الندوى .

واقفة تترنح وقد تسرب إليها العطب حتى اللباب . وبين مظاهر هذا الفساد الشامل ولد الرجل الذى وحد العالم جميعه »(١) .

ويعنى بالرجل الذى ولد ووحد العالم كله هو النبى محمداً ﷺ . هذا وقد تتابع نزول الآيات القرآنية التى توجب التبليغ وتلزم به بعد هجرة النبى ﷺ إلى المدينة المنورة مما يؤكد بوضوح استمرارية التبليغ ، ووجوب القيام به فى أى مكان وزمان ومن الآيات المدنية التى نزلت فى هذا الصدد ما يأتى :

١ — قال الله تعالى : [وقل للذين أوتوا الكتاب والأميين أأسلمتم فإن أسلموا فقد اهتـــدوا وإن تولوا فإنما عليك البلاغ والله بصير بالعباد](٢) .

والآيات القرآنية تضيف عنصراً جديداً فيمن يدعون إلى الإسلام فى المدينة بالإضافة للأميين من العرب ؛ وذلك العنصر الجديد هم أهل الكتاب . ولم يكن أحد من أهل الكتاب يستحق الذكر يوجد بمكة المكرمة ؛ أما فى المدينة فهناك اليهود وهم طوائف ولهم ثقلهم وخططهم بل وتطلعاتهم للنبى المنتظر الذى بشرت به التوراة والإنجيل والذى كانوا يهددون أهل يثرب به ويقولون لهم كاد أن يظهر النبى الذى بشرت به التوراة وسنقاتلكم به فجاء ذكرهم فى تلك الآية الكريمة وهم مدعوون بأمر الله تعالى للإسلام والدخول فيه كما نصت الآية الكريمة وفى ذلك دليل على أن الدعوة الإسلامية لم تكن للعرب وحدهم وإنما هى عامة

---

(١) راجع كتابه : العواطف كأساس للحضارة .

(٢) سورة آل عمران / ٢٠

تتناول العرب وغيرهم كما أعلنت آياتها ذلك من فجرها الأول بيثرب مدينة رسول الله ﷺ .

٢ — قال تعالى [قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون](١) .

والآية الكريمة قد جاء التصريح فيها أوضح بالنسبة لأهل الكتاب إذ جعلتهم مع المسلمين سواء فى كلمة التوحيد والاعتراف بوحدانية الله تعالى وتفرده بالألوهية دون سواه مع إخلاص العبادة له سبحانه وتعالى دون غيره .

٣ — وقوله سبحانه [ولكل أمة جعلنا منسكا هم ناسكوه فلا ينازعنك فى الأمر وادع إلى ربك إنك لعلى هدى مستقيم](٢) .

٤ — وقال جل وعلا [وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ثم أبلغه مأمنه ذلك بأنهم قوم لا يعلمون](٣) .

وقوله تعالى [يأيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته والله يعصمك من الناس إن الله لا يهدى القوم الكافرين . قل يا أهل الكتاب لستم على شىء حتى تقيموا التوراة وما أنزل إليكم من

---

(١) آل عمران / ٦٤ .

(٢) سورة الحج / ٦٧ .

(٣) التوبة / ٦ .

ربكم وليزيدن كثيراً منهم ما أنزل إليك من ربك طغياناً وكفراً فلا تأس على القوم الكافرين][(١)] .

والآيات كما نرى تأمر النبي ﷺ أن يواصل التبليغ وألا يتوقف لحظة ويستوى فى ذلك من ليس لهم كتاب سماوى سابق كمشركى العرب ومن فى حكمهم ، ومن لهم كتاب سابق كأهـــل الكتاب من اليهود والنصارى وسنرى كيف سلك النبي معهم منهجه فى تبليغه الإسلام لهم صلى الله عليه وسلم .

---

(١) سورة المائدة / ٦٧ ، ٦٨ .

النبي صلى الله عليه وسلم ومنهجه فى التبليغ

(أ) النبي ﷺ وأهل مكة فى تبليغ الدعوة :

من الآيات القرآنية التى نزلت على النبي ﷺ بشأن التبليغ قوله تعالى [وكذلك أوحينا إليك قرآناً عربياً لتنذر أم القرى ومن حولها] وقد مر ذكر الآية فيما سبق مع شرحها وبيان ما يستفاد منها .

وبالإضافة لما سبق فإن الآية تعطى أهل مكة أهمية فى الإنذار وبالطبع قد أدرك النبي ذلك ، ومن هنا نجده ﷺ سلك المسلك الطبيعى فى الدعوة إلى الله تعالى والذى تشير إليه الآية آنفة الذكر فبدأ ﷺ ؛ بأوثق الناس إليه وألصقهم به وهم أسرته وعلى رأسهم الزوج الحصيفة خديجة بنت خويلد التى علمت بنزول الوحى على رسول الله ﷺ فى أول أمره .

وكان أول من استجاب للنبى ﷺ زوجته المخلصة الوفية خديجة رضى الله عنها التى كانت أول من آمن من النساء ، وابن عمه على بن أبى طالب الذى كان يعيش مع النبى فى أسرته ويعد أحد أبنائه وكان أول من أسلم من الصبية ، وزيد بن حارثة متبنى رسول الله قبل إبطال التبنى وتحريمه فى الإسلام وقبل أن ينزل فى ذلك قرآن يتلى مثل : قوله تعالى : [ماجعل الله لرجل من قلبين فى جوفه وماجعل أزواجكم اللائى تظاهرون منهن أمهاتكم وماجعل أدعياءكم أبناءكم ذلكم قولكم بأفواهكم والله يقول الحق وهو يهدى السبيل . ادعوهم لآبائهم هو أقسط عند الله ...] الآية(١) .

---

(١) سورة الأحزاب / ٤ ، ٥ .

وبدأ خبر الإسلام بعد ذلك ينتشر فى بطء وينتقل من فرد إلى آخر ممن سلمت فطرهم ويئسوا مما شاهدوه من عبادات وتقديس لمخلوقات لاتضر ولا تنفع ولا يقبلها العقل السوى ولا يقرها .

وعلى رأس هؤلاء الذين وصلهم نبأ الإسلام فى بادىء أمره بمكة المكرمة صاحب رسول الله ﷺ الصديق أبو بكر رضى الله عنه ولذلك لم يتردد لحظة واحدة فى الإيمان والتصديق عندما سمع بنبوءة الرسول صلى الله عليه وسلم .

كما استطاع رضى الله عنه أن يقوم بدور مشكور فى هـذا الصدد فمنذ أن أسلم وهو يتلمس الرجال الذين ادخرتهم العناية الإلهية وأعدتهم للدعوه إلى الإسلام كما مر ذكر ذلك أمثال عثمان بن عفان ، والزبير بن العوام ، وسعد ابن أبى وقاص ، وعبد الرحمن بن عوف . وقد أسرع هؤلاء جميعاً فى الاستجابة للإسلام عندما سمعوا به كما قاموا هم الآخرون بدورهم فى توصيل الإسلام لمن يتوسمون فيهم الخير ورسول الله ﷺ يتعهد الجميع ويلتقى بهم بين الوقت والآخر ويعلمهم دين الله ويبث فيهم ماينزل به الوحى من تعاليم .

وبذلك دخل فى الإسلام عدد من الرجال المؤمنين الصادقين الذين كان لهم فضل السبق إلى الإسلام كما حدثنا بذلك كثير من كتب السير والسنة(١) .

وهكذا بدأت الدعوة تسلك منهج التدرج فى التبليغ فخرج بها

---

(١) راجع زاد المعاد لابن القيم جـ ٢ ص ٤٢ ، ٤٣ ، ٤٤ .

رسول الله ﷺ فى تحفظ و كتمان كامل من أسرته المحدودة إلى الأسرة المكية الأوسع نطاقاً ، حيث كان عليه الصلاة والسلام يتفرس سلوك القوم ومعاملاتهم ويحاول أن يلتقى بمن يرى فيه الصلاحية لقبول الإسلام وحمل دعوته والقيام بها .

وقد حاول ﷺ ألا يصطدم بالناس فى بدء الدعوة لأنه رأى من الحكمة التى آتاه الله إياها ونشأه على منهجها أن تسلك الدعوة الطريق فى أول الأمر بهدوء دون صدام أو عنف ، كما أنه وجد أن الإسلام فى حاجة إلى أعوان مخلصين له متفهمين لتعاليمه التى آمنوا بها . حتى يستطيعوا بدورهم عرض الإسلام على غيرهم بحكمة .

لكل ما تقدم رأيناه ﷺ . استمر وهو فى بدء الدعوة على منهجه الحكيم ذلك وكان كلما التقى بأحد من أهل الخير وعرض عليه الإسلام يوصيه ألا يخبر بذلك إلا المخلصين العقلاء الذين يقبلون الإسلام دون اعتراض أو خصومة وجدال .

وقد استمر عليه الصلاة والسلام فى ذلك حتى جاءه الجهر بالدعوة الإسلامية وقد تجلى ذلك فى قوله عز وجل « فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين » .

وهنا صعد ﷺ على جبل الصفا ونادى بطون قريش جميعا فاجتمعوا له ، وعند ذلك واجههم ﷺ بقوله « أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلا بالوادى تريد أن تغير عليكم أكنتم مصدقى ؟ قالوا نعم : ما جربنا عليك كذبا قط قال ﷺ : فإنى نذير لكم بين يدى عذاب شديد » .

وفى ذلك البلاغ أكد لهم ﷺ كما هم يعرفون عنه ويعترفون أنه لن يكذبهم أبداً ، إذ قال لهم « إن الرائد لا يكذب أهله والله لو كذبت الناس جميعا ما كذبتكم ، ولو غررت الناس جميعا ما غررتكم » .

وفى ذلك نجد حكمة النبى ﷺ واضحة إذ أنطقهم عليه الصلاة والسلام بالشهادة له بالصدق والأمانة وأنهم ما جربوا عليه كذبا قط وتلك شهادتهم ولها مدلولها عند العقلاء كما أنها دليل عليهم عندما يعاندون ويكذبون بما يدعوهم إليه ﷺ .

ومع تلك الشهادة منهم له ﷺ بالصدق وأنهم ما جربوا عليه كذبا قط ، فإن عنادهم وجحودهم صرفهم عن الإيمان به وبدعوته ولم يقفوا عند ذلك الحد بل تطاولوا واستهزءوا وكادوا له ﷺ .

(وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلما وعلوا فانظر كيف كان عاقبة المفسدين(١))

وتلك طريقة المعاندين فى كل عصر ومع كل نبى ؛ فكما جحد قوم موسى بعد أن رأوا الآيات التى أجراها الله على يديه وكما جحد قوم ابراهيم ونوح من قبل ، جحد المشركون وأبوا أن يؤمنون لما دعاهم إليه النبى محمد ﷺ .

استمع إلى الوليد بن المغيرة وهو يقول : أينزل على محمد وحى وأنا أترك مع أنى كبير قريش وسيدها ، ويترك أبو مسعود الثقفى ونحن عظيما القريتين — مكة والطائف ؛ وجاء الرد عليه وعلى أمثاله من المولى سبحانه وتعالى قال جل وعلا (وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم ، أهم يقسمون رحمة ربك نحن قسمنا بينهم معيشتهم فى الحياة الدنيا ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضا سخريا ورحمة ربك خير مما يجمعون(٢))

---

(١) سورة النمل ١٤

(٢) سورة الزخرف ٣١ ، ٣٢

ومما يدل على أنهم أبوا أن يستجيبوا للإسلام لذلك الجحود والحقد مع علمهم بأنه الحق من الله تعالى ذلك الحوار الذى دار بين بعضهم وهم يستمعون إلى القرآن من رسول الله ﷺ خفية وجلسة .

قال الأخنس بن شريق لأبى جهل — عمرو بن هشام — وكانا قد سمعا القرآن مع أبى سفيان بن حرب من النبى ﷺ ليلا وهم على الشرك ، قال الأخنس ما رأيك فيما سمعنا من محمد ؟ فأجاب أبو جهل : ماذا سمعت ؟ تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف ، أطعموا فأطعمنا ، وحملوا فحملنا ، وأعطوا فأعطينا ، حتى إذا تحاذينا على الركب ، وكنا كفرسى رهان قالوا : منا نبى يأتيه الوحى من السماء فمتى ندرك مثل هذه ؟ والله لا نؤمن به أبدا ولا نصدق .

وفى ذلك نزل قوله تعالى (وإذا جاءتهم آية قالوا لن نؤمن حتى نؤتى مثل ما أوتى رسل الله الله أعلم حيث يجعل رسالته سيصيب الذين أجرموا صغار عند الله وعذاب شديد بما كانوا يمكرون)(١) .

يقول الإمام الرازى فى تفسيرها : إعلم أنه تعالى حكى عن مكر هؤلاء الكفار وحسدهم أنهم متى ظهرت لهم معجزه قاهرة تدل على نبوه محمد ﷺ قالوا : لن نؤمن حتى يحصل لنا مثل هذا المنصب من عند الله وهذا يدل على نهاية حسدهم ، وأنهم إنما بقوا مصرين على الكفر لا لطلب الحجة والدلالة ، بل لنهاية حسدهم . قال المفسرون : قال الوليد بن المغيره والله لو كانت النبوة حقا لكنت أنا أحق بها من محمد فإنى أكثر منه مالا وولدا . فنزلت هذه الآية . وقال الضحاك . أراد كل واحد منهم أن يخص بالوحى والرسالة كما أخبر الله تعالى عنهم فى قوله تعالى (بل يريد كل

(١) سوره الأنعام ١٢٤

امرىء منهم أن يؤتى صحفا منشرة فظاهر الآية التى نحن فى تفسيرها يدل على ذلك أيضا لأنه تعالى قال (وإذا جاءتهم آية قالوا لن نؤمن حتى نؤتى مثل ما أوتى رسل الله) وهذا يدل على أن جماعة منهم كانوا يقولون هـذا الكلام انتهى كلام الرازى .

وهو يدل على أن الآية كان لها أكثر من سبب فالوليد قال ، فى حادثه معينة ما تقدم ذكره .

وأبو جهل قال فى حادثه أخرى أيضا ما تقدم مما يدل على حقد الجميع وحسدهم واعراضهم عن الإيمان حتى يكون لهم مثل ما يدعون إليه وفى الآية رد على الجميع وعلى أمثالهم(١) .

وقد شاء الحق سبحانه وتعالى أن يكون الرعيل الأول لتلك الدعوة الإسلامية هم الضعفاء من الناس والفقراء ومن ليسوا من أهل القوة والسلطان وتلك سنة الله مع كل الأنبياء فإن من يتبع الرسل والأنبياء فى أول أمرهم ضعاف القوم لا أقوياءهم كما شهد بذلك نجاشى الحبشة عندما حاور وفد قريش فى شأن المهاجرين الأوائل من المسلمين ببلاده .

وقد طلب المشركون من رسول الله محمد ﷺ أن ينحى هؤلاء العبيد والفقراء وأن يطردهم من مجلسه فجاء قول الحق سبحانه وتعالى (واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداه والعشى يريدون وجهه ولا تعد عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطا)(٢) .

---

(١) راجع الفجر الرازى فى تفسيره حـ٧ صـ١٨٤ وما بعدها

(٢) سورة الكهف ٢٨ ، ٢٩

يقول بعض المفسرين فى ذلك ، روى أن الآيات نزلت فى أشراف قريش حين طلبوا من النبى ﷺ أن يطرد فقراء المؤمنين ، أمثال بلال الحبشى وصهيب الرومى وعمار بن ياسر ، وخباب بن الأرت ، وعبد الله بن مسعود إذ كان يتطلع إلى إيمان سادة قريش وكبرائها ، أو أن يجعل لهم مجلسا غير مجلس هؤلاء الفقراء .

ويروى أن رسول الله ﷺ طمع فى إيمان هؤلاء الأقوياء من قريش أصحاب الكلمة والتنفيذ لعل قوتهم تلك تتحول لصالح الإسلام فتعمل من أجل نصرته غير أن الله تعالى أنزل عليه تلك الآيات يدعوه أن يظل مع هؤلاء الضعفاء وأن يصبر معهم دون ملل أو استعجال فهم أهل الله وأحباؤه يتجهون إليه بقلوبهم وأرواحهم بالغداة والعشى لا يتحولون عن طاعته ولا يبغون إلا رضاه ومن هنا فهم أهل الخـــير ، وعليهم وعلى أمثالهم تؤسس الدعوات ويقوم بنيانها ويثمر .

فالدعوات لا تقوم على من يعتنقونها لأنها قوية منتصرة غالبة ، ولا على من يعتنقونها ليقودوا بها غيرهم أو يحققوا من ورائها مغانم وأطماع كلا كلا .

إنما تقوم الدعوات بتلك القلوب التى تتجه إلى الله بالغداة والعشى لا تبغى بذلك سوى مرضاته جل وعلا .

أما هؤلاء الذين أغفلوا قلبهم عن ذكر الله تعالى واتبعـــوا الهوى مفرطين مقصرين . فالله تعالى ينهى نبيه ﷺ عن قبول ما يعرضونه عليه وهو فى أشد الحاجة إلى من يعينه وينصره فى دعوته فهو سبحانه يعلم أنه لا على هؤلاء ولا بأيديهم ينتصر الحق أو تعلو دعوات الرسل فهم أهل الغرور والجبروت أصحاب النزوة والتعالى فلو ذكروا الله تعالى وعرفوه لتركوا كبرياءهم ، وخففوا من غلوائهم ، وخفضـــوا هاماتهم لله خالقهم ، واستشعروا جلاله تعالى فأدركوا أن فى ظل تعاليه تتساوى

الرءوس وأدركوا رباط العقيده التى بها يصبح الناس سواسية وفى الله إخوة لا يفضل أحد أحداً إلا بالتقوى وصالح الأعمال(١) .

وقد جاء الإسلام بذلك وأعلنه من أول يوم وجعله من أهم مبادئه التى جاءت لإصلاح المجتمعات والأفراد .

ومن هنا كان عناد القوم واصرارهم على عدم الاستجابة لهذا الدين الذى يسوى بينهم وبين العبيد والفقراء من الناس ، وتحولوا إلى قلوب قاسية دفعتهم إلى أن يفعلوا كل ما هو ضار ومهلك من أجل النيل من هؤلاء الذين دخلوا الاســـلام وآمنوا بمحمد رسوله صلى الله عليه وسلم .

وتحمل المسلمون الأذى بكل الوانه ، كما تحمل النبى ﷺ الكثير والكثير من الأعداء وكان لهؤلاء المستضعفين فى رسول الله الاسوة والقدوة فصبر الجميع وصابروا لأن النبى ﷺ علمهم أن النصر مع الصبر وان الفرج مع الكرب ، وأن اليسر مع العسر وتجلى ذلك فى مواطن التوجيه والتربية فى مقام الاضطهاد الشديد ، وهاهو خباب بن الأرت رضى الله عنه يصف للنبى ﷺ ما يفعله المشركون بالدعوة وبالمؤمنين بها فيقول ﷺ بالخباب (إن من كان قبلكم كان يؤتى بالرجل فيحفر له الحفرة ويوضع فيها وينشر بالمنشار ويشق نصفين ويمشط بأمشاط الحديد ما دون لحمه وعظمه ما يخرجه ذلك عن دينه يقول ذلك ﷺ فى مواطن الحث على الصبر وتحمل الأذى ثم يبشر بالنصر ويطمئن هؤلاء المؤمنين بالله فيقول لهم

---

(١) تفسير فتح القدير حـ ٣ ص ٢٨١ وما بعدها

(والله ليتمن الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لايخاف إلا الله والذئب على غنمه ولكنكم تستعجلون)(١)

وقد استمر ﷺ فترة يدعو إلى الله تعالى بمكة المكرمة يذهب إلى أماكن التجمع جميعا كالأسواق والأندية ويعرض الإسلام عرضا طيبا قائماً على الحكمة والموعظة الحسنة كما رسم الله تعالى منهج الدعوة فى القرآن الكريم .

كما كان صلى الله عليه وسلم يلتقى بكل من يعلم أنه قدم مكة من غير المكيين كل ذلك لعله يجد المستجيبين لنداء الحق .

وعندما وجد ﷺ أهل مكة على هذا الإعراض السيء الذى فيـــه أصبحوا عقبة فى طريق الدعوة تطلع ﷺ إلى ماحول مكة نخرج بالدعوة من حدود مكة الجغرافية وتوجه إلى الطائف حيث تسكن ثقيف ، وقد توجه إلى أهل ثقيف لعله أن يجد فيهم استجابة لما يدعوا الناس إليه .

وقد التقى ﷺ بأهل الكلمة فيهم لأن بهم التأثير على الآخرين إن هم آمنوا ، غير أنه ﷺ وجد منهم صداً عنيفاً وإعراضاً سيئاً وفوق ذلك فقد حرضوا عليه من يؤذيه منهم .

نخرج ﷺ من الطائف على تلك الصورة السيئة التى لايقرها منطق ولا عقل ، وتوجه إلى الله بالدعاء أن يكون هو المعين والناصر فبيده وحده سبحانه قلوب العباد يقلبها كيف يشاء ،ولم يدع على القوم بالهلاك والأذى ولكن دعا لهم بالهدايه آملا فى أن يخرج الله من أصلابهم من يعبده ويوحده جل وعلا(٢)

---

(١) رواة البخارى

(٢) راجع الروض الأنف حـ ١ ص ٢٦٢

وبعد أن عاد ﷺ من الطائف إلى مكة وقد لقى فى تلك الرحلة مالقى من الأذى ، استمر ﷺ يواصل الدعوة على الرغم من كل العقبات التى اعترضته ووقفت فى وجه الدعوة .

وقد رأى ﷺ أن يوسع دائرة الدعوة لتعم الجزيرة العربية كلها وذلك عن طريق من يفيدون إلى مكة كل عام خاصة فى المواسم التى ألفوها كالحج وغيره ، ومع تلك الوفود كان يلتقى بهم ويعرض عليهم الإسلام ويدعوهم إلى الإيمان وبتلك الوسيلة استطاع ﷺ أن يلتقى بالعديد من وفود القبائل من شتى البقاع ويعرض عليهم الإسلام وبعد أن يستمعوا إليه يعودون إلى قومهم ويبلغونهم ماسمعوه منه ﷺ .

وقد كان من أولئك الوفود الذين التقى بهم ﷺ فى مكة الطفيل ابن عمرو الدوسى الذى دعا قومه إلى الإسلام فآمنوا واستجاب الكثيرون منهم ثم وفد بهم على النبى ﷺ بعد الفتح مؤمنين مطمئنين .

كذلك أبو ذر الغفارى رضى الله عنه الذى أسلم بمكة فى وفادته وقد أسلم نصف قومه بإسلامه . وتم إسلام الباقون بعد الهجرة النبوية .

وكان من حكمته ﷺ أن يوصى أعضاء تلك الوفود ألا يحضروا أحداً من قومهم إلى مكة المكرمه حتى لا يحدث صدام بينهم وبين المشركين بمكة فيؤدى ذلك إلى وقوع معارك ومشاجرات تعوق سير الدعوة وتوقف طريقها وتحدث شوشرة وبلبلة أفكار مما يؤدى إلى الإضرار بالدعوة .

وبتلك الحكمة النبوية وهذا المنهج الحسن تخطت الدعوة حدود مكة بل والجزيرة العربية أيضا إذ وصلت إلى الحبشة فى السنة الخامسة من

البعثة وذلك بهجرة المسلمين الأوائل إلى الحبشة. وقد اختلطوا بأهل الحبشة وأسمعوهم القرآن الكريم وشرحوا لهم أصول الدعوة مما دفع بالكثيرين منهم إلى الإيمان بالله عز وجل .

ويمكننا بلغة العصر أن نقول إن المسلمين الأوائل الذين هاجروا إلى الحبشة واستمروا بها عدة سنين كانوا أول جالية للإسلام بقارة إفريقيا .

ومن المعروف أن هؤلاء توجهوا إلى الحبشة بإشارة النبى لهم عندما طلب منهم أن يتفرقوا فى الأرض بعد أن اشتد بهم الأذى فقالوا إلى أين يارسول الله فقال صلى الله عليه وسلم أذهبوا إلى الحبشة فإن بها ملكا عادلا لايظلم أحد ينزل بجواره .

وكان ذلك الملك العادل هو النجاشى الذى أسلم عندما سمع القرآن من أصحاب النبى وبكى بكاء شديدا وأبكى من حوله من القساوسة والرهبان وقد نزل فيه وفى أمثاله قول الحق سبحانه وتعالى :

(. . . ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى ذلك بأن منهم قسيسين ورهبانا وإنهم لايستكبرون وإذا سمعوا ماأنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق يقولون ربنا آمنا فاكتبنا مع الشاهدين ومالنا لا نؤمن بالله وما جاءنا من الحق ونطمع أن يدخلنا ربنا مع القوم الصالحين فأثابهم الله بما قالوا جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها وذلك جزاء المحسنين)(١)

---

(١) سورة المائدة آيات ٨٢ - ٨٥

وقد ورد فى ذلك أحاديث عدة منها : ما أخرجه أبو حاتم عن عطاء قال ما ذكر الله به النصارى من خير فإنما يراد به النجاشي وأصحابه، وأخرج النسائى وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والطبرانى وأبو الشيخ وابن مردويه عن عبدالله بن الزبير قال : نزلت هذه الآية فى النجاشى وأصحابه (وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق) .

وأخرج ابن أبى شيبة وابن أبى حاتم وأبو نعيم فى الحلية والواحدى عن طريق ابن شهاب قال : أخبرنى سعيد بن المسيب وأبو بكر عبدالرحمن ابن الحارث بن هشام وعروة بن الزبير قالوا :

بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم عمرو بن أمية الضمرى وكتب معه كتابا إلى النجاشى فقدم على النجاشى فقرأ كتاب رسول الله ﷺ ثم دعا جعفر بن أبى طالب والمهاجرين معه . وأرسل النجاشى إلى الرهبان والقسيسين فجمعهم ، ثم أمر جعفر بن أبى طالب أن يقرأ عليهم القرآن فقرأ عليهم سورة مريم ، فآمنوا بالقرآن وفاضت أعينهم من الدمع وهم الذين أنزل الله فيهم (ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى..) إلى قوله تعالى (ربنا آمنا فاكتبنا مع الشاهدين)(١) .

---

(١) راجع فتح القدير للشوكانى ج٢ص٦٩ وما بعدها

توضيح وتعقيب :

إن تلك الآيات كما نرى بالأدلة من الحديث تصور لنا حالة بعينها وتقرر حكما يخص تلك الحالة ، — وبالطبع ينطبق ذلك الحكم وتلك الحالة على ما يماثلها — جريا وراء القاعدة التى تقول السبب خاص والحكم عام أى يعم كل ما يوافق ذلك السبب .

وبتلك الحالة التى تقررها تلك الآيات وتصدر فيها حكما هى لفريق من أتباع المسيح عيسى بن مريم عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة وأتم السلام وهى كما تنص الآيات (الذين قالوا إنا نصارى / وتقريرها فيهم أنهم أقرب مودة للمؤمنين .

والآيات أتت بأسلوب محكم لا يدع مجالا للشك فى أنها تصور حالة بعينها تلك الحالة هى التى ينطبق عليها ذلك التقرير المبين ، ومع ذلك فهناك من السطحيين ضعاف الإيمان من يخطئون الفهم فى مدلول الآية أو يتظاهرون بذلك ويفتحون مجالا يحول الآيات عن مدلولها الصحيح مما يفتح باب الأذى على الدعوة الإسلامية وأصحابها .

ولذلك كان من الواجب الضرورى الذى تقتضيه مصلحة الدعوة أن أنبه على ذلك حتى يكون الدعاة بصفة خاصة والمسلمون بصفة عامة على بينة من الأمر .

إن الحالة التى تصورها تلك الآيات هى كما مر حالة فئة من الناس قالوا إنا نصارى ، وهم أقرب مودة للذين آمنوا وجاء التعليل لذلك بقوله (ذلك بأن منهم قسيسين ورهبانا وأنهم لا يستكبرون) ، والقرآن كما هو واضح فى الأسلوب يقرر بأن منهم قسيسين يعرفون حقيقة دين النصارى

الذى قرره المسيح عليه السلام ودعا إليه وبلغه وقال فى شأنه . من أنصارى إلى الله ، فلا يستكبرون على الحق حين تبين لهم ، ولم تقف الآيات عند ذلك الحد ولكن لصعوبة الموقف وخطورة الأمر ، وإقامة للحجة على من يحيد عن الحق واصلت الآيات فى تبيان الحق وإتمام القضية وذلك باستمرار السياق حيث جاء قوله (وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق يقولون ربنا آمنا فاكتبنا مع الشاهدين ..) الآيات .

فهؤلاء الذين هم أقرب مودة للذين آمنوا هم فريق النصارى من القسيسين والرهبان الذين سمعوا القرآن الذى أنزل على الرسول محمد بن عبد الله الذى بشرت به التوراه والإنجيل على لسان موسى بن عمران ، وعيسى بن مريم عليهما السلام فلما سمعوه بكوا لأنهم عرفوا أنه الحق وأعلنوا إيمانهم به ورجوا الحق سبحانه وتعالى أن يكتبهم مع الشاهدين هكذا يأتى توضيح الموقف بتفصيل الآيات حتى لا يترك مجال لمغالطة يغالط بها أحد الناس .

ويتساءلون فى مقام ذلك التضرع للحق سبحانه لعل فى ذلك العظة والعبرة للغافلين فيقولون كما يقرر القرآن الكريم (وما لنا لا نؤمن بالله وما جاءنا من الحق ونطمع أن يدخلنا ربنا مع القوم الصالحين) .

وهم بذلك يعلنون الإيمان بهذا الحق الذى عرفوه ثم يدعونه تعالى أن يضعهم فى قائمة الشاهدين لذلك الحق ويجعلهم فى سلك الأمة القائمة على الحق فى الأرض تلك الأمة المسلمة التى تشهد لهذا الدين بأنه الحق من عند الله تعالى ثم بعد ذلك يستنكرون على أنفسهم أن يعوقهم عائق عن الإيمان بالله ولصدق إيمانهم شهد الله لهم وأخبر أنهم أصحاب المثوبة وأهل المغفرة والإحسان وأعظم بها من شهادة وأجر يأتيهم من الله رب العالمين (فأثابهم

الله بما قالوا جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها وذلك جزاء المحسنين) .

أما من كفر بذلك الحق من النصارى فهو بعيد عن مدلول تلك الآيات كما أنه عدو للمؤمنين بها وتنبيها على ذلك جاء قوله عقب الآيات السابقة (والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب الجحيم) .

والذين كفروا فى الآية هم الذين يسمعون من الذين قالوا إنا نصارى ثم لا يستجيبون ، وقد سمى القرآن الكريم هؤلاء بالكافرين وصرح بذلك فى مواطن كثيرة سواء فى ذلك اليهود والنصارى ما داموا فى موقف التكذيب لما أنزل الله على رسوله من الحق قال تعالى (لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين منفكين حتى تأتيهم البينة رسول من الله) .

(لعن الذين كفروا من بنى إسرائيل على لسان داود وعيسى ابن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون) الآية .

(لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح بن مريم) .

ومن تلك الآيات القرآنية يتضح لنا أن المجال لا يؤخذ على إطلاقه ، وأن هؤلاء الذين امتدحهم القرآن الكريم من النصارى قساوسة ورهبانا وغيرهم إنما ذلك ورد فى شأن من ينطبق عليهم ما ذكرته الآيات عدم استكبارهم على الحق ، إيمانهم بالقرآن الكريم وبمحمد رسول الله ﷺ وأنه رسول إلى الناس أجمعين بما فيهم أهل الكتاب من اليهود والنصارى بكاؤهم عند سماع القرآن تأثرا به وإستجابة له وتنفيذاً لكل ما أمر به ، إعترافهم بالإيمان باللسان والقلب والجوارح ، اللوم على من لم يؤمن من بعد أن استبان له الحق وعرف أنه الدين الذى يبلغ حلقة من حلقاته كل من موسى وعيسى عليهما السلام وأن الإيما بكل الرسل واجب .

كما أن إنكار رسالة أحد الرسل كفر بالرسل أجمعين ، قبول الله الإيمان من هؤلاء المؤمنين ووعدهم بالثواب فى دار الخلود فى جنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين كل ذلك مطلوب فى هذا المقام حتى لا يدخل فى ذلك المجال من ليسوا أهلا لما حكمت به الآيات وذلك هو الإنصاف بعينه(١) .

(١) راجع فى ذلك كتاب ظلال القرآن جـ ٢ صـ ٩٦٢ وما بعدها للأستاذ / سيد قطب

«طلائع الخير وبوادر الهدى تفد من يثرب إلى مكة»

استغل النبي ﷺ هذا الفريق من الأوس وعلى وأسهم إياس بن معاذ وكان مجيئهم ذلك فى أوائل السنة الحادية عشر من البعثة النبوية ، قبيـل معركة يعاث العلومة والتى كانت من أشد الحروب بين الأوس والخزرج وقد قدم هذا الوفد من الأوس لأن الأوس كانوا أقل فى عددهم من بنى عمومتهم من الخزرج وقد رأى هؤلاء العقلاء من الشباب أن يبحثوا عن حليف لهم من قريش على قومهم من الخزرج .

فلما علم رسول الله ﷺ بمقدم القوم ذهب إلى مجالسهم وكلمهم فى فى الإسلام وقال لهم : هل لكم فى خير مما جئتم له ؟ فقالوا لرسول الله ﷺ وماذاك الذى هو خير مما جئنا له ؟

قال ﷺ : أنا رسول الله ، بعثنى إلى العباد ، أدعوهم أن يعبدوا الله تعالى ولا يشركوا به شيئا وأنزل على الكتاب ، ثم ذكر لهم الإسلام وتلا عليهم القرآن الكريم .

فقال إياس بن معاذ : أى ياقوم هذا والله خير مما جئتم له . فأخذ واحد من القوم يدعى أبو الحيسر أنس بن رافع حفنة مـن التراب بالبطحاء وألق بها فى وجه إياس بن معاذ ، وقال له : دعنا عنك فلعمرى لقـد جئنا لغير هذا ، فصمت إياس وقام رسول الله صلى عليه وسلم ، وعادوا إلى يثرب دون أن يحرزوا ما قدموا من أجله : وهـو عقد حلف مع قريش .

ويروى ابن هشام فى سيرته أن إياس هذا بعد أن عاد الوفد إلى يثرب لم يزل يكبر الله تعالى ويحمده ويردد ما سمع من النبى صلى الله عليه وسلم حتى

مات قبل هجرة النبى صلى الله عليه وسلم وكان أهـله يجزمون بأنه مات مسلماً موحداً(١)

وفد الخزرج :

فى موسم الحج من السنة الحادية عشر للبعثة شاء الله تعالى أن تجـد الدعوة الإسلامية أرضا خصبه ، وبذوراً صالحة لها لتخرج من هـذا الحصار وذلك الضيق الذى فرضته قريش عليها ، وكان من حكمته ﷺ فى الدعوة إلى الله تعالى خروجه فى ظلام الليل ليلتقى بالقبائل حتى لا يشعر أهل مكة به فيفسدون عليه الموقف ويصرفون الناس عن الاستماع إليه والاستجابة لما يدعو إليه وذات ليلة خرج حتى وصل عقبة منى ، فسمع أصوات رجال يتكلمون . فتحول إليهم حتى التقى بهم ، وكان عددهم ستة نفر من شباب يثرب جميعهم من الخزرج — ولا ننسى لقاءه بفريق الأوس من قبل — وعدد هذا الوفد من الخزرج كالآتى :

١ — أسعد بن زرارة « من بنى النجار »

٢ — جابر بن عبد الله بن رئاب « من بنى عبيد بن غنم »

٣ — قطبة بن عامر بن جديدة « من بنى سلمة »

٤ — عقبة بن عامر بن نادى « من بنى حرام بن كعب »

٥ — عون بن الحارث بن رفاعه بن عفراء « من بنى النجار »

٦ رافع بن مالك بن العجلان « من بنى زريق »

وبالطبع كان هؤلاء الخزرجيون يسمعون من اليهود عن النبى المنتظر الذى بشرت به التوراة وقرب مبعثه ما كان يسمعه الأوسيون منهم وقد

---

(١) ح١ ص ٤٢٧ ، ٤٢٨ سيرة ابن هشام

فرح هذا الوفد الخزرجي بلقاء النبي ﷺ فرحاً شديداً إذ سألهم صلى الله عليه وسلم عند لقائه بهم قائلا لهم : من أنتم . قالوا : نفر من الخزرج .

قال : من موالى يهود؟ أى من حلفائهم ، قالوا : نعم قال عليه الصلاة والسلام : أفلا تجلسون أكلمكم ؟ قالوا : بلى . فجلسوا .

وعندئذ شرح لهم ﷺ حقيقة الإسلام ودعوته ودعاهم إلى الله عز وجل ، وتلا عليهم القرآن الكريم فقال بعضهم لبعض : أتعلمون والله يا قوم : إنه للنبى الذى توعدكم به اليهود . فلا يسبقكم إليه فأسرعوا إلى الاستجابة لما دعاهم إليه عليه الصلاة والسلام وأسلموا .

وقد أعد الله تعالى هذا اللقاء إذ كان يضم عقلاء الخزرج من أهل يثرب ، وكانوا قد أنهكتهم الحرب الأهلية التى أكلت الحرث والنسل ، والتى ما زال لهيبها مستعراً ونارها مشتعلة وقد أملوا أن يخلصهم هذا النبى من تلك العداوة التى استحكمت بين قبيلتى الأوس والخزرج وقد تجلى ذلك فيما أجابوا به على النبى ﷺ ، إذ قالوا له : إنا تركنا قومنا ولا قوم بينهم من العداوة والشر ما بينهم ،فعسى أن يجمعهم الله بك ، فسنقدم عليهم ، فندعوهم إلى أمرك ، ونعرض عليهم الذى أجبناك إليه من هذا الدين ، فإن يجمعهم الله عليك فلا رجل أعز منك .

وقد رجع هؤلاء النفر بعد أن بايعوا النبى ﷺ وصدقوا فيما بايعوا — رجعوا إلى قومهم — حاملين تلك الرسالة الخاتمة التى شاء الله لها أن يكونوا أنصارها وأنصار نبيها — ولم يتركوا بيتا من بيوتهم ، ولا دارا من دورها إلا وفيه اسم الله يذكر ودعوة رسول الله ﷺ تنشر.(١) .

---

(١) راجع زاد المعاد حـ ٢ ص ٥٠ ، رحمة العالمين حـ١ ص ٨٤ ، ابن هشام حـ١ ص ٤٢٩ ، ٥٤١ ، ٤٢٨ ، ٤٣٠

« ثمار ذلك اللقاء بين الرسول ووفد الخزرج »

لم يمض عام على هذا اللقاء بين رسول الله ﷺ وبين هؤلاء الرجال من الخزرجيين إلا وقد جاء فى موسم الحج فى السنة الثانية عشر للبعثة وفد يثرب بمثله أثنا عشر رجلا فيهم خمسة رجال من الستة نفـــر الذين حضروا فى العام المنتصرم وسبعة رجال جدد منهم اثنان من الأوس وأسماؤهم كالآتى :

١ — معاذ بن الحارث بن عفراء	من بنى النجار
٢ — زكوان بن عبد القيس	من بنى زريق
٣ — عبادة بن الصامت	من بنى غنم
٤ — يزيد بن ثعلبه	من خلفاء بنى غنم
٥ — العباس بن عبادة بن نضلة	من بنى سالم
٦ — أبو الهيثم بن التيهان	من بنى عبد الأشهل وهو من الأوس «
٧ — عويم بن ساعدة	من بنى عمرو بن عوف وهو الثانى من الأوس .

ولا ننسى المغزى الذى يشير إليه وجود رجلين من الأوس فى فريق الخزرج هذا الذى أتى النبى ﷺ رغم العداوة المشتعلة بين الأوس والخزرج والحروب التى ما زالت قائمة بين الفريقين فوجود هذان الرجلان من الأوس مع الخزرجين يعطى مؤشرا مسبقا على ما سيحدثه الإسلام من إيقاف الحروب وإزالة العداوة وتحقيق الأخوة الإسلاميه التى حلت محل العداوة بالفعل وصدق الله العظيم إذ يقول مذكرا بتلك النعمة [واذكروا

نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون](١)

وعندما وصل هذا الوفد إلى مكة اتصل برسول الله صلى الله عليه وسلم فوعدهم النبي عليه الصلاة والسلام على أن يكون اللقاء عند العقبة بمنى ، وتم اللقاء وفيه تحققت بيعة العقبة التي ذكرها البخاري في صحيحه وهي كالآتي :

عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : بايعوني على أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا ولا تسرقوا ولا تزنوا ولا تقتلوا أولادكم ولا تأتوا ببهتان تفترونه بين أيديكم وأرجلكم ولا تعصوا في معروف ، فمن وفى ذلك منكم فأجره على الله ومن أصاب من ذلك شيئا فعوقب به في الدنيا فهو كفارة له ، ومن أصاب من ذلك شيئا فستره الله فأمره إلى الله إن شاء عاقبه ، وإن شاء عفا عنه .

قال : فبايعته وفي رواية فبايعناه على ذلك(٢) .

---

(١) سورة البقرة/١٠٣

(٢) صحيح البخاري ، باب حلاوة الإيمان ج ١ ص ٧ ، باب وفود الأنصار ح١ ص٥٥

أول داعية فى الإسلام يخرج داعية إلى الله بيثرب :

تمت بيعة العقبة مع وفد يثرب من الخزرج معهم إثنان من الأوس وانتهى موسم الحج وعاد الناس من حيث أتوا وعندئذ بعث رسول الله ﷺ مع أولئك المبايعين أول سفير له ليعلم الناس الإسلام ويشرح لهم تعاليمه ويوضح أحكامه ، ويفقههم فى الدين ، وبالإضافة لذلك يقوم بنشر الإسلام بين من لم يسلموا ويدعوهم إلى الإيمان بالله رب العالمين وترك ما هم عليه من شرك ووثنية .

وقد حاز على تلك المنزلة وحصل هذا الشرف الذى ما بعده من شرف الشاب المؤمن المجاهد والشهيد مصعب بن عمير العبدرى المكى رضى الله تعالى عنه وأرضاه .

ووصل مصعب الداعية إلى يثرب بسلامة الله ليقوم بمهمة الشاقة والهامة ، ونزل أول نزوله على أسعــد بن زرارة الذى انضم لمصعب يؤازره ويشد من عضده ويدعو معه أهل يثرب فى جد وحماس وحكمة وإخلاص . ولكثرة ما كان يقوم به مصعب من قراءة القرآن على القوم وشرح آياته ، وبيان أحكامه أشتهر بين القوم بالقارىء .

وكان لمصعب مواقف كريمة ومباركة تدل على مهارته فى الدعوة إلى الله تعالى وتبرهن على ما وصل إليه فيها من نجاح من ذلك . ما روى أنه خرج يوما مع أسعد بن زرارة يقصدان دار بنى عبد الأشهل ودار بنى ظفر ، فدخلا فى حائط من حوائط بنى ظفر ، وجلسا على بئر يقال لها — بئر مرق — ، وعندها اجتمع إليهما رجال من المسلمين فيهم سعد بن معاذ ، وأسيد بن حضير اللذان كانا على الشرك وقتها وهما سيدان فى قومهما ولهما الكلمة والتأثير .

ولما سمعا بما جاء من أجله مصعب يرافقه أسعد بن زرارة ، قال سعد ابن معاذ لصاحبه أسيد بن حضير إذهب إلى هذين الرجلين قد أتيا ليسفها ضعفاءنا فازجرهما ، وأنههما عن أن يأتيا ديارنا ، فإن أسعد بن زرارة ابن خالتى ، ولولا ذلك كفيتك هذا .

فأخذ أسيد حربته ، وأقبل إليهما ، فلما رآه أسعد ، قال لمصعب : هذا سيد قومه قد جاءك فاصدق الله فيه ، قال مصعب إن يجلس أكلمه . وجاء أسيد فوقف عليهما متشتما ، وقال : ما جاء بكما إلينا ؟ تسفهان ضعفاءنا ؟ اعتزلانا إن كانت لكما بأنفسكما حاجة ، فقال له مصعب : أو تجلس فتسمع ، فإن رضيت أمراً قبلته ، وإن كرهته كف عنك ما تكره ، فقال: أنصفت ثم وضع حربته وجلس ، فكلمه مصعب بالإسلام ، وتلا عليه القرآن قال : فوالله لعرفنا فى وجهه الإسلام قبل أن يتكلم ، فى إشراقه وتهلله ، ثم قال : ما أحسن هذا وأجمله ؟ كيف تصنعون إذا أردتم أن تدخلوا هذا الدين ؟

قالا له تغتسل ، وتطهر ثوبك ثم تشهد شهادة الحق ثم تصلى ركعتين، فقام أسيد بن حضير واغتسل وطهر ثوبه وتشهد وصلى ركعتين ، ثم قال: إن ورائى رجلا إن تبعكما لم يتخلف عنه أحد من قومه ، وسأرشده إليكما الآن — يعنى سعد بن معاذ ثم أخذ حربته وانصرف إلى سعد فى قومه ، وهم جلوس فى ناديهم ، فقال سعد : أحلف بالله لقد جاءكم بغير الوجه الذى ذهب به من عندكم .

فلما وقف أسيد على النادى ، قال له سعد : ما فعلت ؟ فقال كلمت الرجلين فوالله ما رأيت بهما بأسا ، وقد نهيتهما فقالا : نفعل ما أحببت .

وقد حدثت أن بنى حارثة خرجوا إلى أسعد بن زراره ليقتلوه وذلك أنهم قد عرفوا أنه ابن خالتك ، ليخفروك . فقام سعد مغضبا لما سمع من أسعد ، فأخذ حربته ، وخرج إليهما ، فلما رآهما مطمئنين علم أن أسيداً إنما

أراد منه أن يسمع من مصعب وصاحبه فوقف عليهما متشتما غاضبا ، ثم نظر إلى أسعد بن زراره وقال له ، والله يا أبا أمامه لولا ما بيني وبينك من القرابة ما رمت هذا مني ، تغشانا في دارنا بما نكره ؟

وكان أسعد عندما رأى سعد بن معاذ قادماً إليهما همس في أذن صاحبه مصعب بن عمير وقال له : جاءك والله سيد من ورائه قومه أن اتبعك لم يتخلف عنك منهم أحد .

فقال مصعب لسعد بن معاذ : أو تقعد فتسمع ؟ فان رضيت أمراً قبلته ، وإن كرهته عزلنا عنك ما تكره ، قال : قد أنصفت ثم ركز حربته ، وعندئذ عرض مصعب الإسلام وقرأ القرآن وشرح أحكامه ووضح عقيدته وبين أخلاقه قال : فعرفنا والله في وجهه الإسلام قبل أن يتكلم في اشراقه وتهلله ، ثم قال كيف تصنعون إذا أسلمتم ؟

فشرح له مصعب كما شرح لصاحبه من قبل كيف يدخل الإسلام فقام ونفذ ما طلبه منه ثم أخذ حربته وعاد إلى النادي في قومه فلما رأوه قالوا نحلف بالله لقد رجع بغير الوجه الذي ذهب به .

فلما وقف عليهم قال : يا بني عبد الأشهل كيف تعلمون أمري فيكم ؟ قالوا : سيدنا وأفضلنا رأيا ، وأيمننا نقيبة قال : فإن كلام رجالكم ونسائكم على حرام حتى تؤمنوا بالله ورسوله ، فما أمسى فيهم رجل ولا إمرأة إلا مسلما ومسلمة إلا رجل واحد هو — الأصيرم — الذي ظل على دين قومه ولم يسلم إلا يوم أحد حيث أسلم فقاتل حتى حاز على الشهادة في سبيل الله ، وما كان قد سجد لله سجدة واحدة ولذلك قال النبي ﷺ في شأن الأصيرم هذا عمل قليلا وأجر كثيراً] .

واستمر مصعب بن عمير الداعية المسلم يدعو إلى الإسلام وقد إتخذ له من دار أسعد بن زرارة مقاماً له ، وقد نشط رضي الله عنه في الدعوة

حتى وصل إلى درجة لم يترك فيها داراً من دور الأنصار إلا وفيها من الرجال والنساء من آمن بالله واستجاب للاسلام فى كل ما يدعوهم إليه ؛ باستثناء ما كان من دور بنى أمية بن زيد وخطمة ووائل . إذ كان فيهم قيس بن الأسلت الشاعر المطاع فى قومه ، وبهذا الشاعر ظل أولئك القوم من دور بنى أمية تلك بعيدين عن الإسلام غير مستجيبين لتعاليمه حتى جاء عام الخندق فى السنة الخامسه للهجرة .

وقبل أن يأتى موعد الحج من العام التالى للعام الذى وصل فيه مصعب إلى يثرب يدعو إلى الله أى فى موسم الحج من العام الثالث عشر للبعثة النبوية عاد مصعب رضى الله عنه إلى مكة يزف إلى رسول الله ﷺ بشرى ذلك الفوز ، وهو يقص عليه ﷺ أخبار قبائل يثرب جميعا ، وما فيها من مواهب طيبة ومجال عظيم فى الخير وإقبال شديد على الإسلام واعتناق دعوته والإخلاص فى نشرها بين الناس(١) .

---

(١) راجع زاد المعاد لإبن القيم حـ ٢ ص ٥١ ، سيرة ابن هشام حـ ١ ص ٤٣٥ إلى ٤٣٨

ثمار مصعب بن عمير

فى يثرب يتجلى فى بيعة العقبة الثانية

وبعد قليل من الأيام جاء موسم الحج فى العام الثالث عشر من البعثه النبوية وحضر لأداء مناسك الحج بضع وسبعون من أهل يثرب ، جاءوا ضمن قومهم من المشركين ،وحاولوا اخفاء حقيقة ما يعزمون عليه من أشياء لصالح الإسلام ومن أجل نصرة النبى ﷺ واثناء سيرهم فى الطريق من يثرب إلى مكة ، وقبل أن يلحقوا بالرسول ﷺ تساءلوا فيما بينهم — إلى متى نترك الرسول ﷺ على حاله تلك بمكة بين المشركين يصنعون به ما يؤذيه ويفعلون من الوان الأذى والا ضطهاد وما يكول عقبة كئود فى طريق الدعوة إلى الله عز وجل .

وبعد أن قدموا مكة بالفعل أرسلوا إلى النبى ﷺ فى سرية كاملة يطلبون مقابلته ، ليعرضوا عليه ما يكن بخواطرهم نحو الله ورسوله ودعوته ، وقد أخبرهم ﷺ أن يفدوا إليه ليلا فى أواسط أيام التشريق فى الشعب الذى عند العقبة عند الجمرة الأولى بمنى ، وأن يتم ذلك فى سرية كاملة وقد وصف كعب بن مالك رضى الله عنه أحد أبطال قادة الانصار هذا اللقاء الإسلامى الهام بين رسول الله ﷺ وبين وفد يثرب الذين تم معهم بيعة العقبه الثانية فقال فى ذلك .

خرجنا إلى الحج ، وواعدنا رسول الله ﷺ بالعقبة من أوسط أيام التشريق ، وكانت الليلة التى واعدنا رسول الله ﷺ لها ، ومعنا عبد الله بن عمرو بن حرام سيد من سادتنا ،وشريف من أشرافنا ،أخذناه معنا وكنا نكتم من معنا من قومنا من المشركين أمرنا فكلمناه وقلنا له ، يا أبا جابر ، إنك سيد من ساداتنا ،وشريف من أشرافنا وإنا نرغب بك عما أنت فيه أن تكو

حطبا للنار غداً ، ثم دعوناه إلى الإسلام واخبرناه بميعاد رسول الله ﷺ إيانا بالعقبة ، قال : فأسلم وشهد معنا العقبة ، وكان نقيبا من النقباء .

قال كعب رضى الله : فنمنا تلك الليلة مع قومنا فى رحالنا حتى مضى ثلث الليل ، خرجنا من رحالنا لميعاد رسول الله ﷺ ، نتسلل تسلل القطا مستخفين حتى اجتمعنا فى الشعب عند العقبة ، ونحن ثلاثة وسبعون رجلا وامرأتان من نسائنا ، نسيبة بنت كعب — أم عمارة — من بنى مازن من النجار ، وأسماء بنت عمرو — أم منيع — من بنى سلمة فاجتمعنا فى الشعب ننتظر رسول الله ﷺ حتى جاءنا ، ومعه « عمه العباس بن عبد المطلب » — وهو يومئذ على دين قومه — إلا أنه أحب أن يحضر أمر ابن أخيه ، ويتوثق له ، وكان أول متكلم(١) .

وبدأ المجلس بالكلام ، وتكلم العباس عم النبى ﷺ فشرح للقوم بصراحة تامه خطورة المسئولية التى سيبايعون النبى من أجلها والتى ستلقى أمانتها على كواهلهم نتيجة لتلك البيعة ، ومما قاله العباس : يامعشر الخزرج — وكان العرب يسمون الأنصار خزرجا .

قال العباس : إن محمداً منا حيث قد علمتم ، وقد منعناه من قومنا ممن هو على مثل رأينا فيه ، فهو فى عزة من قومه ومنعة فى بلده ، وإنه قد أبى إلا الانحياذ إليكم ، واللحوق بكم ، فإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه إليه وما نعوه ممن خالفه ، فأنتم وما تحملتم من ذلك ، وإن كنتم ترون أنكم مسلموه وخاذلوه بعد الخروج به اليكم فمن الآن فدعوه ، فإنه فى عز ومنعة من قومه وبلده(٢) .

---

(١) جـ ١ ص ٤٤٠ ، ٤٤١ من سيرة ابن هشام
(٢) المرجع السابق جـ ١ ص ٤٤١ ، ٤٤٢

قال كعب : فقلنا له : قد سمعنا ما قلت ، فتكلم يارسول الله فخذ لنفسك ولربك ما أحببت ولا يخفى على ذى لب، ما يظهر من جوابهم هذا على العباس وطلبهم من النبى ﷺ أن يشترط ما يحب لا يخفى ما يشير به ذلك عزم القوم الصادق ويقينهم القوى واخلاصهم لله تعالى ولرسوله ﷺ .

تكلم النبى ﷺ واشترط على القوم النصرة لله ولرسوله فى المكره والمنشط ، وأن يمنعوه مما يمنعون منه أولادهم وأنفسهم وأهليهم وبذلك تمت بيعة العقبه الثانيه ويروى لنا الإمام أحمد بن حنبل فى مسنده عن جابر ما بايعهم عليه النبى ﷺ أذكره فيما يأتى .

روى الإمام أحمد عن جابر قال : قلنا : يارسول الله على ما نبايعك ؟ قال ﷺ يتوبعونى على :

١ — السمع والطاعة فى النشاط والكسل .

٢ — وعلى النفقه فى العسر واليسر .

٣ — وعلى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر .

٤ — وعلى أن تقوموا فى الله ، لاتأخذكم فى الله لومة لائم .

٥ — وعلى أن تنصرونى إذا قدمت إليكم ، وتمنعونى مما تمنعون منه أنفسكم وأزواجكم وأبناءكم ولكم الجنة .

وقد جاء فى رواية كعب التى رواها ابن اسحق — جاء فيها : قال كعب : فتكلم رسول الله ﷺ، فتلا القرآن، ودعا الى الله تعالى ورغب فى الإسلام. ثم قال : أبايعكم على أن تمنعونى مما تمنعون منه نساءكم وأبناءكم ، فأخذ البراء بن معرور بيده ﷺ ثم قال : نعم والذى بعثك بالحق نبيا لنمنعنك مما نمنع أزرنا منه فبايعنا يارسول الله ، فنحن والله أبناء الحرب وأهل الحلقه ورثناها كابراً عن كابر ، وأثناء ما يتكلم البراء أمام النبى ﷺ وقف أبو الهيثم بن التيهان معترضا قوله وقال : يارسول الله أن بيننا وبين القوم

حبالا (يعنى اليهود) وإنا لقاطعوها فهل عسيت ان نحسن فعلنا ذلك ، ثم أظهرك الله أن ترجع الى قومك وتدعنا ؟

قال : فتبسم الرسول ﷺ ، ثم قال : بل الدم الدم والهدم الهدم ، أنا منكم وأنتم منى ، أحارب من حاربتم ، وأسالم من سالمتم(١).

---

(١) ابن هشام حـ ١ صـ ٤٤٢

رجال من يثرب يدركون خطورة البيعة
وعظم مسئوليتها

تمت المحادثة حول شروط تلك البيعة وتبادل القوم الآراء حول متطلباتها والتزاماتها ، وعندما أجمعوا على البدء فى عقدها وقف رجلان من الرعيل الأول الذى أسلم فى مواسم سابقة أثناء عامى أحد عشر ، واثنى عشر من البعثة النبوية وهما : العباس بن عبادة بن نضلة . وأسعد بن زرارة — وهو السبعين من أهل يثرب ، وقف الرجلان ليؤكدا لقومهما خطورة المسئولية ، حتى تتم البيعة على وضوح من الأمر واستمع إلى ابن اسحق وهو يوضح ذلك الموقف الرهيب الذى كان أساسا لكل إنجاز تم للإسلام ودعوته بعد ذلك وحتى هاجر النبى ﷺ وجاهد وبلغ الإسلام إلى أن لقى ربه ﷺ :

يقول ابن اسحق : لما اجتمع القوم للبيعة وقف العباس بن عبادة ابن نضلة وتوجه إلى قومه بالحديث قائلا : هل تدرون علام تبايعون هذا الرجل ؟ قالوا : نعم ، قال : انكم تبايعونه على حرب الأحمر والأسود من الناس وفإن كنتم ترون أنكم إذا نهكت أموالكم مصيبة وأشرافكم قتلا أسلمتموه فمن الآن ، فهو والله إن فعلتم خزى الدنيا والآخرة .

وإن كنتم ترون أنكم وافون له بما وعدتموه إليه على نهكة الأموال وقتل الأشراف فخذوه ، فهو والله خير الدنيا والآخرة .

قالوا : إنا نأخذه على مصيبه الأموال ، وقتل الأشراف ، فالنا بذلك يارسول الله إن نحن وفينا بذلك ؟ قال : الجنة ، قالوا ابسط يدك ، فبسط يده فبايعوه .

وجاء فى رواية جابر قال: قمنا نبايعه ، فقام أسعد بن زرارة — وهو

أصغر السبعين — فقال رويداً يا أهل يثرب ، إنا لم نضرب إليه أكباد الإبل إلا ونحن نعلم أنه رسول الله ، وإن اخراجه اليوم مفارقة للعرب كافة ، وقتل خياركم ، وأن تعضكم السيوف ، فإما أنتم تصبرون على ذلك فخذوه ، وأجركم على الله ، وإما أنتم تخافون على أنفسكم خفية فذروه فهو أعذر لكم عند الله(١).

قال جابر بعد أن تكلم أسعد بما مر ذكره فى الحديث — فقالوا يا أسعد ، أمط عنا يدك ، فو الله لانذر هذه البيعة ولا نستقيلها . وبعد ذلك قام القوم وبايعوا رسول الله ﷺ رجلاً رجلا وهو يأخذ عليهم البيعة ويعطيهم وعد الله بالجنة .

كما بايع المرأتان النبى ﷺ قولا كما روى ذلك الإمام مسلم معقبا بأن النبى ﷺ لم يصافح امرأة أجنبية قط(٢).

ولأهمية الموقف وخطورة البيعه بعد أن تم العقد طلب ﷺ أن ينتخب الناس من بينهم اثنى عشر نقيبا يكونون عليهم يتحملون المسؤولية فى تنفيذ ما أبرم فى عقد البيعة كما يتعهدون الدعوة فى مسارها ويعملون على نشرها بين الجميع فقال عليه الصلاة والسلام : أخرجوا إلى منكم اثنى عشر نقيبا ليكونوا على قومكم بما فيهم . فتم اختيار العدد المطلوب فى الحال وكانوا تسعة من الخزرج وثلاثة من الأوس وكانوا كالآتى :

---

(١) المصدر السابق ج١ ص٤٤٦ ، وحديث جابر رواه الإمام أحمد بن حنبل من حديث جابر رضى الله عنه .

(٢) صحيح الإمام مسلم باب كيفية بيعة النساء ج٢ ص١٣١ .

نقباء الخزرج وإليك أسماؤهم

١ — أسعد بن زرارة بن عدس .

٢ — سعد بن الربيع بن عمرو .

٣ — عبد الله بن رواحه بن ثعلبة .

٤ — رافع بن مالك بن العجلان .

٥ — البراء بن معرور بن صخر .

٦ — عبد الله بن عمرو بن حرام .

٧ — عبادة بن الصامت بن قيس .

٨ — سعد بن عبادة بن وليم .

٩ — المنذر بن عمرو بن خنيس .

أما نقباء الأوس فهم

١ — أسيد بن حضير بن سماك .

٢ — سعد بن خيثمة بن الحارث .

٣ — رفاعه بن عبد المنذر بن زبير .

وقد أخذ ﷺ ميثاقه على أولئك النقباء بحدد مسئوليتهم أمام الله ثم أمام رسوله فى قومهم وما تمت البيعة من أجله وقد قال لهم ﷺ فى ذلك : أنتم على قومكم بما فيهم كفلاء ككفالة الحواريين لعيسى بن مريم

وأنا كفيل على قومى — أى المسلمين — قالوا نعم(١) صلى الله عليك وسلم يارسول الله .

وقد حرص ﷺ أن تتم البيعة فى هدوء كامل بعيداً عن أعين قريش فهو يعلم أنه رسول الله للعالمين وليس لمكة وحدها ولا لجزيرة العرب دون سواهم وإنما هو الرسول لكافة الناس بشيراً ونذيراً .

ومع كل الحذر والحيطة التى أخذ بها رسول ﷺ .

فقد نما إلى آذان شركى مكة أن محمداً اجتمع بأهل يثرب وبايعوه على الإيمان والسمع والطاعة . وتألم المشركون كثيراً من سماع ذلك النبأ واجتمعوا برؤسائهم وتشاوروا فيما بينهم ، وانتهوا إلى أن يذهبوا إلى معسكر أهل يثرب بمنى ويستوثقون الخبر .

فذهب وفد مشركى مكة وسألوا أهل يثرب قائلين :

يا معشر الخزرج إنه قد بلغنا أنكم جئتم إلى صاحبنا هذا تستخرجونه من بين أظهرنا ، وتبايعونه على حربنا ، وإنه والله ما من حى من العرب أبغض إلينا من أن تنشب الحرب بيننا وبينهم منكم .

وهنا تجلت حكمة النبى ﷺ فى الأخذ بالأسباب وجعل الأمر فى سرية بعيداً عن القوم . إذا انبرى مشركوا يثرب الذين كانوا يرافقون المؤمنين من أهل يثرب فى رحـــلة الحج وطبعا هؤلاء المشركون من اليثربيين لم يعلموا شيئا عن تلك البيعة التى تمت بين النبى وبين الأوس والخزرج فانبرى كل من المشركين اليثربيين يقسمون بكل الإيمان أنه ما كان شيء من ذلك وما علموا اطلاقاً بلقـــاء تم بين الرسول الله ﷺ وبين

---

(١) راجع ص ٤٤٣ ، ٤٤٤ ، ٤٤٥ ، من ابن هشام ج ١ .

الأوس والخزرج فأنبرى كل واحد من المشركين اليثربين يقسم بكل الإيمان أنه ما كان شيء من ذلك وما علموا أطلاقاً بلقاء تم بين الرسول ﷺ وبين أحد من أهل يثرب حتى أن عبد الله بن أبي الزعيم الذى كان قد أوشك تنصيبة زعيما على يثرب قبل هجرة النبي ﷺ إليها بقليل . أنبرى ذلك المنافق فى الإسلام ونفى ماسمع وقال هذا باطل ، وما كان لقومى ليفتاتوا على مثل هذا . لو كنت بيثرب ماصنع قومى هذا حتى يؤامرونى .

وبالطبع المسلمون ألتزموا بالصمت ولم يتكلم أحد منهم فهم يعلمون حقيقة ما تم بينهم وبين رسول الله ﷺ وأدركوا حكمته فى جعل الأمر فى سرية كاملة(١) .

وهذا يعطى الدعاة درساً فى الحكمة وهم يدعون إلى الله تعالى وعليهم أن يكيفوا كل موقف بما يصلح له ، وتلك هى الثمرة والفائدة من دراسة الدعوة والدعاة وومعرفه مسار طريقها .

---

(١) راجع ابن هشام جـ ١ ص ٤٤٥ إلى ٤٤٨ ، زاد المعاد لإبن القيم جـ ٢ ط ٥ وما بعدها .

أصحاب النبي ﷺ بالمدينة يتحملون أمانة الدعوة والداعية :

عاد أهل يثرب إليها بعد أن تمت بيعة العقبة الثانية — وقد سلمهم الله من المشركين دون أن ينالوا منهم شيئاً — والتف الجميع حول دينهم الحق ودعوة نبيهم الصدق وأخذ القرآن طريقه إلى قلوبهم جميعاً لأن الله تعالى شاء أن يجعلهم الجنود لدعوته فى بادىء أمرها فهـداهم إلى نور الوحى مصداقا لقوله عز وجل [وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا ما كنت تدرى ما الكتاب ولا الإيمان ولكن جعلناه نوراً نهدى به من نشاء من عبادنا وإنك لتهدى إلى صراط مستقيم ، صراط الله الذى له ما فى السموات وما فى الأرض ألا إلى الله تصير الأمور](١) .

ومضت الأيام ، وتألب المشركون بمكة ضد رسول الله ﷺ أكثر وأكثر خاصة بعد موت عمه أبى طالب ، وزوجه خديجة يقول ابن اسحق فى ذلك : لما هلك أبو طالب ، نالت قريش من رسـول الله ﷺ من الأذى مالم تطمع به فى حياة أبى طالب حتى اعترضه سفيه من سـفهاء قريش . فنثر على رأسه تراباً ، ودخل بيته ، والتراب على رأسه ، فقامت إليه إحدى بناته ، فجعلت تغسل عنه التراب وهى تبكى ، ورسول الله ﷺ يقول لها ، لا تبكى يا بنية ، فإن الله مانع أباك . قال : ويقول : بين ذلك : ما نالت قريش منى شيئاً أكرهه حتى مات أبو طالب(٢) .

ويقول أصحاب السيرة قد سمى رسول الله ﷺ هذا العام الذى مات فيه عمه ، وزوجه عام الحزن .

---

(١) سورة الشورى / ٥٢ ، ٥٣

(٢) ابن هشام جـ ١ ص ٤١٦

عوامل التربية للرعيل الأول فى الإسلام :

عندما نتصفح التاريخ ونقرأ صفحاته لنتعرف على ما كان عليه المسلمون الأوائل الذين رباهم النبي ﷺ فى بدء الدعوة نرى مالم يوجد فى الأمم السابقة ، وهنا يحق لكل متعجب من ذلك أن يسأل ماهى العوامل التى بلغت بالمسلمين الأول إلى تلك الغاية القصوى التى جعلتهم يصبرون على ماأصابهم من الإضطهادات إلى ذلك الحد المعجز وللاجابة على ذلك يمكن تلخيص الأسباب فى نقاط :

١ — السبب الرئيسى فى ذلك أولا وقبل أى شىء آخر هو العقيدة الإسلامية التى جعلت المرء يؤمن بالله الواحد الأحد سبحانه وتعالى مع معرفته المعرفة الحقة التى تليق بجلاله وعظمته ، فالإيمان الحق إذا خالطت بشاشته القلوب يزن أقوى شىء فى هذا الوجود بل يفوقه ، وإن صاحب ذلك الإيمان ، وهذا اليقين يدرك بيقين أن متاعب الدنيا مهما كثرت وعظمت فهى من أجل إيمانه هينة مقبولة وصدق الله العظيم إذ يقول : [ألم تر كيف ضرب الله مثلا كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها فى السماء تؤتى أكلها كل حين بإذن ربها ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتذكرون](١) .

٢ — الصبر والمصابرة : تاريخ الصحابة الأول ملىء بالبطولات الفذة فى الصبر وتحمل الأذى فى سبيل الحق الذى آمنوا به ولم يكن ذلك استسلاماً للظلم ولا خنوعاً أمام المسئولية وإنما كان ذلك ، لأن مصلحة الدعوة فى أول أمرها تقتضيه ولقد كان رسول الله ﷺ يمر على أصحابه وهم يعذبون بألوان الأذى فيطمئنهم ويقول: صبراً صبراً فإن موعدكم الجنة،

---

(١) سورة إبراهيم ٢٤ ، ٢٥

واستمع إلى لون مما أصاب المسلمين الأوائل لا فى عبيدهم وضعافهم وإنما فيمن كان لهم شأن فى العرب ألا وهو الصديق أبو بكر رضى الله عنه يقول ابن كثير فى ذلك [وطىء أبو بكر بن أبى قحافة يوماً بمكة ، وضرب ضرباً شديداً ، دنا منه عتبة بن ربيعة ، فجعل يضربه بنعلين مخصوفتين ، ويحرفهما لوجهه ، ونزلوا على بطن أبى بكر حتى مايعرف وجهه من أنفه ، وحملت بنو تيم أبا بكر فى ثوب حتى أدخلوه منزله ولا يشكون فى موته ، فتكلم آخر النهار فقال : مافعل رسول الله ﷺ فمسوا منه بألسنتهم ، وعذلوه ، ثم قاموا وقالوا لأمه أم الخير : أنظرى أن تطعميه شيئاً أو تسقيه إياه . فلما خلت به ألحت عليه وجعل يقول : ما فعل رسول الله ﷺ ؟ فقالت : والله لا علم لى بصاحبك . فقال : أذهبى إلى أم جميل بنت الخطاب فاسأليها عنه ، فخرجت حتى جاءت أم جميل فقالت : إن أبا بكر يسأل عن محمد بن عبد الله ، قالت : ما أعرف أبا بكر ولا محمد بن عبد الله وإن كنت تحبين أن أذهب معك إلى أبنك ذهبت : قالت : نعم . فمضت معها حتى وجدت أبا بكر صريعاً دنفاً ، فدنت أم جميل وأعلنت بالصياح وقالت : والله إن قوماً نالوا هذا منك لأهل فسق و كفر ، وإنى لأرجو أن ينتقم الله لك منهم ، قال : فما فعل رسول الله ﷺ ؟ قالت : هذه أمك تسمع ، قال : فلا شىء عليك منها قالت : سالم صالح ، فقال : أين هو ؟ قالت فى دار ابن الأرقم . قال : فإن لله على ألا أذوق طعاماً ولا أشرب شراباً أو آتى رسول الله ﷺ فأمهلتا حتى إذا هدأت الرجل ، وسكن الناس خرجتا به يتكىء عليهما حتى أدخلتاه على رسول الله ﷺ(١) .

هذا لون من ألوان الأذى الذى أصاب المسلمين الأوائل والذى لم ينج منه أحد منهم بل وصل الأذى إلى رسول الله ﷺ ونال منه الأعداء حتى وهو فى داخل الحرم أمام الكعبة المكرمة ، يدعو ربه ويعبده كما حدث

(١) البداية والنهاية حـ٣ ص٣٠٠ ابن كثير .

بذلك الصحاح من كتب الحديث الشريف،فصبر ﷺ وعلم أصحابه الصبر والمصابرة حتى ضربوا فى ذلك أعظم الأمثلة وأقواها .

٣ — الشعور بالمسئولية : نشأ أصحاب النبى ﷺ على حقيقة الإسلام فهم أول من خوطب بتعاليمه وتحمل مسئوليتها وقام يبلغها للآخرين ومن هنا كانوا أول الناس إدراكا للمسئولية والقيام بواجبها على أكمل وجه وأحسنه ولذلك ما فكروا يوماً فى التخلى عن المسئولية ، ولا انحرفوا عنها بحال من الأحوال كما كانوا هم الرجال الذين وصفهم الله تعـالى بالقيام بهذا العب مهما كلفهم القيام به من تكاليف واستمع إلى القرآن الكريم وهو يقرر ذلك فى وضوح لا لبس فيه ولا خفاء قال تعالى : [من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه ، فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلا](١) .

٤ — من الأسباب الهامة أيضاً التى جعلت الرعيل الأول من أصحاب النبى ﷺ يتحملون ما تحملوه بصورة فريدة فى تاريخ البشرية جمعـاء — إيمانهم باليوم الآخر — ولذلك نجد فى كثير من آيات القرآن الكريم الإيمـان بالله تعالى يأتى مقرونا بالإيمان باليوم الآخر كما جاء فى قوله تعالى : [ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر . .] الآية(٢).

وفى قوله تعـالى : [الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومـا رزقناهم ينفقون ، والذين يؤمنون بمـا أنزل إليك ، وما أنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون](٣) .

---

(١) الأحزاب / ٢٣
(٢) البقرة / ١٧٧
(٣) البقرة / ٤١٣

وهكذا نجد الآيات كثيرة فى سور القرآن الكريم التى يأتى فيها الإيمان بالله مقرونا بالإيمـــان باليوم الآخر ، وذلك يدل دلالة واضحة على أن الإنسان مع إيمانه بالله يحتاج إلى ما يذكره بمحصول عمله خيراً كان أو شراً ويوضح له الجزاء الذى يناله نتيجة لهذا العمل .

وقد نشأ الإسلام المسلمين عـــلى الإعتقاد بأن الجزاء على العمل فى صورته الكاملة هو مايكون فى الحياة الآخرة بعد البعث لحياة الخلود والبقاء ومن هنا ندرك ماكان من ذلك الصحابى الذى سمع قوله تعالى : من سورة الزنزله [فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره] فرجع هاتفاً بقلبه ولسانه أولنا رب يحاسبنا على الذرة ، أو لنا رب يحاسبنا على الذرة وما زال يكرر ذلك وهو منكب على عبادة الله تعالى مجتنبا كل ما حرمه جل وعـــلا ، حتى لقى ربه على أحسن حال .

٥ — وقد أدرك المسلمون كل تلك الحقـائق من القرآن الكريم وهو من أهم الأسباب والعوامل بل هو أساسها فى تربية المسلمين وغرس تلك الروح وهذه الخلق فيهم حتى صاروا رجالا بتلك الكيفية التى فاقوا بها كل الناس فى جميع الأمم وعلى أختلاف العصور لأن القرآن غرس فيهم أنهم وجدوا فى الدنيا لوسيلة يقومون بها حتى يصلوا إلى غاية منشودة فى الدار الآخره تلك هى العبادة الصادقة التى كلفهم بها الله تعالى ليحصلوا على النعيم الأبقى فى الدار الآخرة .

قال تعالى : [وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمـون إن الله هو الرزاق ذو القـــوة المتين] .

العبادة فى الدنيا هى الهدف الحق الذى خلق من أجله المرء ليوصله

إلى غاية كريمة وهى الحصول على مرضاة الله تعالى لينال جزاءه ومحبته فى الدارة الآخرة ، تلك أهم الأسباب التى ربت المسلمين تربية فريدة من نوعها فى حياة البشرية كلها وقد نتج عنها ماقدمه المسلمون الأوائل لصالح المجتمع ما كان ولم يزل هو الوحيـــد لسعادة الأفراد والمجتمعات فى الحيـاة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد .

الدعوة بالمدينة والمراحل التى مرت بها

العهد المدنى بالنسبة للدعوة الإسلامية يختلف عن العهد المكى حيث نجد بالمدينة أن الأنصار جندوا كل ما يملكون من نفس ومال وولد، ومواهب فى خدمة الدعوة والعمل على النهوض بها، كما كانوا فى نفس الوقت مستجيبين إستجابة كاملة لله وللرسول ما عرف الإسلام مثلها فى سائر المراحل التى مرت وتمر به.

ويمكن تقسيم العهد المدنى إلى مراحل ثلاث:

المرحلة الأولى: مرحلة حرجة أثيرت فيها الفتن والقلاقل وأقيمت العراقيل من الداخل ويمكن تحديد تلك المرحلة إلى صلح الحديبية الذى تم فى ذى العقدة من السنه السادسة للهجرة النبوية.

المرحلة الثانية: مرحلة ما بعد صلح الحديبية حتى تحقق فتح مكة سنة ٨ هـ وتلك المرحلة تعد مرحلة هدنة من أهل الشرك والوثنية وقد تم فيها دعوة الملوك والقادة فى كل البقاع للتعرف على الإسلام والإقبال على دعوته والإيمان بها.

المرحلة الثالثه: مرحلة إقبال الناس على الإسلام والدخول فيه جماعات وأفواجا، وتمتد تلك المرحلة إلى أن انتقل ﷺ إلى الرفيق الأعلى فى ربيع الأول من السنة الحادية عشر للهجرة.

المرحلة الأولى: يظن كثير من الناس خطأ وعدم فهم للإسلام وطبيعته أن الهجرة كانت هروبا وفرارا من الميدان وهذا انحراف فى التفكير يبطله واقع المسلمين بعد الهجرة فقد كانت الهجرة من أجل إقامة الوطن الإسلامى الذى منه تحققت الإنطلاقة القوية الوثابة التى تشمل

وطن الإسلام وهو الدنيا بأثرها، لتحقيق عالميه الإسلام وتعم دعوته أهل الأرض جميعاً وتلك طبيعته وخاصيته كما مر ذكر ذلك بالدليل ويدون منازعة فقد كان ﷺ فى المدينة هو الإمام والقائد الذى يضع الأسس لبناء هذا المجتمع ولذلك كان زمام الأمر بيده ﷺ يوجهه الله ويرشده لما فيه صلاح الدعوة والمدعوين إليها .

ويمكن تقسيم الأصناف التى كان يواجهها ﷺ فى المدينة إلى ثلاثة أصناف بين كل صنف فيها اختلاف بين وتلك الأصناف هى : —

أولا : الصفوة المختارة من البشرية حملة لواء الإسلام وهم أصحابه الكرام رضى الله عنهم أجمعين .

ثانيا : المشركون الذين لم يؤمنوا بعد ، وهم من صميم القبائل المدنية ويحتاجون إلى داعية موهوب حتى يمكن تحويلهم إلى الإسلام .

ثالثا : اليهود : وهم مصدر القلاقل والفتن ووراء كل عائقة ضد الإسلام ودعوتة . كما سجل الواقع كل المتاعب التى كانت منهم وبسببهم ضد رسول الله ﷺ وضد الدين الخاتم الذى بعثه به ربه تعالى لسائر أهل الملك والأجناس .

(أ) ووضع المسلمين الأوائل فى المدينة كان يختلف عما كانوا عليه بمكة المكرمة فهم فى مكة وإن كان الإسلام جمع كلمتهم ووحد صفوفهم إلا أنهم كانوا يعيشون فى بيوت شتى ، مقهورين ينال منهم الأعداء بين الحين والآخر وتلك كانت مرحلة التربية والتمحيص حتى يصبحوا أهلا لحمل لواء الدعوة والنهوض بها وتبليغها للناس ولو ضعهم ذلك فى مكة قبل الهجرة ، ما كانوا يستطيعون إقامة مجتمعهم الإسلامى الجديد الذى يتناسب مع الإسلام وقوته وفاعليته أما فى المدينة فكان أمر المسلمين بأيديهم منذ اللحظة الأولى ولم يكن عليهم سيطرة من أحد .

ومن هنا كان عليهم أن ينهضوا بمسائل الدعوة وإقامة مجتمعها المسلم الصادق ولا يتحقق ذلك إلا بتحقيق : مسائل العيشة والاقتصاد، ومسائل السلم والحرب ، ومسائل القيادة وسياسة الأمور ، كل ذلك يقوم على أصول الإسلام وفروعه فى العقيدة ، والعبادة ، والسلوك والأخلاقيات

ولذلك كله أدركوا أن الأوان قد آن لتكوين ذلك المجتمع الجديد مجتمع الإسلام الذى يختلف فى جميع مراحل الحياة عن المجتمع الجاهلى وفى الوقت نفسه يمتاز عن أى مجتمع يوجد فى العالم الإنسانى ويصبح مثلا للدعوة الإسلامية التى تحمل المسلمون من أجلها ألوانا شتى من العذاب والنكال الأليم طيلة ثلاث عشر سنة منذ البعثه حتى الهجرة .

وصدق الله العظيم فيما بين لعباده فقد أخبرنا فى القرآن الكريم أن النبى محمداً ﷺ بعث معلما ومزكيا فى كل مجالات الدين والدنيا قال تعالى [لقد من الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفى ضلال مبين](١) .

وقال سبحانه [هو الذى بعث فى الأميين رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفى ضلال مبين](٢) وقد بين القرآن الكريم أن هؤلاء الصحابه كانوا مقبلين على الله ورسوله إقبالا طيبا مباركا مثمراً [إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانا وعلى ربهم يتوكلون الذين يقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون أولئك هم المؤمنون حقا لهم درجات عند ربهم ومغفرة ورزق كريم](٣)

---

(١) سورة البقرة ١٦٤ — (٢) سورة الجمعة ٢
(٣) سورة الأنفال ٢ — ٤

(ب) الصنف الثانى وهم المشركون الذين بقوا على شركهم وضلالهم والذين كانوا من صميم قبائل يثرب ، فهؤلاء لم تكن لهم سيطرة على المسلمين. بل كان منهم من تراوده نفسه بالدخول فى الإسلام وترك دين الآباء والأجداد وهذا الفريق من الصنف الثانى ما كان يبطن عداوة للاسلام ورسوله وقد هيأ الله له الإسلام فأسلم أفراد ذلك الفريق بعد فترة بسيطة من هجرته ﷺ وصدقوا فى إسلامهم وأخلصوا لله فى عبادتهم وكانوا من الدعاة إلى الإسلام الصادقين .

أما الفريق الثانى من صنف المشركين فكانوا يكنون العداوة الشديدة للإسلام وأتباعه ، وعلى رأس هذا الفريق . عبد الله بن أبى بن سلول وتعود عداوة هذا الرجل للنبى ﷺ وتأليف كافة المشركين معه بيثرب ضد الرسول ودعوته أن الأوس والخزرج كانوا قد رشحوه رئيسا على المدينة ، وكان على وشك أن يصير ملكا فيهم لولا أن باغتهم مجىء الرسول ﷺ بالهجرة إليهم ، وانصراف قومه عنه إلى النبى ﷺ ، فمن ذلك كان يرى ابن أبى المنافق أن النبى عليه الصلاة والسلام استلبه ملكا كاد يتوج عليه فكان ذلك سر عداوة عبدالله بن أبى وكيده للرسول وتأليب الناس فى أية فرصة تسمح له ، ضد الإسلام والمسلمين ،

ولكن قد فكر عبد الله بن أبى طويلا ماذا يفعل واستمر فى التفكير حتى وقعت غزوة بدر بين رسول الله ﷺ وبين مشركى مكة وكتب الله النصر فيها للمسلمين وكتب الهزيمة على المشركين فعندئذ وجد هذا المنافق نفسه فى ضياع لكل شىء وحرمان من كل شىء إن هو أعلن بالعداوة ضد الإسلام ورسوله ، فأسلم عقب غزوة بدر إسلاماً ظاهراً وأخفى الكفر فى قلبه وكان ذلك بداية النفاق فى المدينة الذى كان عقبة كئود ضد الدعوة والدعاة . فلم يكن هناك أشد خطورة على الدعوة ورجالها من المنافقين الذين يظهرون الإسلام والمودة ويخفون الكفر والعداوة

وتاريخ الإسلام مليء بالأحداث الجسام التي كادت تقضى على مسيرته والتي كان يشعل لهيبها المنافقون وعلى رأسهم عبد الله بن أبى رأس النفاق والمنافقين .

(حـ) الصف الثالث من الأصناف التي واجهها رسول الله ﷺ بالمدينة بعد الهجرة — اليهود — الذين كانوا قد لجأوا إلى يثرب منذ الاضطهادات التي حلت بهم على أيدى الرومان وغيرهم وكانوا ينظرون إلى العرب نظرة سلب للأموال ونظرة خسة فى المعاملة قال عنهم فى ذلك [ذلك بأنهم قالوا ليس علينا فى الأميين سبيل ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون](١) .

وقد ساعد اليهود أن يكونوا أصحاب قوة ونفوذ يثرب على أهلها الأصليين من العرب — ما كانوا عليه من مهارة فى مجال الكسب والمعيشة إذ كانت فى أيديهم التجارة فى الحبوب والتمر والثياب والخمور وغير ذلك مما يباع ويشترى فى زمانهم ذلك .

وكانوا يأخذون المنافع فى المعاملات المالية أضعافا مضاعفة وعلى رأس تلك المعاملات معاملة الربا الفاحش الذى عن طريقه استولوا عل الكثير من أموال الأوس والخزرج بالمدينة .

أضف إلى ذلك أنهم كانوا — وما يزالون — أصحاب دسائس ومؤامرات ، وعقود فساد فى كل شيء ، يلقون العداوة والشحناء بين القبائل العربيه المجاورة ، حتى تستمر الحروب الطاحنة الفتاكة بين العرب وهم فى ذلك الجو المضطرب يسودون ويثرون الثراء الفاحش الغير مشروع .

---

(١) سورة آل عمران /٧٥

وقد حدثتنا كتب الحديث والسير أن اليهود بيثرب كانت تمثلهم ثلاث طوائف وهم :

طائفة بنو قينقاع ، طائفة بنو النضير ، طائفة بنو قريظة وكان بنو النضير ، وبنوا قريظة ، بينهم وبين الأوس حلفاء كانوا يسكنون ضواحى المدينة ، وفى نفس الوقت كانوا يثيرون الحروب بين الأوس والخزرج منذ أمد بعيد وقد اشتركوا بالعقل فى معركة بعاث المشهورة والتى أكلت النسل والحرث فى الأوس والخزرج على مدى عشر سنوات ولم يطفىء نارها إلا نور الإسلام بعد هجرة النبى ﷺ .

وهؤلاء اليهود بتلك الصورة ما كان يرجى منهم أبداً مهادنة الإسلام أو الدخول فيه ، والعمل من أجل مصلحته — كلا كلا خاصة أن الرسول محمداً ﷺ لم يكن من نسل إسرائيل وإنما هو من ذرية إسماعيل وبذلك فهو خارج عن جنسهم ولابد أن يحارب حتى يقضى عليه وعلى دعوته تلك نظرة اليهود إلى الإسلام والمسلمين منذ الفجر الأول للاسلام .

واليهود بالإضافة لما سبق ، يخشون قوة الإسلام إن هو قام وانتصر بأتباعه وفى ذلك تهـديد للأموال المكدسة التى استولوا عليها من أهل المدينة بالمعاملات الغير مشروعة لكل ذلك كانوا فى أشد العداء للاسلام ونبيه وصدق الله العظيم [لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا](١) .

وتعال معى أيها القارىء الكريم انقف على شىء من ذلك كما جاءت فى كتب التراث .

---

(١) المائدة / ٨٣

جاء فى سيرة ابن هشام عن ذلك ما يأتى : قال ابن إسحق : [حدثت عن صفية بنت حيي بن أخطب أنها قالت : كنت أحب ولد أبى إليه ، وإلى عمى أبى ياسر ، لم ألقهما قط مع ولد لهما إلا أخذانى دونه قالت : فلما قدم رسول الله ﷺ المدينة ، ونزل قباء فى بنى عمرو بن عوف ، غدا عليه أبى ، حيي بن أخطب وعمى أبو ياسر ، مغلسين ، قالت : فلم يرجعا حتى كانا مع غروب الشمس ، قالت : فأتيا كالين كسلانين ساقطين يمشيان الهوينى قالت فهششت إليهما كما كنت أصنع فوالله ما التفت إلى واحد منهم ، مع ما بهما من الغم ، قالت . وسمعت عمى أبا ياسر ، وهو يقول لأبى حيي بن أخطب : أهو هو ؟ قال : نعم والله ، قال أتعرفه وتثبته ؟ قال : نعم ، قال : فما فى نفسك منه ؟ قال : عداوة والله ما بقيت(١) .

انظر إلى ما دار فى ذلك الحوار بين أخوين من اليهود تجد أنهما عرفا أنه رسول الله وتأكدا من ذلك ومع هذا فيقول الأخ لأخيه إجابة على سؤاله له عن شعوره نحو رسول الله عليه الصلاة والسلام ، إنها العداوة والله ما بقيت] لما ألأنه رسول من الله ؟ ألأنه جاء مطابقا لما جاء عنه فى التوراة على لسان موسى عليه السلام كلا .

وإنما هى العداوة من أجل الدنيا وكسبها ومظاهرها ومن أجل ذلك حرفوا كتبهم المقدسة وبدلوها كما قال تعالى(٢) [فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمنا قليلا فويل لهم مما كتبت أيديهم وويل لهم مما يكسبون .

وهناك مشهد آخر يختلف عن الأول فى مغزاه ، ذلك لأن فيه

---

(١) سير ابن هشام حـ ١ ص ٥١٨ ، ٥١٩

(٢) سورة البقرة /٧٩

علم من أعلام اليهود بعد أن أفحم قومه وأظهر خستهم وإنحراف خلقهم .

ويروى البخارى فى صحيحه بشأن عبد الله بن سلام رضى الله عنه وقد كان حبراً من أحبار اليهود وعلما من أعلامهم السيد المطاع فى قومه قبل إسلامه .

لما سمع عبد الله بن سلام بمقدم رسول الله ﷺ إلى المدينة فى بنى النجار أتى مسرعاً إليه ﷺ وسأله أسئلة لا يعلم الإجابة عنها إلا نبى ، وأجابه رسول الله ﷺ فيما سأل عنه ، ولما سمع الجواب فى كل ما سأل علم أنه نبى ، وأسلم وأعلن عن إسلامه قبل أن يقوم من مجلسه ، ثم قال لرسول الله ﷺ : يارسول الله ، إن اليهود قوم بهت إن علموا بإسلامى قبل أن تسألهم بهتونى عندك ، فأرسل رسول الله ﷺ إليهم ، فجاءوا ، ودخل عبد الله بن سلام البيت مختبئا ، فقال رسول الله ﷺ : أى رجل فيكم عبد الله بن سلام ؟ قالوا : أعلمنا وابن أعلمنا ، وأحبرنا وابن أحبرنا ، وفى عبارة أخرى ، سيدنا وابن سيدنا ، وفى لفظ ثالث (خيرنا وابن خيرنا ، وأفضلنا وابن أفضلنا فقال رسول الله ﷺ [أفرأيتم إن أسلم عبد الله ؟ فقالوا : أعاذنا الله من ذلك — كرروا ذلك مرتين أو ثلاثاً — فخرج إليهم عبد الله رضى الله عنه فقال أشهد ألا إله إلا الله ، وأشهد أن محمداً رسول الله . فقالوا : شرنا وابن شرنا ، ووقعوا به . وفى لفظ فقال : يا معشر اليهود اتقوا الله ، فو الله الذى لا إله إلا هو إنكم لتعلمون أنه رسول الله ، وأنه جاء بحق . فقالوا : كذبت(١) .

وهكذا أعلن اليهود عن أخلاقهم وموقفهم من الإسلام وأهله ودعوته

---

(١) راجع صحيح البخارى جـ ٢ ص ٤٥٦ ، ٥٥٩ ، ٥٦١

أمام رسول الله ﷺ من أول يوم ، وكان لابد من أخذ الحيطة والحذر ضد هذا العدو المتربص القريب .

تلك أهم الأصناف التى واجهها ﷺ بالمدينة المنورة وقد وضع ﷺ الأسس المتينة والمواجهة الجادة لكل ذلك حتى يستطيع أن يقوم بمهام الدعوة ويوصلها لكل الناس تحقيقا لما أوجب الله تعالى عليه فى شأنها ومن أراد المزيد من ذلك فعليه مراجعة كتب الحديث والسير فى هذا المقام .

وإليك إشارة سريعة تليق بالمقام عن ذلك .

بالنسبة للمسلمين قد وضع ﷺ المنهج الإسلامى الصحيح الذى يعد النموذج الطيب للمسلمين الدعاة فقد كان للعبادة الصادقة التى أسس من أجلها المسجد النبوى من أول يوم نزل به المدينة ، كما جعله مدرسة للعلم والفقه فى الدين الأثر الطيب الفعال فى هذا المجال ، وبإضافة لذلك فقد حقق الأخوة الإسلامية الصادقة بالقرآن الكريم وبالتربية العملية بالاخاء بين الأوس والخزرج أولا ثم الإخاء بين المهاجرين والأنصار الذى حقق أخوة وتعاونا إسلاميا ما عرفت الدنيا مثله كما سجل القرآن الكريم ذلك فى قوله عز وجل [والذين تبوءوا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم ولا يجدون فى صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون](١) .

أما عن المشركين فقد عرض عليهم الإسلام وحببهم فيه فاسلم معظمهم ولم يبق إلا العدد القليل كما سبق أن أشرت وعلى رأسهم عبد الله ابن أبى الذى حقد على الاسلام لأنه رأى أنه حرمه الملك والسيادة على

---

(١) سوره الحشر / ٩

يثرب كلها ، وقد أسلم هذا الفريق إسلام المنافقين ، وكانوا فى كل موقف يظهر فيه نفاقهم يعاملهم الرسول ﷺ المعاملة الحكيمة التى تكشف حقائقهم للآخرين والتى تثبت لهم أن محمداً رسول الله حقا ، وكان فى ذلك هدم لدسائسهم ومكرهم كما كان فيه ظهور الإسلام وإبراز خلقه وآدابه وذلك هو مسلك الدعاة الصادقين فى معالجة المشاكل التى يصعب علاجها إن لم يستحيل انظر إلى رسول الله ﷺ عندما كان يبرز موقف من مواقف المنافقين الغادر فيستأذن الصحابة رسول ﷺ فى القضاء على أولئك المنافقين فيرد ﷺ قائلا :

[إنى أخشى أن يتحدث الناس إن محمداً يقتل أصحابه] .

انظر إلى حلمه ﷺ وحكمته فقد خشى إن يتخذ الناس قتل المنافقين — وإن كانوا يستحقون ذلك — ذريعة للتقول على الإسلام والمسلمين فيكون الضرر فى ذلك أشد من ضرر الصبر على أذى المنافقين وتصرفاتهم ضد الإسلام وأهله .

أما عن الصنف الأخير من الأصناف التى واجهها ﷺ بالمدينة وهم اليهود الذين دعاهم ﷺ إلى الإسلام فأبوا بعد أن عــرفوا أنه الحق بشهادتهم هم أنفسهم فاكتفى ﷺ منهم أولا : بعقد معاهدة حسن الجوار والتعاون على ما فيه مصلحة البلاد ومن يسكنونها على أن يأمن المسلمون على أنفسهم ودينهم وأموالهم وأعراضهم ولليهود نفس الحق فى ذلك المجال .

وفوق ذلك فقد عاملهم ﷺ أحسن معاملة وإن كانوا هم لم يبادلوه نفس المعاملة. كما وصى أصحابه أن يحسنوا معاملتهم إظهاراً لأخلاق الإسلام . وكان عليهم أن يحسنوا هم النظرة للإسلام والمسلمين ، خاصة أن الله تعالى قد أمر رسوله ﷺ باستقبال بيت المقدس فى صلاته وهى قبلة أنبى بيائه

إسرائيل جميعاً وإن كان يتمنى أن تكون قبلته البيت الحرام ولكنه ﷺ مأمور باتباع أوامر الله تعالى وتنفيذها كما جاءت إليه .

ومع كل ذلك فقد بقيت أخلاق اليهود هي أخلاقهم وكيف لا يكون أمرهم كذلك وقد عاملوا أنبياءهم بما يؤذيهم ويوقع فيهم القتل والتكذيب وقد جاء ذلك في قوله تعالى (وقالت اليهود يد الله مغلولة غلت أيديهم ولعنوا بما قالوا بل يداه مبسوطتان ينفق كيف يشاء وليزيدن كثيراً منهم ما أنزل إليك من ربك طغيانا وكفرا وألقينا بينهم العداوة والبغضاء كلما أوقدوا ناراً للحرب أطفأها الله ويسعون في الأرض فساداً والله لا يحب المفسدين) (١) .

وقال تعالى (ولقد آتينا موسى الكتاب وقفينا من بعده بالرسل وآتينا عيسى بن مريم البينات وأيدناه بروح القدس أفكلما جاءكم رسول بما لا تهوى أنفسكم استكبرتم ففريقاً كذبتم وفريقا تقتلون) (٢) .

ولذلك نجد النبي ﷺ قد صفى الحساب معهم فأدب بني قينقاع عندما أهانوا سيدة مسلمة بالسوق وكشفوا سوءتها وقتلوا أحد المسلمين الذي غار وثار لعرض تلك المسلمة وكانوا بذلك قد نقضوا معاهدة الرسول معهم فأجلاهم ﷺ الى أذرعات بالشام وكانوا حوالى من سبعمائة مقاتل وهذا أقل عقاب ينزل بهم جزاء ما ارتكبوا .

أما عن يهود بني النضير فقد ذهب إليهم ﷺ يطلب منهم التعاون مع بني عامر حلفائهم في دفع دية سرية القراء فتظاهروا بقبول ما عرض عليهم ﷺ ، واستغلوا وجود الرسول بينهم وهو جالس تحت حائط

---

(١) المائدة / ٦٤

(٢) سورة البقره / ٨٧

لهم فتآمروا فيما بينهم أن يقوم أحدهم ويلقى بحجر من أعلى الحائط فيلقيه على رسول الله ﷺ فيقتله ويستريحون بذلك منه ومن دعوته .

ولكن الله تعالى أخبر نبيه عن طريق الوحى بما اتفقوا عليه من غدر وخيانة وأمره بالانصراف فوراً فقام الرسول وعاد إلى المدنية وحاصرهم ثم أجلاهم ، فنزل بعضهم بخيبر وبعضهم ذهب إلى أذرعات واقرأ فى ذلك سورة الحشر التى نزلت فيهم ومنها قوله تعالى (هو الذى أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم لأول الحشر ماظننتم أن يخرجوا وظنوا أنهم مانعتهم حصونهم من الله ماتاهم الله من حيث لم يحتسبوا وقذف فى قلوبهم الرعب يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدى المؤمنين فاعتبروا ياأولى الأبصار ، ولو لا أن كتب الله عليهم الجلاء لعذبهم فى الدنيا ، ولهم فى الآخرة عذاب النار)(١) .

أما بالنسبة لبنى قريظة فقد انضموا إلى المشركين ومن حالفهم ضد الإسلام وكانت غزوة الأحزاب التى كادت أن تقضى على الإســلام والمسلمين لولا لطف الله بعبادة ونصره للمؤمنين وكان الحساب الصارم معهم بعد الغزوة وتحكيم سعد فيهم تلبية لطلبهم فحكم فيهم بقتل الرجال وسبى الأطفال والنساء فقال له رسول الله ﷺ (لقد حكمت فيهم بحكم الله من سبع سموات) .

وبعد صلح الحديبية أبقى رسول الله بعضا من يهود خيبر لزراعة الأرض ، وأجلى البعض الآخر وظل الأمر كذلك حتى خلافة عمر بن الخطاب رضى الله عنها فقضى على ، فتنهم وطهر الجزيرة العربية كلها من دسائسهم وأحقادهم وساد الإســلام فى تلك البلاد كما وعد الله عبادة المؤمنين بذلك .

---

(١) سورة الحشر ٢ ، ٣ .

ماذا بعد ؟ .

لقد كان النبي صلى الله عليه وسلم مشغولا فى المدينة عقب الهجرة النبوية بهذا العدو الداخلى من اليهود والمنافقين ومن لم يسلم بعد من أهل يثرب وماجاورها .

كما كان ﷺ مشغولا بأعداء الإسلام خارج المدينة وعلى رأسهم قريش .

وكل ذلك كان عائقا أجل العمل على نشر الإسلام خارج المدينة بشكل رسمى وإن كان تبليغ الدعوة مستمراً لم يتوقف . عندئذ انتهز ﷺ فرصة الهدنة بينه وبين قريش التى تمت فى عقد الحديبية وسلك ﷺ الخطوة الرسمية الإيجابية لنشر الدعوة وتبليغها خارج المدينة فى داخل الجزيرة العربية ، وخارجها ، وتجلى ذلك فى البعوث التى كان يرسل بها من وقت لآخر للتبليغ وإرشاد المسلمين فى أداء واجباتهم .

والملاحظ أن النبى ﷺ كان يوجه تلك البعوث إلى ذوى السلطان والنفوذ . وكان من أفراد تلك البعوث من أسلموا من قبل وكانوا منتسبين إلى تلك القبائل التى كان النبى يرسل إليها ليدعوهم إلى الله وكان من حكمته ﷺ أن يكلف أو لئك الأفراد الذين أسلموا للقيام بتلك المهمة فى قبائلهم بالقدر الذى يسمح لهم .

ومن تلك البعوث التى تمت داخل الجزيرة العربية :

(أ) وفد الرجيع الذى يتكون من ستة رجال من أصحاب النبى ﷺ فيهم عاصم بن ثابت ، مرثد بن أبى مرثد الغنوى ، وخبيب ، وقد بعث بهؤلاء النفر من أصحابه بناء على طلب قـــدمه رهط إلى النبى ﷺ من عضل ، والقارة بحجة أنهم فى حاجة إلى من يعلمهم الإسلام ويفقههم فى الدين ، وقد استجاب ﷺ لطلبهم وأرسل معهم ذلك الوفد من أعظم رجاله علما

وإيمانا وعند الرجيع وهو ماء لهزيل يقع بين مكة والحجاز غدر القوم بأصحاب النبي ﷺ ، وقد نال هؤلاء الصحابة أجر الجهاد وتبليغ الدعوة والاستشهاد من أجل الحق الذى آمنوا به .

(ب) كما بعث ﷺ داخل الجزيرة جماعة من القراء إلى بئر معونة ، وكان عددهم نحواً من سبعين صحابيا على بعض الروايات ، وكان ذلك أيضاً تلبية لطلب أهل تلك البقاع غير أن القوم غدروا بأصحاب النبى قراء القرآن وأصابهم من جراء ذلك مافيه أعلى الأمثلة وأعظم البطولات .

(ج) كما أرسل ﷺ معاذ بن جبل ومعه أبو موسى الأشعرى رضى الله عنهم أجمعين ، إلى اليمن ليدعوا أهلها إلى الإسلام ، وقد كان لخلق الداعين من أصحاب النبى أعظم الأثر فى استجابة أغلب الناس للإسلام وإخلاصهم له والدعوة إليه .

وقد أرسل رسول الله ﷺ ابن عمه علياً ابن أبى طالب إلى اليمن أيضاً ليواصل ما قام به معاذ بن جبل وصاحبه وقد أزال كل العقبات التى وقعت فى طريق الدعوة وانتصر على كل المشاكل فأسلم معظم من بقى من أهل اليمن. وقد وفد على بهم إلى رسول الله ﷺ فى موسم الحج بمكة المكرمة .

وهكذا توالت الوفود والإرساليات الإسلامية من قبل النبى ﷺ إلى بلاد الجزيرة كلها حتى يتحقق توصيل الدعوة إليهم ، ومن ذلك ، بالاضافة لما ذكر ، وفد خالد بن الوليد الذى ذهب بتكليف من النبى ﷺ إلى بنى عبد المدان فى نجران ، وكانوا نصارى ، ليدعوهم إلى الإسلام ، فأسلموا وأقام فيهم خالد رضى الله عنه مدة يعلمهم الإسلام ويفقههم فى الدين ، ثم وفد على النبى ﷺ بعد ذلك ، ومعه بعض القوم الذين أسلموا .

وقد استعصى الأمر فى بعض مواطن باليمن وعاند أهلها ولم يدخلوا الإسلام ، وقد أرسل إليهم رسول الله ﷺ خالد بن الوليد الذى مكث

فيهم ستة أشهر وكانوا من همدان ثم لحق على أيضاً بالقوم ودعاهم إلى الإسلام ولكن القوم عاندوا عناداً شديداً فقاتلهم على رضى الله عنه حتى انهزموا، وتم إسلامهم بعد ذلك، وهكذا استمرت الدعوة داخل الجزيرة يقوم بها أصحاب النبي بتكليف منه ﷺ حتى تم الأمر وانتصر الإسلام.

ومن البعوث إلى الزعماء فى داخل الجزيرة العربية أيضاً بعث المهاجر ابن أمية المخزومى الذى وجهه رسول الله ﷺ إلى الحارث بن عبد كلال أحد أقيال اليمن فأسلم.

وجرير بن عبد الله البجلى الذى وجهه ﷺ أيضاً إلى ذى الكلاع وذى عمير الحميرى فأسلما، والعلاء بن الحضرمى إلى المنذر بن ساوى أمير البحرين فأسلم، وعمرو بن العاص إلى جيفر وعبد الله بن الجلندى، ملكى عمان فأسلما.

وسليط بن عمر العامرى إلى هوذة بن على الحنفى صاحب اليمامة، غير أنه لم يسلم، وشجاع بن وهب إلى الحارث بن أبى شمر الغسانى، بغوطة دمشق فلم يسلم.

وهكذا توالت البعوث والوفود من قبل النبى ﷺ على الشعوب والملوك إقامة للحجة عليهم وترغيباً لهم فى الإسلام.

أما فى خارج الجزيرة العربية فإن البعوث إلى أهل تلك البلاد تتمثل فيمن حملوا كتب النبى ﷺ ورسائله إلى الملوك المجاورين للجزيرة العربية والذين يمثلون القارات الثلاث، آسيا، وأوربا، وأفريقيا وإليك الإشارة إلى بعضهم.

كتابه ﷺ إلى هرقل قيصر الروم وقد حمل الكتاب إليه الصحابى الجليل دحية الكلبى الذى كان ينزل الوحى أحيانا على رسول الله ﷺ فى صورته، وقد سلم دحية كتاب النبى إلى عظيم بصرى وهو الحارث

ابن أبي شمر الغساني فقدمه إلى هرقل قيصر الروم ، وقد صادف أن كان أبو سفيان بن حرب بالشام فتحدث معه هرقل فى شأن النبى ودعوته وكان أبو سفيان فى تجارة وكانت فى وقت الهدنة مع النبى ﷺ ولم يستطع الكذب على هرقل بالتقول على النبى ﷺ خشية أن يخص الناس عليه ذلك ، فيعير به .

وقد شاور هرقل قومه فى شأن الكتاب الذى وصله من النبى ﷺ والذى تأثر به لدرجة أنه هم بالدخول فى الإسلام إلا أن قومه حاصعوا فى وجهه حيصة حمر الوحش وأنكروا عليه ذلك .

ويروى الإمام أحمد فى مسنده أن هرقل كتب إلى النبى ﷺ من تبوك يخبره باسلامه ، غير أن النبى ﷺ كذبه وأخبر أن هرقـــل لم يزل على نصرانيته .

٢ — كما كتب ﷺ إلى كسرى أبرويز ملك الفرس ، وأرسل الكتاب مع عبد الله بن حذافة السهمى وأمره أن يدفع الكتاب إلى عظيم البحرين المنذر بن ساوى ليسلمه بدوره ، لكسرى .

غير أن كسرى مزق كتاب النبى ﷺ ولم يسلم وأخذته العزة بالإثم فأرسل إلى باذان عامله على اليمن أن يوجه إلى النبى من يقتله ، ولكن الله تعالى مزق ملك كسرى وكان ذلك على يد ابنه شـيروية الذى قتل أباه كسرى ليحكم البلاد مكانه ، وقد أخبر النبى ﷺ بذلك إذ أنه ما أتاه رسولا باذان عامل كسرى على اليمن أخبرهما رسول الله ﷺ بقتل كسرى على يدى ولده وشيرويه .

فلما عادا أخبراه بما سمعا من النبى ﷺ وتحقق صدق خبره ﷺ فأسلم باذان وأسلم باسلامه خلق كثير من الفرس الذين كانوا باليمن ويعد باذان أول من أسلم من ملوك اليمن وأمرائها .

٣ — وقد كتب ﷺ أيضاً إلى المقوقس عامل الروم على مصر وبعث بالكتاب مع حاطب بن أبي بلتعة ، فسلمه إلى المقوقس بالإسكندرية وبعد محاورة طويلة مع حاطب قال المقوقس لحاطب سأنظر فى الأمر وأرسل إلى رسول الله ﷺ بهدايا ولم يسلم .



٤ — كما كتب ﷺ إلى النجاشى أصحمة وبعث بالكتاب مع عمرو بن أمية الضمرى فأسلم النجاشى وحسن أسلامه .

وقد جاء نص كل كتاب أرسل به ﷺ إلى كل ملك أو عامل من عمال الملوك فى كتب السير والحديث وقد جمع نصوصها بدقة الدكتور / محمد حميد الله الحيدر أبادى فى كتابه الذى سماه مجموعة الوثائق العباسية للعهد النبوى والخلفة الراشدة وذكر نص كل كتاب وسنده فليرجع إليه من يريد الوقوف على تلك النصوص .

وهذه الكتب جميعها تدل على أنه ﷺ قد قام بتبليغ الدعوة العالمية وهو يعلم أنها عامة لكل البشر .

وفى ذلك رد واقعى وحاسم على من زعموا أن عالمية الإسلام لم تكن فكرة عند رسول الله ﷺ وإنما قام بها خلفاؤه من بعده وقد أوضحت تلك الفكرة ونسبتها إلى قائليها عند الكلام عن خصائص الدعوة من هذا الكتاب فليرجع إليه من يريد التفصيل .



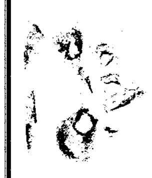
وقد قام النبى ﷺ بتبليغ الدعوة خير قيام فى داخل الجزيرة وخارجها كما رأينا وفى ذلك تحقيق لقوله تعالى [يأيها النبى إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً] وقوله : [تبارك الذى أنزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً] .

وقد أصلح الله تعالى شئون العباد بهذا الاسلام سواء فى ذلك من طعم

كتاب سماوى ومن ليسوا أهل كتاب وتحقق المجتمع المسلم الصحيح الذى فيه نال الإنسان حقوقه كانسان وعادت إليه كرامته وحريته .

والآن وقد عاد البشر إلى أسوء مما كان قبل بعثه ﷺ وصار القوى يستذل الضعيف ويهدده فى كل شىء كما ساءت أخلاق الناس وبرزت فيهم الشهوات والغرائز وأصبحوا يستجيبون لنزوات الجسم ومطالب الفرج أما وقد وصل الأمر إلى ذلك الحد ولم يسلم منه إلا من هدى الله وقليل ماهم .

فقد أصبحنا فى أمس الحاجة للعودة إلى الإسلام وأصبح يحتم على البشرية كلها أن تعود راضية مختارة إلى ذلك الدين الذى أتم الله به النعمة على عباده وأكمل لهم دينهم بشرعه فتطبق أحكامه وتلتزم بآدابه وأخلاقه كل فى مجال عمله ولا يتم ذلك إلا إذا آمن الناس بالإسلام ، وارتضوه دينا لهم وعندئذ يفرح المؤمنون بنصر الله ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم .



الخاتمـــة

هذا الكتاب حاولت فيه قدر طاقتى أن أبرز محاسن الإسلام وأبين أثره على البشرية منذ أن ظهر فى الأرض حتى هجره الناس ولجأوا إلى الظلام وأمامهم النور الذى أضاء لمن قبلهم الطريق وحقق فيهم الخير وهداهم إلى الرشاد .

وبعد أن عرضت الحقائق التى تؤكد ذلك وتوضحه وذكرت ما آل إليه أمر الناس من انحراف عن هدى الله تعالى فحرفت كتب السماء وغيرت بأيدى من يزعمون أنهم أبناؤها المؤمنون بها .

كما فشى الشرك والوثنية فى الناس حتى عم الظلام الأرض ، ذكرت بعد ذلك هذا النور الذى تجلى فى الإسلام وكتابه ونبيه كما قال تعالى : [قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين] .

وكما قال : [ولكن جعلناه نوراً نهدى به من نشاء من عبادى] بعد كل هـــذا الذى وضحته صفحات الكتاب فأنى أهيب بالمسلمين بصفة خاصة وبالعالم كله بصفة عامة أن يعودوا إلى الإسلام ويتصفحوا تعاليمه الصحيحة المستمدة من الكتاب والسنة وسيجدون فى ذلك ما ينقذ البشرية من ظلامها الحالك الذى تتخبط فيه الآن كما أنقذها من قبل على يد رسول الله محمد ﷺ وقد قال الإمام مالك عالم المدينة وإمامهم [لا يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها] هذا وبالله التوفيق وصلى الله على سيدنا محمد النبى الأمى وعلى آله وصحبه وسلم .

الأستاذ الدكتور
عبد الله عبد الحى محمد عبد الرازق

عميد كلية الدراسات الاسلامية والعربية
فرع جامعة الأزهر بني سويف
ورئيس قسم الدعوة والثقافه الاسلامية
بكلية أصول الدين بالقاهرة

أهم مراجـــع الكتاب

أولا : القرآن الكريم .

ثانياً : كتب التفسير وأخص منها بالذكر :

١ — فتح القدير / للإمام الشوكانى .

٢ — ابن كثير .

٣ — القرطبى .

٤ — الفخر الرازى .

٥ — فى ظلال القرآن

٦ — الألوسى

٧ — التفسير الواضح / الدكتور حجازى

ثالثاً : كتب الحديث وأخص منها بالذكر :

١ — صحيح البخارى

٢ — صحيح مسلم .

٣ — السنن .

٤ — شروح البخارى ومسلم .

رابعاً : كتب متنوعة .

١ — البداية والنهاية / لابن كثير .

٢ — تاريخ الأمم والملوك / لابن جرير الطبرى .

٣ — زاد المعاد / لابن قيم الجوزية

٤ — الروضة الأنف / لأبى القاسم عبد الرحمن بن عبد الله السهيلى

٥ — السيرة النبويه / لأبى محمد عبدالملك بن هشام

٦ — الطبقات الكبرى / لابن سعد

٧ — محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية .
٨ — الوفاء بأحوال المصطفى/ لابن الجوزى .
٩ — المغازى/ للواقدى
١٠ — تهذيب الأسماء والألقاب / للنووى
١١ — المثل الكامل / لجاد المولى
١٢ — نور اليقين/ للشيخ الخضرى
١٣ — الجهاد فى الاسلام/ للسيد أبو الأعلى المودودى
١٤ — رحمة للعالمين/ محمد سليمان سليمان المنصور
١٥ — صلح الحديبية/ للأستاذ أحمد باشميل
١٦ — غزوة بدر « « «
١٧ — غزوة أحد « « «
١٨ — فقه السيرة/ للشيخ محمد الغزالى
١٩ — بطل الأبطال/ للاستاذ عبد الرحمن عزام
٢٠ — الرسالة الخالدة/ « « « «
٢١ — دعوة الرسل / للأستاذ محمد أحمد العدوى
٢٢ — الأبطال توماس كارليل
٢٣ — الدعوة الأسلامية/ توماس أرلوند
٢٤ — أخبار مكة/ للأزرق
٢٥ — الكتاب المقدس/ (العهد القديم والعهد الجديد)

فهـــرس الكتاب

مسلسل	الموضوع	الصفحة

رقم الإيداع بدار الكتب
١٩٨٥/٤٤٧٧ م



مركز ميدو لطباعة الأوفست والكمبيوتر
٤٣٦ ش الترعة البولاقية - شبرا ☎ ٢٠٣٣٤٦٣